سلسلة علم النفس



إعداد

كامل محمد محمد عويضة

مراجعة

أ. د محمد رجب البيومي

عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة

دار الكتب العلمية

بيروت ـ لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
تلفون وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١) ٠٠
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH
Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.
Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

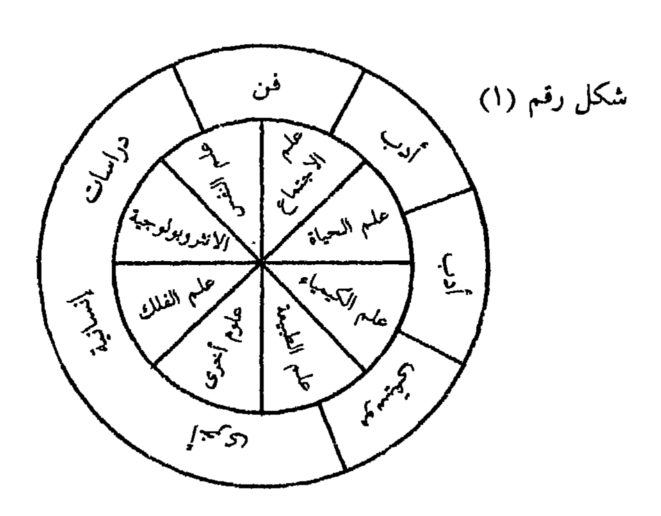
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تعريفات وتمهيدات

تعريف العلم:

نستطيع أن نعرف العلم من خلال استقراء الخصائص المشتركة بين أنواع النشاط الإنساني التي يطلق عليها في العصر الحديث اسم «العلوم» سواء كانت علوماً طبيعية أو اجتماعية (انظر الشكل رقم «١»)، وكذلك من خلال معايير العلماء وفلاسفة العلم لمحكات التفكير العلمي.

دراسات ميتافيزيقية



شكل رقم (١)

النظم والمباحث التي يقوم الإنسان بدراستها

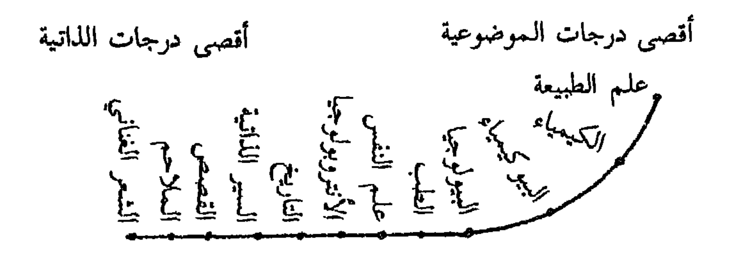
فإذا تصورنا مجالات الدراسات والمباحث التي يطرقها الإنسان على شكل دائرة، فإننا نستطيع أن نصنف هذه الدراسات إلى ثلاث مجموعات - مع استبعاد العلوم «الصورية» كالرياضيات والمنطق، لأنها لا تضيف علماً بالعالم الخارجي - وهنا نستطيع أن نلاحظ (كما في الشكل رقم «١») أن الدائرة الداخلية تتضمن ما هو معروف باسم العلوم، وتتضمن الدائرة الثانية - من الداخل نظماً لا تعد علوماً كالفنون والإنسانيات، أما النظم التي تقع خارج هذه الدائرة فيطلق عليها اسم «متافيزيقا» (MeGuigan,Fj. lg (9, p. 2).

ورغم المزايا المتعددة التمييز بين دائرة العلوم وسائر أنواع النشاط الإنساني فإن بعض الباحثين يميل إلى النظر إلى سائر نشاطات الإنسان المعرفية على أنها تقع على متصل يمتد من أقصى درجات القابلية للتحقق وتطبيق المنهج العلمي الموضوعي، إلى أقصى درجات الذاتية والتفرد (انظر الشكل التالي).

ورغم وجود بعض جوانب الاختلاف بين العلوم فيما بينها، إلا أننا سنحاول هنا أن نحدد الملامح الأساسية التي تميزها عن غيرها من أنواع النشاط الإنساني الأخرى.

يوضح الشكل التالي درجات اتسام النشاط المعرفي الإنساني بالموضوعية أو الذاتية

(Koestler, A.1964 1.333 -334)



أولاً: إستخدام المنهج العلمي:

ويتمثل هذا في عملية متتابعة الخطوات، تحصل من خلالها جميع العلوم على الإجابة عن أسئلتها، وتقيم صرح بنائها، ومن أهم خصائص المنهج العلمي:

(أ) دراسة مشكلات قابلة للحل:

إذ أن المشكلات غير القابلة للإجابة عنها من خلال أدوات البحث العلمي وأساليبه ـ لا يمكن أن تعد مشكلات علمية أما المشكلات العاملة للحل سواء كان هذا الحل ممكناً بالفعل عند بداية البحث، أو ممكناً في المستقبل بعد إحراز نوع من التقدم في أساليب البحث، فهي وحدها التي يمكن أن تكون موضوعاً للدراسة العلمية.

وهذه المشكلات القابلة للحل تتميز بأنها عبارة عن أسئلة يمكن التحقق منها عن طريق أحداث أو وقائع قابلة للمشاهدة في الواقع، وهي بالتالي يمكن أن تخضع للحل التجريبي أي التحقق منها من خلال تجربة نتحكم أثناءها في ظروف المشاهدة تحكماً دقيقاً، أو يمكن على الأقل إخضاع هذه الأسئلة لظروف مشاهدة مضبوطة.

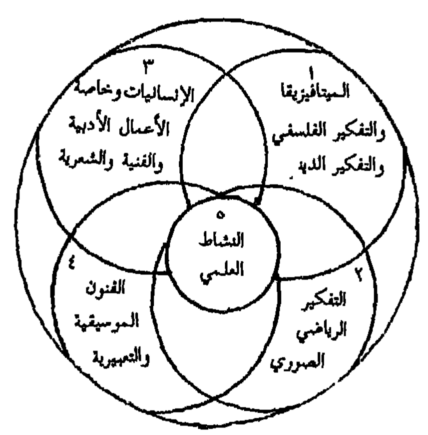
والتجربة العلمية أو المشاهدة المضبوطة التي يقوم بها العالم، عبارة عن سؤال يلقيه العالم على الطبيعة، للتحقق من حل امبدئي لإحدى المشكلات، أو لفرض من الفروض على أساس من الأدوات والأساليب المتاحة للعلماء، أو التي يمكن ابتكارها.

أما المشكلات غير القابلة للحل، أو غير القابلة للخضوع لظروف التحقق من خلال التجارب أو المشاهدات المضبوطة، فلا تدخل في دائرة العلم.

ولا يعني هذا، إضفاء نوع من القيمة أو التفضيل على النشاط الإنساني الذي يطلق عليه إسم العلم، إذ أن أنواع النشاط المعرفي الأخرى سواء تمثلت في دائرة العلوم الإنسانية (اللغات والآداب والفنون، والموسيقى) أو في أنواع

من التفكير الفلسفي أو الديني، لها قيمتها في حياة الإنسان.. وتتبدى من خلالها طاقات الخلق لديه. ونحن عندما نميز النشاط العلمي عن هذه النشاطات بعدد من الخصائص، إنما نقوم بهذا على سبيل تحديد المعالم لكل نوع من النشاط حتى نكون على بينة من أمرنا، إذا اخترنا تركيز جهدنا الأساسي في بعض أنواع الإنتاجات المعرفية، في أي مجال من مجالات النشاط الإنساني، وليس هذا من قبيل تفضيل مجال على الآخر.

لأن كل مجال من مجالات النشاط المعرفي له دوره في التعبير عن بعض خصال الكائن الإنساني، من حيث هو قادر على أن يتجاوز بتفكيره أو خياله حواجز الماضي وآفاق المستقبل، أو من حيث هو كائن إجتماعي له متطلباته الإجتماعية والوجدانية والأدبية والشعرية، ومن حيث هو قادر على الإستجابة لمظاهر التعبير الفني والموسيقي، بل ومن حيث هو قادر على الإنتاج الفني والموسيقي، وعلى استخدام الرموز الرياضية الصورية. ومن حيث هو قادر على تفهم مختلف الفلسفات والدعوات الإصلاحية والأخلاقية، والإستجابة لدعوة أصحاب الديانات من الرسل الكرام، ومن حيث معرفة ما ينبغي أن يتصف به خالقة سبحانه وتعالى:



العلاقة بين النشاط العلمي والنشاط المعرفي للإنسان

«ويوضح «تميز» النشاط العلمي عن مختلف مجالات النشاط المعرفي رغم إتصاله به».

أو يتنزه عنه من صفات، وما يتصل بذلك من التمييز بين مواطن رضاه وسخطه وأساليب التقرب إليه، وإملاء القلب بمحبته أو السعي لإرضائه عملاً على نيل مثوبته أو تجنباً لعقابه.

وكل هذه الجوانب - رغم تميزها فيما بينها، ورغم أن لها أهميتها الحيوية في حياة الإنسان، سواء من حيث ما تمثله من دافع لمزيد من النشاط، أو من علامات مميزة لبعض الجماعات في فترات معينة من تاريخها - تتميز عن النشاط العلمي، بمجالات اهتمامها وبأسلوب تناولها لموضوعات دراستها. رغم أن كثيراً من قضايا البحث العلمي قد تنسج، في البداية، من مادة أولية تعتمد أساساً على واحد من هذه المجالات أو أكثر (أنظر الشكل رقم «٢» ص ٥).

فالفلسفة لا تغني عن الأدب والفن، كما أن الفن لا يغني عن الفلسفة، ويختلف الفن بطبيعته عن التفكير العلمي، لأن مشاعر الجمال ليست صورة لعلاقة منطقية، أو لقوانين موضوعية تسير بمقتضاها الظواهر، تشبه القوانين التي تكتشف في العلوم الطبيعية. إذ أننا نفقد الشعور بجمال الزهرة عندما نفكر فيها بطريقة علمية: من ناحية جنسها ونوعها، وكيفية نموها وتركيب أعضائها، أو في أنه من الخير - أو من الشر - نزعها من مكانها.

ونحن نشعر بجمال العمل الأدبي أو الفني (بوجه عام) بقدر صدقه، أو شعورنا بصدقه في تحريك مشاعرنا، بغض النظر عن «الصدق» الواقعي، لما يرويه لنا، أو لما يصور من قيم الخير أو الشر!.

ولا يمكن لمناهج التفكير الرياضي أن ترجح صدق إحدى قضايا علم الطبيعة أو كذبها، كما أن المناهج العلمية التجريبية لها حدودها التي لا تصلح إلا في إطارها. فكفاءتها محدودة بالقضايا التي يمكن التحقق من تجربتها في ظل الأدوات ومناهج المعرفة الإنسانية المتوفرة وقت محاولة التحقق منها.

ولا نستطيع أن ندعي أن القضايا الهامة للإنسان في حاضره ومستقبله

القريب والبعيد، تقتصر على تلك القضايا التي تقبل التحقق على محكات الواقع. لأن كثيراً من القضايا الخيالية قد تمثل أملا يحاول الإنسان يوماً أن يحققه في عالم الواقع. كما أن كثيراً من القضايا المعنوية والأخلاقية والدينية قد تدفع بالحياة الإنسانية قدماً، وتجعل النشاط العلمي والمادي له معنى إنساني وروحي يفجر الطاقات الخلاقة لدى البشر. فضلاً عن إثارة تطلعات الإنسان إلى آفاق رحيبة لا تستطيع العلوم الطبيعية الحسم فيها، وثمة وسائل أخرى للتمييز بين الغث السمين من المعتقدات، وليس من الأمانة العلمية في شيء، إدعاء التعالم ورفض كل ما لم يثبت للدليل التجريبي المحدود بالخبرة المتاحة. وحسبنا هادياً في هذا قول الشيخ الرئيس أبي علي ابن سينا: «إياك أن يكون تكسبك وتبرؤك عن العامة هو أن تنبري منكراً لكل شيء، وذلك طيش وعجز، وليس الخرق (عدم الرفق) في تكذيبك ما لم يستبن لك بعد جليته، دون الخرق في تصديقك ما لم تقم بين يديك بينة عليه، بل عليك الاعتصام بحبل التوقف (عن الحكم) ما لم تبرهن استحالته لك (ابن سينا ١٩٦٠ج ٤، ص، ١٥: ١٦٠).

لأن رفض القضايا بلا دليل، ليس أقل حمقاً وإغلاقاً لمنافذ المعرفة من قبول قضايا دون دليل.

ولا شك أن عدم الإغلاق على قضايا علمية تتصل بقوانين يتخيل العلماء وجودها، يفتح آفاقاً عظيمة في مجالات المعرفة العلمية المختلفة.

على أنه لا يتم قبول القضية على أنها فرض علمي، أو قانون علمي، إلا إذا توفر له شروط القضية العلمية التي سبق الإشارة إليها.

وأهم ما تتميز به القضايا العلمية، أنها تعبر عن مشكلات «قابلة للحل»، أي لا بد أن تقبل ـ بحكم قابليتها للحل العلمي، إجراء مشاهدات مضبوطة (أو تجارب تجمع من خلالها مشاهدات مضبوطة) وتتمثل أهم الخصائص التي لا بد من توفرها حتى يمكن تحقيق الضبط العلمي للمشاهدة وللتجربة، في ما يطلق عليه اسم «الموضوعية».

(ب) وجود علاقة دينامية بين المشاهدات والنظرية:

القيام بإجراء التجارب أو جمع المشاهدات الموضوعية المضبوطة، من أهم خصائص النشاط العلمي، على أن هذا الجانب لا يستدعي النشاط العلمي بأكمله، وإن كان يمثل شرطاً من أهم شروطه، ذلك أن النشاط العلمي نشاط دينامي متتابع الحلقات، تتفاعل فيه كل من المشاهدة والمفاهيم النظرية المجردة، بحيث لا نستطيع على وجه الدقة أن نحدد هل نقطة البداية لهذا النشاط تتمثل في المشاهدة أم في المفاهيم المجردة.

ويشهد تاريخ العلوم الطبيعية منذ حوالي ثلاثة قرون مضت أمثلة لمفاهيم خصبة ومفاهيم جدبة. والمفهوم الخصب، ليس هو الذي يحقق نجاحاً في الإرتباط بالوقائع التي يمكن مشاهدتها وإنما النجاح الحقيقي للمفهوم إنما يتمثل في درجة ما يثيره من مزيد من التجارب أو المشاهدات التي تتسم بدورها بنوع من الخصوبة (Corart,J,B, 1997,pp29- 21).

بل إن جمع مشاهدات لتأييد نظرية معينة، دون توفر شروط التحقق العلمي الموضوعي من الفروض والنظريات قد يؤدي إلى مجرد تجميع مشاهدات متحيزة تؤيد النظرية.

وقد يعمل الباحث إذا لم تتوفر شروط التحقق العلمي الجيدة دون قصد منه، على خلق المشاهدات التي تؤيد نظريته، كما هو الحال في المعالج الذي يتبنى نظرية «التحليل النفسي» عندما يذهب إليه مريض، فيوحي لهذا المريض بإيحاءات تجعله يحلم أحلاماً معينة، ثم يرى المحلل النفسي بعد أن يعود إليه المريض ويرويها له إن هذه الأحلام، تؤيد نظريته؟ وهذا أمر لم ينكره «فرويد» (S. Freud) نفسه، مؤسس نظرية التحليل النفسي. (Popper.1976, p38).

وإن كان لا بد للمشاهدات أن تتصف بالموضوعية، فإن هناك عدداً من المواصفات لا بد أن تتوفر في الفرض العلمي، وفي النظرية العلمية، سوف نوضحها في الفقرة التالية:

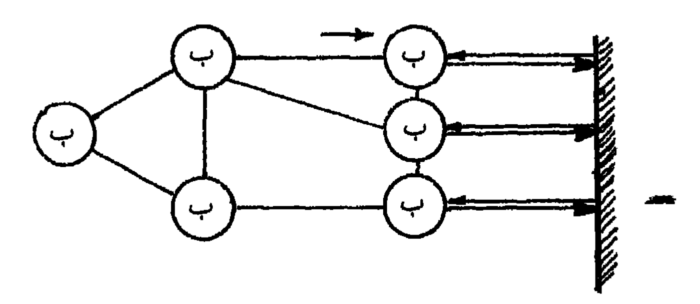
(ج) المعالم الأساسية للنظرية العلمية وأساليب التحقق منها:

وإذا كان العلم عبارة عن بناء من المعرفة، أو طريق قد يبدأ بالبيانات المستمدة من البيانات المحسوسة القابلة للمشاهدة، أو يبدأ بنظرية أو مفهوم مجرد أو فرض معين، فإن التفاعل بين الطرفين هو الذي يجعل العلم نشاطاً حياً، نامياً، ويساعد على ارتقائه وتقدمه.

ويتمثل الجانب النظري من المعرفة العلمية في بناءات لها علاقات بعضها بالبعض الآخر، أما الجانب الواقعي فيتضمن بيانات واقعية قابلة للمشاهدة.

ويلاحظ من الشكل رقم (٣)، أن الموقف الواقعي القابل للمشاهدة عن يمين البيانات القابلة للمشاهدة مجال البناءات النظرية.

وهو يمثل رسماً تخطيطياً لبناء العلم المتقدم



الشكل رقم (٣) وهو يمثل رسماً تخطيطياً لبناء العلم المتقدم

الرسم، على حين أن الجانب النظري يقع عن شمال الرسم؛ وأن الدوائر تمثل بناءات نظرية. ويرتبط الجانبان ـ الواقعي والنظري ـ عن طريق قواعد للإتصال، يمكن من خلالها تعريف بعض البناءات النظرية من خلال بيانات قابلة للمشاهدة. حيث تمثل الخطوط المزدوجة قواعد للإتصال بين المشاهدات

والنظرية. وقد يطلق على هذه الخطوط اسم «التعريفات الإجرائية»، أي قواعد تفسير البناءات النظرية وترجمتها إلى إجراءات وبيانات قابلة للمشاهدة. أما الخطوط الفردية فتربط بين كل بناءين نظريين، وتدل على وجود صلة «نظرية بينهما»، أي أن هذه الخطوط الفردية تمثل العلاقات الصورية أو المنطقية بين البناءات النظرية على حين أن الخطوط المزدوجة تمثل الإجراءات الواقعية أو التجريبية التي تربط النظرية بالواقع.

وهناك نوعان من التعريفات العلمية هما:

١ ـ التعريفات البنائية(١):

وهي التي تعرف البناءات النظرية، بطريقة إستدلالية، دون إحالة مباشرة إلى وقائع أو مشاهدات، وإن كانت من أهم خصائصها أنها تسمح ـ بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ـ بإجراء مشاهدات، وإلا لم يكن لها أية فائدة لعملية الإستكشاف العلمي.

وهذه التعريفات البنائية، هي التي تسمح بتكوين قوانين ونظريات علمية، تمثل أنواعاً من العلاقات بين بناءين أو أكثر على أساس وصلات بنائية.

٢ ـ التعريفات الإجرائية:

وهي عبارة عن تعريف المفهوم ـ لا في ضوء بناءات نظرية أخرى، بل بالإشارة إلى بيانات أو إجراءات قابلة للمشاهدة، والتقدير الكمي. مثل تعريف «الفترة الزمنية» عن طريق أحد الانساق الدورية، كدوران الأرض، أو بداية أو نهاية أحد العلامات على ساعة رملية. ومثل تعريف القدرة على التعلم بأنها: الفرق بين الدرجة على اختبار قبل تلقي التدريب وبعده. والذكاء بأنه: درجة معينة على اختبار محدد للذكاء. والمستوى الإجتماعي الإقتصادي بأنه: حاصل جمع درجات موزونة، لكل من الدخل والتعليم والعمل، كما يتحدد من خلال مستويات للتقدير الخ.

الخطوات المنهجية الأساسية في العلم:

قد تبدأ هذه الخطوات المنهجية في العلم بمشاهدات مضبوطة للموقف على أساس تعريفات إجرائية ثم ترتقي إلى مستوى نظري تمر فيه من بناء أو تكوين نظري تصوري إلى آخر من خلال وصلات أو حلقات بنائية، ثم تعود إلى نطاق الملاحظات عن طريق التعريفات الإجرائية، وعندما نبلغ أعلى مستوى من التنظير في نظرية معينة، فإن قبولها أو رفضها إنما يكون أساسه الإتفاق بين ما نتنبأ به في ضوئها وبين البيانات التي تم الحصول عليها من خلال مشاهدات واقعية. كما أنه من الممكن أن يبدأ النشاط العلمي بإطار نظري معين أو بناء نظري نحاول التحقق من صدقه بعد ذلك، من خلال مشاهدات واقعية.

المهم أن النشاط العلمي لا بد له من إجراء المشاهدات الواقعية، من ناحية، واجراءات تفسيرات نظرية، من ناحية أخرى.

ويقترح بعض الباحثين المهتمين بمناهج البحث في العلوم (مثل مارجينو Margenau) تصنيفاً للعلوم المختلفة على أساس درجة اعتمادها على إجراءات وتفسيرات وبناءات نظرية، في مقابل اعتمادها على إجراءات وتفسيرات ترتبط بالواقع القابلة للمشاهدة. فمثلاً كل من علمي الطبيعة والكيمياء يمثلان أقصى درجات التنظير (أو استخدام بناءات نظرية)، على حين أن معظم العلوم الاجتماعية يغلب عليها الارتباط بالوقائع، وإن كان علم النفس يتمتع بقدر جيد من التنظير.

ويلاحظ أنه يغلب على العلوم عند بداية ظهورها طابع الارتباط بالواقع، وتتقدم مع ارتقائها نحو مستوى أعلى من التنظير الذي يمكنها من تحقيق مزيد من الإكتشافات (togcrson, 1953,).

أهم مواصفات النظرية العلمية:

١ ـ لما كان من السهل تجميع مشاهدات تؤيد نظرية معينة، فإن النظرية لا تصدق بمجرد الحصول على مشاهدات تؤيدها، وإنما يتحقق صدقها إذا

أمكنها أن تتنبأ بتنبؤات على سبيل المخاطرة لا أن تقتصر على تفسير ما يحدث بعد حدوثه.

٢ ـ كذلك فإن النظرية الجيدة تتنبأ بعدم حدوث بعض الأمور، وكلما كان تحديدها أكبر لما يمتنع حدوثه من أمور، كلما كانت أفضل.

٣ ـ لا تكون النظرية علمية إذا كانت لا تقبل التحقق منها. أي لا تقبل إمكان الرفض أو التحقق من الظروف التي ترفض النظرية إذا توفرت. وعلى هذا فإن الاختبار الصحيح للنظرية، إنما يتمثل في محاولة جمع البيانات التي يمكن رفض النظرية من خلالها.

٤ ـ لا يعتد بالدلائل التي تؤيد النظرية، إلا إذا كانت نتيجة لاختبار حقيقي للنظرية، أي نتيجة لاختبار جاد لبطلانها، تبين منه عدم نجاح محاولة إثبات بطلانها.

٥ ـ يقدم أنصار بعض النظريات التي تقبل الاختبار ـ مسلمات إضافية، بعد ثبات بطلانها، أو يعيدون تفسيرها بطريقة تجعلها تفلت من التفنيد، وإن كان هذا يخرب فيها مواصفات النظرية العلمية، أو على الأقل يخفض من مستوى المكانة العلمية للنظرية.

ونوجز كل ما سبق من أن المحك الأساسي للمكانة العلمية للنظرية، إنما يتمثل في: إمكان التحقق من بطلانها، أو تفنيدها أو اختبارها. (popper,k., 1976, pp36-37).

(ب) الطابع غير الشخصي، التراكمي:

ترتبط النتائج للنشاط الإبداعي في كل من الفلسفة والفن والأدب بشخصية المبدع، بحيث أنه كلما ذكر هذا الإنتاج الفلسفي أو الفني الأدبي، ذكر معه اسم صاحبه. ولا يقتصر الأمر على مجرد ذكر اسم صاحب العمل عند تقديمه، بل إن البعض يرى أن العمل نفسه ما كان له أن يوجد، بهذا الشكل وبهذا الطابع ما لم يوجد صاحبه الذي يحمل تاريخاً شخصياً فريداً وأسلوباً فريداً

في التعبير عن آرائه أو مشاعره. وعلى سبيل المثال، فإن مسرحية «عطيل» ترتبط إرتباطاً وثيقاً بشخص «شكسبير»، وظهورها كان رهناً بظهوره. ورغم أن الدراما كانت ستظهر في العصرالإلزابيثي، حتى إذا لم يوجد شكسبير، فإنه لم يكن من الممكن لأحد غير شكسبير ـ، رغم اعتماده على الروائيين السابقين عليه ـ أن يكتب عطيلاً، وذلك في رأي باحثين مثل «برونوفسكي» (Bronowiski, 1958). ونحن وإن كنا لا نوافق تماماً على هذا الرأي، لأن إنتاجات شكسبير كلها ما كان لها أن تظهر ما لم يتوفر عدد من الخبرات والعناصر السابقة عليها والممهدة لها، إلا أن الطابع الشخصي شديد الإلتصاق بالعمل الفلسفي والفني والأدبي. على حين أن العمل العلمي سواء كان اختراعاً، أو إكتشافاً، أو نظرية علمية متكاملة، رغم أنه يحمل في المراحل الأولى لظهوره بصمات صاحبه، وينسب إليه، إلا أنه لا يلبث أن يضاف إلى التراث العلمي الإنساني، ويفقد طابعه الشخصي، أو طابع انتمائه إلى أحد الأفراد من العلماء، ويلتصق به طابع غير شخصي يتمثل في «الموضوعية»، والقابلية للتحقق والقابلية للإعادة.

وتساعد خاصية الطابع غير الشخصي على تحقق خاصية أخرى من أهم ما يتسم به النشاط العلمي، وهي أنه «تراكمي»، بمعنى أن قضاياه التي تم التحقق منها عن طريق المنهج العلمي، تضاف إلى التراث العلمي الإنساني الذي سبقها، وتمهد لنشاط علمي لاحق عليها.

ونستطيع أن نتصور هذا الطابع التراكمي الذي يميز النشاط العلمي عن كل النشاطات المعرفية الأخرى. سواء كانت فلسفية أو فنية أو أدبية، إذا تخيلنا أنفسنا أمام أعلام العلم بفروعه المختلفة، الذين حملوا لواء الإكتشافات والمخترعات العلمية منذ عدة قرون، أمثال «جاليليو» (Galilio) و «نيوتن» (Newton) و «هارفي» (Harvey)، وبينيه (Binet) ـ والسؤال الذي سنوجهه إلى هؤلاء العلماء هو:

ما مدى التقدم، الذي أحرزه العلماء، منذ الوقت الذي ظهرت فيه مبتكراتهم حتى عصرنا الحاضر؟

وسوف نوجه نفس السؤال إلى أعلام الفلسفة والفن والأدب والشعر مثل: الفيلسوف اليوناني أرسطو، والفيلسوف الألماني هيجل والموسيقي الفذ بيتهوفن، والرسام رامبرانت، والمثال ميكائيل انجلو والشعراء العرب: أبي العلاء، وابن الرومي وأبي تمام والمتنبي، وشعراء اليونان: يوريبيد وسوفوكليس، والشعراء الأوربيين دانتي (الإيطالي) وراسين (الفرنسي) وشكسبير (الإنجليزي).

ونستطيع أن نتصور بسهولة، أن العلماء سيشهدون أو سيجيبون، بأن المعرفة العلمية ـ التي تراكمت منذ عهودهم إلى اللحظة الحاضرة ـ أصبحت أكثر تقدماً ودقة، بحيث أصبح بناء علمهم أكثر شموخاً وتعقيداً...

أما الفلاسفة والفنانون والأدباء والشعراء، فنستطيع أن نتصور أن إجابتهم على نفس السؤال ستكون شديدة الاختلاف، لأنهم سيرون أن أغلب مجالات إبداعهم أصبحت أكثر تدهوراً، وسيرى ـ أكثرهم تفاؤلاً ـ أن الإبداعات المعاصرة في مجال نشاطه (سواء كان فلسفة أو فناً أو أدباً أو شعراً) لم تتجاوز انجازاتهم الإبداعية.

ولعل هذا المثل يبرز لنا كيف أن النشاط العلمي يعتمد على تراكم الخبرات والنتائج والجهود، لأنه غير شخصي، ومن هنا يتحقق قدر من التقدم والارتقاء مع تتابع الوقت وتراكم الجهود. أما النشاط الفلسفي والفني والأدبي، فإنه يختلف في طبيعته عن النشاط العلمي، لهذا لا يشترط أن يكون اللاحق «أفضل» من السابق أو قائم على أساسه، كما هو الحال في العلم (Corart,J., 1997, pp.20-21).

(حـ) تتمثل الأهداف الأساسية للعلم التي يحققها عن طريق مناهجه في كل من:

١ ـ الفهم: ويتم هذا الفهم، الذي يعد نوعاً من التفسير للعلاقات بين المتغيرات موضع الدراسة في ضوء إطار نظري معين. ولا بد أن نميز بوضوح بين الفهم العلمي الذي يجيب على السؤال: لماذا تحدث ظاهرة معينة؟ وبين مجرد الوصف، لأن وصف ما نراه من مظاهر لإحدى الظواهر الطبيعية مهما كان

دقيقاً، لا يمكن أن يكفي لتفسير هذه الظاهرة. فنجد مثلاً أننا لا نستطيع أن نفسر ظاهرة «كسوف الشمس» بمجرد «وصف» مظاهر احتجاب نور الشمس في لحظة معينة، إذ لا بد لكي نفهم هذه الرابطة من أن نتوصل إلى قانون أو مبدأ يمكن من خلاله أن نربط بينها وبين ظواهر أخرى مستقلة عنها مثل: وضع القمر بالنسبة لكل من الأرض والشمس، نتصورها في ضوء إطار نظري للعلاقة بين كل من الأرض والشمس والقمر ونستطيع في ضوء هذا الإطار النظري أن نقوم بإجراء عدد من الملاحظات.

وبالمثل، فإن مجرد وصف أحد التصرفات الغريبة لشخص معين في موقف ما، لا يمكن أن يعد تفسيراً لهذا التصرف، ولا نستطيع أن نقوم بتفسير لهذا السلوك إذا أرجعناه إلى صفات الشخص نفسه، مثل الشعور بالذنب أو الرغبة في التفوق، إلا إذا ربطنا بين هذا الشعور بالنقص، أو تلك الرغبة في التفوق من ناحية أو بين متغيرات أخرى مستقلة عن هذا الشعور أو تلك الرغبة، مثل: ظروف التنشئة الإجتماعية أثناء فترة الطفولة (عماد الدين إسماعيل ١٩٧١) في إطار نظري تقبل القضايا المستمدة منه التحقق منها على أساس واقعي.

ويتمثل الهدف الأساسي لكل علم من العلوم في محاولة فهم الظواهر موضوع الدراسة، أي من خلال اكتشاف القوانين التي تسير هذه الظواهر بمقتضاها، ويطلق على هذا الجانب إسم الجانب النظري أو الأساسي.

أما الهدفان التاليان (التنبؤ والتحكم) إنما يعتمدان اعتماداً أساسياً على دقة الفهم، ويمثلان محكين للتحقق من دقة هذا الفهم.

٢ ـ التنبؤ:

التنبؤ عبارة عن إخبار مسبق بمجموعة من العلاقات بين متغيرات أو من الأحداث القابلة للمشاهدة، والتي يرجح حدوثها في ضوء قانون أو نظرية علمية.

ويعد التنبؤ من أهم الدعائم التي يقوم عليها ارتقاء العلم واستمرار نموه وتطوره. ومن أهم مميزاته أنه يساعد على زيادة الفهم العلمي، نظراً لأنه يمثل

جزءاً من عملية التحقق العلمي من صحة بعض التفسيرات. وهو يمثل محكاً هاماً لصدق النظرية العلمية، إذ يتم قبول النظرية العلمية والحكم عليها بأنها صادقة، إذا اتفق ما تم التنبؤ به في ضوئها، مع البيانات الواقعية أو المشاهدات المضبوطة التي يتم الحصول عليها، كما أنه يتم رفض النظرية والحكم عليها بالبطلان ، إذا لم تتفق التنبؤات القائمة على أساسها، مع البيانات التي يتم جمعها (targerson, 1957).

فمثلاً، إذا تنبأنا ـ في ضوء إطار نظري معين ـ بأن ارتفاع درجة الذكاء التي تقيسها اختبارات الذكاء، ترتبط بكل أنواع التفوق في التحصيل الدراسي، والابتكار العلمي والفني والتوافق الإجتماعي، وأن مرتفعي الذكاء سيكونون من أكثر الناس قدرة على الإبداع العلمي والأدبي. لكن إذا لم تؤيد المشاهدات هذا التنبؤ، كما حدث فعلاً من خلال البيانات التي حصل عليها «ترمان» terman بعد تتبع لحوالي ألف تلميذ من ذوي الدرجات فائقة الإرتفاع في الذكاء، حيث تبين أنه يمكن على أساس الدرجة المرتفعة على اختبارات الذكاء التنبؤ بدقة بالتفوق في التحصيل الدراسي، في حين لم يمكن التنبؤ بدقة من خلال درجات الذكاء المرتفعة على ارتفاع القدرات الإبداعية، فإن هذه النتائج تجعلنا نرفض الإطار النظري الذي يذهب إلى أن الذكاء العام (كما تقيسه اختبارات الذكاء، وهو في الغالب ذكاء تحصيلي تقريري) يمكن أن يكون أساساً للتنبؤ بأنواع الأداء الإبداعي (السيد عبد الحليم، ١٩٧١، ص ٥٢ ـ ٥٥).

ولا يكون التنبؤ الدقيق إلا على أساس الفهم العلمي الدقيق. ومع ذلك، فقد يحدث أحياناً أن يتم نوع من التنبؤ دون فهم علمي «ونذكر على سبيل المثال، ذلك الرجل البدائي الذي يغمس رمحه في سم ثم ينجح في قتل ضحيته، سواء كانت حيواناً أو إنساناً. فهو هنا، لديه خبرة «عملية» بنتائج التفاعلات الكيميائية الحيوية، لكننا لا نستطيع أن نطلق علية إسم «عالم» بالتفاعلات الكيميائية الحيوية، مع أنه يتنبأ ـ بقدر من الدقة، ويستخدم هذه المعرفة إستخدامات لصالحه (أي يقوم بنوع التحكم)، لكنه لا يفهم لماذا

تحدث هذه الظاهرة؟ ولماذا تصدق تنبؤاته عندما تتحقق فعلاً كما تنبأ بها.

وينعكس هذا الإفتقار إلى الفهم العلمي، في كثرة أخطائه في التنبؤ، وكثرة فشله في الضبط والتحكم (Krechand crucbfield, 1998.pp3-9).

٣ ـ التحكم:

ويعني تناول الظروف التي تحدد حدوث الظاهرة بشكل يحقق لنا الوصول إلى هدف معين، على أساس من الفهم العلمي لهذه الظاهرة وتزداد قدرتنا على «التحكم» كلما زادت قدرتنا على فهم الظاهرة والتنبؤ بها، كما أن تكرار تحكمنا في الظاهرة ونجاحنا في تحقيق أهدافنا يعد اختباراً لمقدار صدق «فهمنا» وتنبؤاتنا للظواهر موضع التحكم في قضبان السكك الحديدية ونترك فراغات صغيرة بينهما على مسافات متباعدة، بناء على فهمنا لظاهرة امتداد المعادن بالحرارة حتى لا يؤدي امتداد القضبان ـ عند عدم ترك فراغات إلى انحنائها وانقلاب القطار. وبالمثل نستطيع بناءً على فهمنا لأبعاد الذكاء ولعلاقته بالتحصل الدراسي أن نتحكم في توجيه التلاميذ المتفوقين إلى دراسات جامعية وتوجيه التلاميذ ذوي التحصيل الأقل من المتوسط، والذكاء الأقل من المتوسط، إلى أنواع من الدراسات العملية، توفيرا لجهودهم ولجهود الدولة، وسعياً إلى تحقيق أكبر قدر من توافقهم النفسي والإجتماعي (إسماعيل، عماد، ١٩٧٠، ص ص ٣٤ ـ ٣٥).

ولا يتحقق التحكم في الظاهرة إلا إذا فهمنا ـ فهماً علمياً ـ الظروف أو العلاقات بين المتغيرات التي تحدد حدوث الظاهرة. أي أننا لا نستطيع أن نقوم بتغيير الظاهرة أو تعديلها إلا إذا توصلنا إلى فهم عملي لها نستطيع أن ننجح على أساسه في التنبؤ بمسارها.

وقد تصدق التنبؤات مرات عديدة متكررة ـ على أساس الخبرة العملية وحدها دون فهم علمي، إلا أنه كثيراً ما يحدث أن يفاجأ ذوي الخبرة العلمية بعدم صدق تنبؤاتهم القائمة على أساس الخبرات المتكررة: وعلى سبيل المثال: يحكى أن حاكماً قديماً تعود أن ينفذ حكم الإعدام في المجرمين عن طريق

تقديم سم الأُفاعي لهم لكي يشربوه، واستمر الأمر على هذا النحو، إلا أنه فوجىء يوماً بأن المجرمين الذين حكم عليهم بالإعدام، عندما تناولوا السم ظهرت عليهم أعراض آلام شديدة، إلا أنهم لم يموتوا بعد ذلك، وقد تبين بعد تمحيص الأمر إنهم تناولوا بعض الحمضيات (مثل الليمون) قبل تناول السم. وقد تحقق الحاكم من أن تناول الحمضيات يبطل من مفعول سم الأفاعي، وذلك بعد أن أعطي هذا السم لمجرمين تناولوا حمضيات وآخرين لم يتناولوه، فعاش الأولون ومات الآخرون (McGuigan, 1960).

ومن هنا يتبين لنا أن التحكم (بدون فهم علمي) يؤدي إلى الفشل الذريع في كثير من الظروف، بل إن المعرفة ذات الطابع العلمي ـ مثل تلك التي تم اكتشافها بعد معرفة أن الحمضيات تمنع سريان مفعول سم الأفاعي القلوي التركيب ـ لا توصف بأنها معرفة علمية لأنها لا تؤدي إلى تفسير آثار سم الأفعى بناء على فهم مركباته أو عناصره الأساسية، وعناصر الحمضيات وما يترتب على تفاعل كل بدرجات منها مع الآخر (بدرجات من التركيز مختلفة) داخل جسم الكائن الحي مما، يكشف عن العوامل التي تزيد من مقاومة الكائن الحي في ظروف معينة لآثار هذه السموم.

وبناء على الأمثلة السابقة، نستطيع أن نتبين بطلان المثل القائل: «إسأل مجرب ولا تسأل طبيب». لأن هذا المثل ينصح باتباع تعليمات الشخص صاحب التجربة العملية، وترك تعليمات صاحب الفهم، إذا تعارضت تعليمات كل منهما مع أن التحكم الجيد في الظاهرة لا يتحقق إلا إذا توفر لدينا فهما علمياً يفسر ظروف حدوثها. ويضع أمامنا التنبؤات التي نتوقعها على أساس هذا الفهم.

أما التحكم غير القائم على أساس من الفهم العلمي، فلا يمكن أن يوصف بأنه «علمي» ولا تضمن دقته، ولا يؤدي إلى استمرار الجهود المبذولة بهدف مزيد من الفهم للظواهر موضوع الدراسة.

إذا إن التحكم القائم على أساس الفهم العلمي يساعد على التحقق من

«صدق» الإطار النظري الذي قام على أساسه، ويدفع إلى مواصلة البحث عن إطار نظري آخر أكثر ملاءمة في حالة عدم صدق الإطار الأول.

أما التحكم على أساس من الخبرة العملية وحدها، فإنه يؤدي إذا نجح بالصدفة إلى عدم الإهتمام بمواصلة السعي إلى مزيد من الفهم العلمي، وقد يعزى عند فشله بتبني تفسيرات خرافية أو غير علمية ساذجة.

مقدمة

كل إنسان يعرف أن الإشاعات تميل إلى المبالغة. وتحليلنا للإشاعة يضع في اعتباره هذا الميل المقيت. ناظراً إليه من زاوية الإبراز فجوهر القصة، أو ما يعده المستمع جوهرها إنما يتضح عن طريق «وضع النقط على الحروف». وقصد أية إشاعة هو أن «تنقل» إنطباعاً» موحداً عن شيء يعد هاماً. وهل من سبيل لنقل هذا الإنطباع أفضل من الأسلوب البياني في المغالاة؟ فإذا ما هاجم رذيل شخصاً ما، فلم لا نقول عن هذا الأخير بأنه كان ضحية مجنون؟ وفي حالة ما يكون الإهتمام بعنصر الخصومة لهذا الشخص هو المسألة الرئيسية، فلِمَ لا يقول إنه قد تعرض للهجوم من جانب «ثلاثة» أو حتى من جانب جمهرة وإذا ما نال شخص وصية دسمة قدرها مائة ألف دولار، فلم لا ننقل فكرة الثروة العريضة بشكل أوضح فنقول إن قيمتها مليون دولار، وإذا تعرض أمننا للخطر في بيرل هاربور يفقدنا الكثير من السفن، فلم لا نجعل التأثير أكثر فاعلية فنقول إن أسطولنا قد إنمحق بكليته، فإن الدلالة الانفعاليه للخبر - وهي هدفه الأساسي تظل هي هي، سواء كان العدد دقيقاً أو منطوياً على المبالغة، ولكن القيمة والتعبير للخبر تكون أعظم عندما يتم «التبدل الوضعي» للخبر بنقله من التسجيل إلى أعلى نغمة في «السلم».

وكتبه

كامل محمد محمد عويضة

جمهورية مصر العربية - المنصورة

عزبة الشال - ش جامع نصر الإسلام

الفصل الأول
الذكاء

عندما يتكلم عامة الناس عن توزيع الذكاء بين الأفراد يتصورون أنهم ينقسمون إلى فئتين: أذكياء وأغنياء أو قد يضعون فئة ثالثة هي فئة: متوسطي الذكاء. ولكن التصور العلمي لتوزيع الذكاء بين الناس يختلف عن ذلك، فالذكاء موزع بين الأفراد بدرجات مختلفة، ويشبه توزيع الذكاء بين الناس توزيع أي صفة جسمية كالطول أو الوزن مثلاً، فالفروق بين الأفراد هي فروق في الدرجة وليست فروقاً في النوع.

ولقد بدأ اهتمام علماء النفس بموضوع الذكاء منذ أوائل القرن الحالي عندما ظهرت لأول مرة مقاييس تقيس الذكاء ويمكن بواسطتها معرفة درجة ذكاء أي شخص كما كان لاستخدام الأساليب الاحصائية (وخاصة التحليل العاملي) أثر كبير في توضيح مكونات الذكاء وطبيعته. هذا فضلاً عن القيمة التطبيقية لنتائج دراسات الذكاء في مجال التوجيه التربوي خصوصاً ما يتعلق باكتشاف التأخر الدراسي والتخلف العقلي، وفي مجال التوجيه والإختيار المهني، وأيضاً في المجال الاكلينيكي خاصة ما يتعلق بتحديد نسبة الذكاء وتدهورها. وتحديد أوجه القصور والقوة في الجوانب العقلية المختلفة للفرد ولهذا أصبح موضوع الذكاء من الموضوعات الهامة والأساسية في علم النفس.

تعريف الذكاء:

الذكاء تكوين فرضي[1] مثل مفهوم الطاقة والزمن وليس وحدات أو أشياء

---

(١) Hyphothetical

ملموسة، فهو كلمة مجردة بمعنى أن التعرف عليه أو قياسه لا يتأتى بشكل مباشر بل عن طريق نتائجه وآثاره أي عن طريق السلوك الذي يقوم به الفرد في البيئة. ويعرفه وكسلر[1] بأنه «القدرة الإجمالية للفرد على القيام بتصرفات هادفة والتفكير بطريقة عقلية والتعامل مع البيئة تعاملاً يتصف بالكفاءة».

ويعرفه كلفن[2] بأنه «القدرة على التعلم»، ويذهب شترن[3] إلى أن الذكاء هو «القدرة العامة على التكيف عقلياً طبقاً لمشاكل الحياة وظروفها الجديدة» ويعرفه كوهلر[4] بأنه «القدرة على الاستبصار أو إدراك العلاقات». أما بيرت[5] فيرى أنه «القدرة المعرفية الفطرية[6] العامة» ويعرفه تيرمان[7] بأنه «القدرة على التفكير المجرد أي التفكير المعتمد على الرموز اللغوية ومعاني الأشياء لا على ذواتها المادية المجسمة أو الملموسة».

وهذه المعاني المتعددة للذكاء تصوره لنا على أنه وظيفة عامة تشتمل على أشكال متعددة ومتنوعة من السلوك ـ ونطلق على هذه المظاهر المختلفة صفة الذكاء رغم تنوعها وتعددها.

وعموماً فإن السلوك الذكي هو كل ما سبق وغيره مما يصعب حصره. وقد يرجع سبب تنوع تعريفات الذكاء وتعددها إلى اختلاف نظرة العلماء إلى الذكاء: فمنهم من ينظر إليه من ناحية وظيفته، ومنهم من ينظر إليه من ناحية مكوناته ومنهم من ينظر إلى الإجراءات المتبعة في قياسه. والبعض يتعامل معه من منظور فسيولوجي، والبعض الآخر من منظور إحصائي كما سيتضح بعد قليل.

---

(١) Wechsler
(٢) Calven
(٣) Stern
(٤) Kohler
(٥) Bert
(٦) Innate
(٧) Terman

طبيعة الذكاء ومكوناته:

يرجع الفضل في توضيح طبيعة الذكاء إلى الرواد الأوائل لعلم النفس الإحصائي خاصة سبيرمان[1] وتلاميذه أمثال: بيرت[2]، وفرنون[3]، وطومسون كذلك لعلماء القياس العقلي المحدثين أمثال ثرستون[4]، وجيلفورد[5] وغيرهما، وذلك اعتماداً على أساليب التحليل العاملي.

وقد مرت النظريات العاملية بعدة تطورات إبتداء من ظهور التحليل العاملي سنة ١٩٠٤ تقريباً حتى وقتنا الحاضر وتحاول النظريات العاملية تقديم تصور علمي عن تنظيم القدرات العقلية لتجيب على الأسئلة الهامة التي تتبادر إلى أذهاننا حول: هل لدى الإنسان قدرة عقلية عامة واحدة؟ أم أن هناك قدرات واستعدادات متعددة؟ وما هي علاقة القدرة العقلية العامة بهذه القدرات والاستعدادات؟

(١) نظرية العاملين[6]:

قدم هذه النظرية سبيرمان سنة ١٩٠٤ وهي أول نظرية في تنظيم القدرات العقلية تقوم على أساس امبيريقي وتعتمد على التحليل الاحصائي. وتدعي هذه النظرية في صيغتها الأولى أن كل وجه من أوجه النشاط العقلي

---

(١) Spearman

(٢) Bert

(٣) Vernon

(٤) Thurstone

(٥) Guilford

التحليل العاملي: هو أسلوب إحصائي نقوم بإجرائه على معاملات الإرتباط التي نحصل عليها بين المقاييس، ويهدف إلى الوصف والتلخيص والتصنيف العلمي للوظائف العقلية وسمات الشخصية وغير ذلك من المظاهر السلوكية.

(٦) Befactor Theory

يشترك مع غيره من الوجوه الأخرى في عامل عام مشترك يسمى العامل العام[1] ويرمز له بالرمز (G). كذلك افترضت هذه النظرية إلى جانب هذا العامل العام العديد من العوامل النوعية[2] ويرمز لها بالرمز (S) فأي نشاط عقلي يصدر عن الفرد يحتوي على هذين العاملين:

أ ـ عامل عام مشترك بين كل أوجه النشاط العقلي.

ب ـ عامل نوعي يختص بنوع واحد من أنواع النشاط العقلي.

وبذلك يرى سبيرمان أن أي اختبار من الاختبارات العقلية يقيس هذين العاملين فقط، العامل العام: وهو يقترب من مفهومنا عن الذكاء، والعامل النوعي الذي يرجع للطبيعة الخاصة والخصائص المميزة للاختبار.

ويستشهد سبيرمان باستشهادات توضح رأيه:

فالارتباطات بين أي اختبارين للقدرة العقلية لا تصل إلى درجة الارتباط الموجب التام (١,٠٠)، بل نجد عادة معاملات ارتباط إيجابية أقل من الواحد الصحيح، ويرجع ذلك إلى اشتراك الاختبارين في العامل العام من ناحية وانفراد كل منهما بنوعيته الخاصة من ناحية أخرى.

ويترتب على ذلك: أن هدف الاختبارالنفسي هو قياس مقدار ما لدى الفرد من العامل العام، ما دام العامل العام يتضح في كل أوجه النشاط أو الاختبارات التي يقوم الفرد بالأداء عليها. ولذلك فإن محاولة قياس العوامل النوعية أمر لا فائدة منه لأنه لا يتصف بأي درجة من العمومية حيث يقتصر ظهور العامل النوعي على اختبار واحد فقط.

ولذلك يقترح سبيرمان فكرة استخدام الاختبار الواحد المشبع تشبعاً عالياً بالعامل العام لقياس الذكاء وذلك بدلاً من استخدام اختبارات ذات مضمون متنوع وغير متجانس كما هو الحال في اختبارات الذكاء السائدة.

ويرى سبيرمان أن الاختبارات التي تقيس العلاقات المجردة هي أفضل

---

(١) General Factor

(٢) Specific Factor

المقاييس لقياس ذلك العامل العام. وقد كان اختبار المصفوفات المتدرجة[1] محاولة لتحقيق هذا الهدف. ويصور سبيرمان العامل العام على أنه يشبه الطاقة العقلية العامة للفرد، أما العوامل النوعية فهي بمثابة الآلات أو طرز الأعصاب المتضمنة في وجوه النشاط المختلفة.

وقد أجرى سبيرمان دراسات عديدة بالاشتراك مع تلاميذه أدت إلى تعديل النظرية: فقد تبين أن أوجه النشاط العقلي عندما تكون متشابهة جداً نجد بينها درجة من الإرتباط أكبر من تلك التي ترجع إلى العامل العام. ولذلك فبالإضافة إلى العاملين: العام والنوعي يمكن أن تكون هناك فئة أخرى من العوامل وسطاً بين هذه وتلك، وليست عامة جداً بقدر عمومية العامل العام ولا هي نوعية جداً بقدر نوعية العوامل النوعية، ومثل هذا العامل الذي تشترك فيه طائفة من أوجه النشاط العقلي وليس كل وجوه النشاط أطلق عليه سبيرمان اسم العامل الطائفي[2].

وقد اعترف سبيرمان عند صياغته الأولى لهذه النظرية المعدلة بإمكانية وجود عوامل طائفية صغيرة جداً بحيث يمكن تجاهلها. ونتيجة للبحوث التالية التي أجراها العديد من تلاميذه اتضح وجود عوامل طائفية أعرض كثيراً مثل: القدرات اللغوية ـ والحسابية ـ والميكانيكية.

(٢) نظرية العوامل المتعددة:

هذه النظرية هي النظرية السائدة في الوقت الحاضر، وهي تعترف بوجود عدد من العوامل الطائفية العريضة بدرجة معتدلة، والتي يمكن أن يسهم كل منها بأوزان مختلفة في الاختبارات المختلفة، مثال ذلك: العامل اللفظي قد يدخل بوزن كبير في اختبار المفردات، وبوزن أصغر من اختبار المتشابهات، وبوزن ضئيل جداً في اختبار الاستدلال الحسابي.

---

(١) Progressive Matrices (٢) Group Factor

وقد نشر كلي[1] في سنة ١٩٢٨ مقالاً حول هذا الموضوع كان بداية لظهور عدد كبير من الدراسات بحثاً عن العوامل الطائفية، وقد رأى (كلي) أن العامل العام الذي تحدث عنه سبيرمان قليل الأهمية واقترح بدلاً عن ذلك عدداً من العوامل أهمها:

(١) إدراك العلاقات المكانية.

(٢) سهولة تناول الأعداد.

(٣) سهولة تناول المواد اللفظية.

(٤) الذاكرة.

(٥) سرعة العمليات العقلية.

وقد طرأت على هذه العوامل بعض التعديلات بفضل الباحثين الذين جاؤوا بعد ذلك واستخدموا أساليب أحدث في إجراء التحليل العاملي. وكان من أبرز هؤلاء الباحثين: عالم النفس الأمريكي ثرستون الذي اقترح عدداً من العوامل الطائفية أطلق عليها اسم القدرات العقلية الأولية[2] وصمم بطارية اختبارات لقياس هذه العوامل العقلية الأولية وهي على النحو التالي:

(١) الفهم اللفظي[3].

(٢) طلاقة الكلمات[4].

(٣) العدد[5].

(٤) المكان[6].

(٥) الذاكرة[7].

(٦) السرعة الإدراكية[8].

---

(١) Kelley

(٢) Primary Mental Abilities

(٣) Verbal Comprehension

(٤) Word Fluency

(٥) Number

(٦) Space

(٧) Memory

(٨) Perceptual Speed

(٧) الاستدلال[١].

ولقد أجريت دراسات عاملية عديدة للتعرف على العوامل العقلية الأساسية فقدم جيلفورد نموذجاً يصور بناء العقل[٢] ويتضمن هذا البناء العقلي (١٢٠) عاملاً من عوامل القدرة العقلية، يقوم هذا النموذج النظري بناء على تصنيفه لأوجه النشاط العقلي المختلفة حسب ثلاثة مبادىء للتصنيف:

(١) حسب نوع العملية[٣].

١ - العمليات المعرفية.

٢ - عمليات التذكر.

٣ - عمليات التفكير الغييري.

٤ - عمليات التفكير التقريري.

٥ - عمليات التقييم.

(٢) حسب المضمون[٤].

١ - شكلي.

٢ - رمزي.

٣ - لفظي (متصل بالمعنى).

٤ - سلوكي.

(٣) حسب الإنتاج[٥].

١ - وحدات.

٢ - فئات.

٣ - نظم.

٤ - علاقات.

٥ - تحويلات.

---

(١) Reasoning

(٢) Structure of intellect

(٣) Process

(٤) Content

(٥) Product

٦ ـ تضمينات.

نستطيع إذن أن نصنف قدرات العقل على أساس من العملية العقلية أو على أساس مضمون هذه العملية أو على أساس الإنتاج العقلي الخاص، بها. وجدير بالذكر هنا أن جيلفورد ينظر إلى الإبداع[١] كشكل من أشكال الذكاء وذلك حين يفرق بين التفكير التقريري والتفكير التغييري، ففي النوع الأول نحن نسعى للوصول إلى أفضل إجابة تقليدية معروفة لمنبه معين، أما في التفكير التغييري (الإبداعي) فنحن نبحث أحياناً عن فئات أو وحدات أو علاقات أو نظم وأحياناً نسعى للخروج عن الفئات المعتادة أو الوحدات والنظم التقليدية أي أننا نسعى إلى الاختلاف والتمييز. ويذكر جيلفورد أربع قدرات خاصة تتصل بالتفكير الإبداعي هي:

(١) الأصالة أو الجدة[٢].

(٢) المرونة[٣].

(٣) الطلاقة[٤].

(٤) الحساسية للمشكلات[٥].

الموقف إذن في مجال تصور القدرات العقلية: هو أنه هناك عدد كبير جداً من هذه القدرات، ولعل كثرة الدراسات التي أجريت وتعدد العوامل التي استخلصها الباحثون قد أدى إلى إرباك بعض دارسي علم النفس إلا أن الدراسات العاملية أوضحت أن هناك عدداً من العوامل المرجعية[٦] التي ظهرت في معظم البحوث والتي أصبح لها اختبارات جيدة تقيسها. كما يلاحظ أيضاً أن كثرة العوامل ترجع إلى تعقد السلوك الإنساني نفسه وتنوعه ولذلك لا نتصور أن هناك عدداً محدوداً من العوامل يمكن أن يفسر كل هذا التنوع الهائل في

---

(١) Creativity

(٢) Orginality

(٣) Flexibelity

(٤) Fluency

(٥) Sensitivity of Problems

(٦) Reference Factors

القدرة العقلية. وقد قدم علماء النفس تصورات لتنظيم العوامل أو القدرات في شكل تنظيم هرمي معرفي حسب درجة عموميتها (عامل عام - عوامل طائفية كبرى - عوامل طائفية صغرى - عوامل نوعية).

والواقع أن التمييز بين العوامل العامة والطائفية والنوعية ليس تمييزاً مطلقاً كما يبدو لأول وهلة، فعندما تشتمل بطارية الاختبارات التي نقوم بتحليلها على عدد صغير من الاختبارات قد نجد أن عاملاً عاماً واحداً يفسر كل الإرتباطات بينها، لكن إذا وضعت نفس هذه الاختبارات ضمن مجموعة اختبارات أخرى أكثر تبايناً وتنوعاً، فقد نجد حينئذٍ أن العامل العام الأصلي يأخذ شكل عامل طائفي مشترك بين بعض الاختبارات لكنه ليس مشتركاً بينها جميعاً. كذلك قد نجد أن عاملاً معيناً كان يمثله في التحليل العاملي للبطارية الصغيرة اختبار واحد، لكنه عندما أجرى التحليل العاملي على عدد كبير من الاختبارات أصبحت تشترك فيه عدة اختبارات بأوزان مختلفة أي أن العامل بعد أن كان نوعياً أصبح طائفياً. ويتوقف أيضاً ظهور هذه المستويات أو العوامل على نوع الاختبارات التي تتضمنها خطة التحليل العاملي وأسلوب التحليل العاملي نفسه وحسن العينة التي طبق عليها الاختبارات وغير ذلك من المحددات الهامة مثل الجنس والتعليم.

قياس الذكاء

هناك عدد كبير من الاختبارات تستخدم لقياس الذكاء. بعضها يقيس الذكاء كقدرة إجمالية (مثل مقياس ستانفورد بينيه - ومقاييس وكسلر للذكاء) وبعضها يركز إهتمامه على جانب أو عدد من الجوانب الهامة في القدرة العقلية العامة (مثل: اختبار جود أنف - هاريس للرسم[١]، واختبار المتاهات[٢]، واختبار المصفوفات المتدرجة وهذه الطائفة من الاختبارات يطلق عليها الاختبارات

---

(١) Good Enough-Harris Drawing Test

(٢) Mezes

المتحررة من أثر الحضارة) وهناك اختبارات تركز على اهتمامها على الذكاء اللفظي، وأخرى على الذكاء العملي. وبعض هذه الاختبارات تطبق فردياً والبعض الأخر جمعياً. وفيما يلي نعرض باختصار لأشهر مقاييس الذكاء وأكثرها شيوعاً واستخداماً.

مقياس ستانفورد ـــ بينية:

وهو أول مقياس للذكاء في العالم ظهر سنة ١٩٠٥، وقدمه العالم الفرنسي الفريد بينيه[1]. وقد تم تكوينه بناءً على طلب الحكومة الفرنسية واحتياجها إلى أداة علمية يمكن بها التمييز بين الأطفال العاديين والمتخلفين عقلياً. ويتكون المقياس من عدة أجزاء متنوعة، فهو يشتمل على لعب مقننة وتقدم للطفل بطريقة معينة وبأسئلة محددة، كما يشتمل المقياس على أجزاء لفظية كثيرة ويتضمن أسئلة تدور حول المعلومات العامة والفهم العام وأسئلة تقيس ذاكرة الشخص أو قوة ملاحظته أو قدرته على التفكير المجرد والاستدلال.. إلخ. ويتم تطبيق المقياس خلال جلسة تستغرق حوالي ساعة ونصف تقدم خلالها للطفل الأسئلة المتنوعة وتسجل إجاباته تسجيلاً دقيقاً.

وبعد تطبيق المقياس تصحح الإجابات حسب نماذج ومعايير خاصة ويحصل الطفل على درجة تسمى بالعمر العقلي[2] فنجد مثلاً أن العمر العقلي للطفل ١١ سنة، ومعنى ذلك أن مستوى النمو العقلي للطفل يشبه مستوى النمو العقلي للأطفال الذين يقعون عند هذه السن. ونستطيع بعد معرفة العمر العقلي للشخص أن نقارنه بعمره الزمني الحقيقي لنعرف هل هو متقدم في عمره الزمني أم متخلف عنه ويمكن عمل هذه المقارنة بمعادلة خاصة تسمى نسبة الذكاء. ونحصل عليها بقسمة العمر العقلي للشخص على العمر الزمني ونضرب النتائج في ١٠٠ على النحو التالي:

---

(١) Binet

(٢) Hental-age

$$\text{نسبة الذكاء} = \frac{\text{العمر العقلي}}{\text{العمر الزمني}} \times ١٠٠$$

فإذا كان العمر العقلي للشخص مساوياً لعمره الزمني كان الناتج ١٠٠ أما إذا كان العمر العقلي للشخص أدنى من عمره الزمني يكون الناتج أقل من ١٠٠، وأيضاً إذا كان العمر العقلي للشخص أعلى من عمره الزمني يكون الناتج أكثر من ١٠٠. ومعنى ذلك أن الشخص الذي يتساوى عمره العقلي مع عمره الزمني وهو الشخص العادي أو متوسط الذكاء تكون نسبة ذكائه ١٠٠ أما الشخص المتخلف عقلياً فإن عمره العقلي يكون أدنى من عمره الزمني وبالتالي تنخفض نسبة ذكائه عن ذلك انخفاضاً شديداً حيث تكون أقل من نسبة ذكاء ٧٠. أما الشخص المتفوق عقلياً فإن نسبة ذكائه تكون أعلى من المتوسط ١٠٠ بكثير.

مقاييس وكسلر للذكاء:

تعتبر مقاييس وكسلر للذكاء من أشهر الاختبارات في وقتنا الحاضر ومن أكثرها شيوعاً في جميع أنحاء العالم. وهناك عدة صور من هذه المقاييس: مقياس وكسلر لذكاء الراشدين ـ مقياس وكسلر لذكاء الأطفال ـ مقياس وكسلر لذكاء الأطفال في سن ما قبل المدرسة وتتميز مقاييس وكسلر بأنها تقدم لنا معلومات مفصلة عن ذكاء الشخص، فكل مقياس منها يشتمل على مقياسين فرعيين هما: المقياس اللفظي[1]، والمقياس العملي[2] ومكوناتهما على النحو التالي:

أولاً: المقياس اللفظي:

١ ـ المعلومات

٢ ـ الفهم العام

٣ ـ المتشابهات

---

(١) Verbal Scale

(٢) Performance

٤ ـ الحساب

٥ ـ إعادة الأرقام

٦ ـ المفردات

ثانياً: المقياس العملي:

١ ـ رموز الأرقام

٢ ـ تكميل الصور

٣ ـ تصميم المكعبات

٤ ـ ترتيب الصور

٥ ـ تجميع الأشياء

ويطبق هذا المقياس على المفحوص بواسطة فاحص متمرن ويستغرق التطبيق حوالي ساعة ونصف. وبعد التطبيق يقوم الفاحص بحساب درجة لكل اختبار من الاختبارات الفرعية الاحدى عشر، ثم نقوم بحساب نسبة الذكاء اللفظي ونسبة الذكاء العملي للشخص وكذلك نسبة الذكاء الكلي، مع ملاحظة أن حساب نسب الذكاء هناك يعتمد على مفاهيم العمر العقلي والزمني بل يتم ذلك بالرجوع إلى جداول إحصائية خاصة.

توزيع الذكاء في المجتمع:

أوضحت الدراسات التجريبية العديدة أن السمات النفسية تأخذ عادة في توزيعها شكل المنحنى الإعتدالي، وهو منحنى يتميز بالارتفاع عند منتصف التوزيع ثم يأخذ في الإنخفاض التدريجي كلما ابتعدنا عن المنتصف. وتفسير ذلك (فيما يتعلق بالذكاء) هو أن معظم الناس متوسطو الذكاء وكلما ابتعدنا عن المتوسط بالزيادة أو النقص يقل عدد الأفراد تدريجياً، بحيث نجد أن المتفوقين عقلياً أو الأذكياء جداً حوالي (٣٪ من المجتمع) وضعاف العقول نادرون أيضاً (٣٪ من المجتمع). ويعتمد تفسير نسبة الذكاء التي يحصل عليها أحد الأشخاص (بعد تطبيق أحد اختبارات الذكاء عليه) على معرفتنا بتوزيع الفروق

الفردية في الذكاء داخل المجتمع العام. وللحصول على هذا التوزيع يطبق مقياس للذكاء (تتوافر فيه كافة الشروط السيكومترية) على عينة كبيرة من الأفراد ممثلة للمجتمع الأصلي.

الذكاء والعمر:

أجريت العديد من الدراسات للوقوف على علاقة العمر بالذكاء. وقد اعتمدت هذه الدراسات على منهجين أساسيين من مناهج دراسات النمو:

(١) أسلوب الدراسة الطولية[١]: التي يتم فيها تتبع عينة من الأفراد لسنوات طويلة ويدرس النمو أو التدهور العقلي عند نفس الأفراد.

(٢) أسلوب الدراسة العرضية[٢]: وهنا تتم المقارنات بين مجموعات من الأشخاص المختلفين في العمر. وتشير هذه الدراسات في جملتها إلى أن ذكاء الإنسان يستمر في النمو حتى سن الرشد ويظل ثابتاً إلى حد ما عدة سنوات ثم يأخذ بعد ذلك في التناقص التدريجي سنة بعد أخرى.

من أهم الدراسات في هذا الصدد الدراسة التي قام بها وكسلر باستخدام مقياسه الشهير، فقد طبق المقياس على ١٧٠٠ حالة تشتمل على أعداد متساوية من الجنسين موزعة في ٧ مستويات عمرية بين ١٦، ٦٤ سنة وعينة أخرى من كبار السن (فوق سن الستين). وقد أوضحت هذه الدراسة أن درجات الذكاء تأخذ في الارتفاع حتى أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات ثم تنحدر ببطء حتى سن الستين. ثم نجد بعد ذلك انحداراً أسرع فوق سن الستين. وهذا الانحدار أو التناقص في درجات الذكاء يتضح بصورة أكبر في حالة الاختبارات العملية عنه في حالة الاختبارات اللفظية كما يتفاوت من اختبار إلى آخر. فمثلاً نجد أن اختبار رموز الأرقام يظهر أكبر قدر من التناقص المصاحب لكبار السن وتفسير ذلك أن هذا الاختبار يعتمد الأداء عليه على عوامل السرعة والإدراك

---

(١) Longitudinal

(٢) Cross Sectional

البصري وهي عوامل يطرأ عليها الضعف والتناقص مع كبر السن.

ويوجه النقد عادة للدراسات التي تستخدم الطريقة العرضية (ومن ضمنها دراسة وكسلر) لأن مقارنة العينات المختلفة في السن تنطوي على عدة مخاطر: فهذه العينات لا تختلف في العمر فقط بل تختلف في البيئة الحضارية التي نمت فيها وفي مقدار تعرضها لأساليب الإعلام والتثقيف التي تتزايد سنة بعد أخرى فحظ الجماعات الأصغر سناً أكبر من ناحية التعرض لهذه الوسائل الحضارية ولذلك فإن المقارنة تنطوي على بعض المحاذير.

ولقد أوضحت الدراسات الطولية التي تتبعت نمو الذكاء مع العمر أن الجماعات المتفوقة عقلياً والتي يستمر تعليمها لمستوى الجامعة أو بعدها أو التي تعمل في مهنة عقلية تميل إلى أن تتحسن في أدائها على اختبارات الذكاء طوال الحياة بدلاً من أن تظهر تناقصاً أو انخفاضاً في هذا الأداء. ولعل هذه الملاحظات تجعلنا ننتبه إلى أهمية عمل مراجعات متكررة لمقاييس الذكاء لجعل معاييرها متلائمة مع التطورات الحضارية التي تميل إلى رفع الدرجات على إختبارات الذكاء.

هل الذكاء موروث أم مكتسب؟:

يعتبر هذا السؤال مشكلة عسيرة ومزمنة ترد في كل مناقشة لموضوع الذكاء. والإجابة المعتدلة هي أن الذكاء موروث ومكتسب معاً بمعنى أن هناك تفاعلاً بين الوراثة والبيئة. ومهمة البحوث العلمية تحديد مدى إسهام كل من عوامل البيئة والوراثة في تشكيل الذكاء وبالرغم من كثرة البحوث في هذا الموضوع لا نستطيع حتى الآن أن نقول على وجه التحديد إلى أي حد يتوقف الذكاء على الوراثة وإلى أي حد يتوقف على البيئة وحتى لو عرفنا الإجابة المحددة فإنه سيظل على الدوام مجالاً للفروق الفردية، فمثلاً إذا وضعنا طفلين يتيمين متساويين من ناحية الذكاء في منزل واحد تتوافر فيه كل خصائص البيئة النفسية والاجتماعية الممتازة، فقد يستفيد أحدهما ولا يستفيد الآخر.

وفيما يلي نعرض لأهم نتائج الدراسات المؤيدة للدور الفعال للوراثة:
فحينما قارن العلماء بين تشابه معاملات الذكاء حسب درجات من الإتفاق الوراثي تبين لهم:

(١) أن التوائم المتماثلة[1] والتي تتماثل في رصيدها الوراثي (بنسبة ١٠٠٪) تكاد تتطابق معاملات ذكائها.

(٢) التوائم الأخوية[2] (نسبة الرصيد الوراثي ٥٠٪ تقريباً) تظهر فروقاً أكبر في الذكاء من التوائم المتماثلة.

(٣) الأخوة الأشقاء أقل تشابهاً في معاملات ذكائهم من التوائم الأخوية.

(٤) الأخوة غير الأشقاء يظهرون تباعداً أكبر في معاملات ذكائهم.

(٥) نسبة الأبناء المتخلفين عقلياً تزيد إذا كان الأبوان من المتخلفين عقلياً وتقل نوعاً إذا كان أحد الوالدين متخلف عقلياً.

(٦) تبين أن الأطفال المتفوقين عقلياً يأتون من أبوين مرتفعي الذكاء وتقل نسبة إنجاب المتفوقين عقلياً في الأسر التي تتكون من أبوين متوسطي الذكاء.

أما عن دور البيئة فقد أشارت العديد من الدراسات إلى عدد من العوامل لها تأثيرها في نسب الذكاء زيادة أو نقصاناً مثل:

- التغيرات الكبيرة في بناء الأسرة أو ظروف البيت.
- ظروف المرض الشديد أو المستمر.
- الإعتماد العاطفي لدى الأطفال في سن ما قبل المدرسة يرتبط بانخفاض نسب الذكاء.
- توفر فرص التعليم ونوعه وأسلوب تقديمه.
- كلام البالغين كثيراً مع الطفل (التنبيه الأجتماعي) حتى قبل أن يستطيع الإجابة يجعل نمو ذكاء الطفل يسرع في السنوات الأولى.

---

(١) Identical twins

(٢) Fraternal twins

ـ إتجاهات الوالدين لها آثار كبيرة في نمو الذكاء، فالأطفال الذين يجدون من آبائهم قبولاً واحتراماً لشخصياتهم والذين يجدون تقديراً وتشجيعاً لمجهوداتهم دون إجبار أو تدقيق في مطالبتهم بها يتقدمون في مدى ثلاثة أعوام بما يعادل ثمان درجات في المتوسط في نسبة الذكاء (حسب ستانفورد/بينيه).

في حين يفقد الأطفال الذين يشعرون بالإهمال قدراً قليلاً. ومن الواضح أنه كلما كان الطفل صغيراً كان مجال التأثير الإيجابي للبيئة أكبر، فالسنوات الصالحة لتحديد الموقف النسبي للذكاء هي السنوات السابقة لدخوله المدرسة.

الحرمان الحسي والعزلة البيئية: تؤثر في اتجاه انخفاض نسبة الذكاء (ما بين ١٢ ـ ٢٠ درجة) كما اتضح من الدراسات التي تناولت أطفال في جماعات منعزلة في الجبال، وجماعات متأخرة حضارياً، وفي هذه الدراسات كانت نتائج اختبارات الذكاء العملية وهي التي تعتمد بدرجة أقل على التعليم المدرسي تميل إلى أن تكون أحسن من نتائج الاختبارات اللفظية.

ولعل دراسة التوائم المتماثلة (الذين فصلوا منذ الطفولة ونشأوا في بيوت حاضنة) تلقي الضوء على أثر البيئة على الذكاء ـ ففي بحث متسع أجري على التوائم المتماثلة الذين فصلوا منذ الطفولة المبكرة درست حالة ١٩ منهم واختلفت النتائج من زوج إلى أخر، وقد أظهر التوائم اختلافات كبيرة في نسب الذكاء عندما كانت البيئات متباينة إلى حد كبير (المقصود هنا المؤثرات الثقافية والوجدانية وليس مجرد الاختلاف في المكان الجغرافي).

وفيما يلي نعرض للنتائج التي أمكن الحصول عليها من دراسة زوج من أزواج التوائم التسعة عشر موضع الدراسة، وهي الحالة التي كانت الاختلافات في البيئة كبيرة بدرجة تعطي نتائج قاطعة:

الحالة:

توأمان فصل بينهما وهما في الشهر الخامس من عمرهما ورباهما

الأقارب، وكان عمرهما ٢٩ سنة عند بحث حالتهما. كانت الأولى واسمها مابل[1] تعيش كريفية نشيطة في مزرعة ناجحة، وكانت الثانية واسمها ماري[2] تحيا حياة مريحة في مدينة صغيرة وكانت تعمل في أثناء النهار كاتبة في أحد المخازن، وفي الليل تعمل مدرسة موسيقى، وقد حصلت مابل على تعليم أولي في مدرسة ريفية بينما حصلت ماري على تعليم كامل في مدرسة ثانوية ممتازة في المدينة. وبعد إجراء الاختبار لوحظت فروق كبيرة بين الأختين التوأمين في النواحي الثقافية والوجدانية والجسمية، فوصفت مابل بأنها ممتلئة قوية العضلات وصحتها العامة جيدة، في حين كانت ماري نحيلة ضعيفة العضلات سيئة الصحة عامة. ومن الناحية العقلية وجد فارق كبير بينهما في صالح ماري إذ حصلت على نسبة ذكاء قدرها (١٠٦) على اختبار ستانفورد بينيه في حين حصلت مابل على نسبة (٨٩) فقط كما لوحظت اختلافات في سمات الشخصية، فوصفت التوأم الريفية بأنها أكثر ثباتاً واستقراراً وسلوكها العصابي أقل ولا تقلق إلا قليلاً واستجابتها أقل انفعالية من التوأم التي نشأت في المدينة.

وعموماً يعد مجال الفروق بين الجماعات والأفراد في الذكاء مجالاً خصباً للدراسات النفسية.

---

(١) Mabel

(٢) Mary

الفصل الثاني
الإحساس والإنتباه والإدراك

السؤال الذي نحاول الإجابة عليه من هذا الفصل هو كيف نتلقى المعلومات من العالم الخارجي (ومن البيئة الداخلية) وكيف نعالج هذه المعلومات ونحولها إلى بناءات أو تصورات مفهومة ذات معنى، ويتناول علماء النفس هذه القضية من خلال ثلاث عمليات رئيسية هي: الاحساس ـ الانتباه ـ والإدراك.

ويشير الإحساس إلى عمليات التلقي التي تقوم بها الأجهزة الحسية الجسمية ويكون من شأنها تحويل الطاقة الفيزيقية للمنبه إلى طاقة عصبية مما يمكن الكائن الحي من التعامل معها.

ويشير الانتباه إلى العملية التي بمقتضاها يركز الجهاز العصبي على طائفة معينة من المعلومات الواردة من خلال أجهزة الحواس ويهمل باقي المعلومات الواردة، فنحن لا نتعامل مع كل المعلومات التي ترد الينا عن طريق أجهزة الحس ويمكن أن نتحدث عن انتباه لا إرادي أو انتقائي بمعنى أن الكائن يوجه نفسه بنفسه أو انتباه لا إرادي أو ما يسميه العلماء الروس باستجابة التوجه[١] وهي الاستجابة التي يصدرها المرء تلقائياً رداً على صدور تنبيه جديد في بيئته.

أما الإدراك فهو يشير إلى تفسير وتحليل الوارد الحسي وإضفاء قدر من لمعنى عليه.

والواقع أن هذا التقسيم ـ إلى عمليات ثلاث منفصلة ـ تقسيم مصطنع إلى حد كبير فالعمليات الثلاث تتشابك وتتفاعل ويصعب عزل أحداها عن

---

(١) Orienting Response

الأخريين، ولكنه يوفر وسيلة لتنظيم المشكلة بغرض دراستها.

(١) العمليات الحسية:

لقد بدأ علم النفس التجريبي الحديث بدراسة العمليات الحسية في حوالي منتصف القرن التاسع عشر، وكان هذا النوع من الدراسة يعرف باسم الدراسات السيكوفيزيقية. وأساس السيكوفيزيقا هو تعريض الأشخاص لأنواع مختلفة من التنبيه والخروج باستنتاجات عن بناء ووظيفة أجهزة الحس لديهم قائمة على العلاقة بين الخصائص الفعلية لهذه المنبهات وما يقرره الأشخاص عن إحساسهم بها. وتتخذ هذه الإستنتاجات عادة شكل افتراضات عن خصائص فيزيولوجية محددة في بناء الجهاز العصبي للشخص المتلقي. مثال ذلك إنه إذا أمكن البرهنة على أن الأشخاص يميزون بين اللون الأحمر والأزرق فإننا نستطيع أن تستنتج وجود نظام أو بناء فزيولوجي محدد ييسر حدوث هذا التمييز.

ولعل أهم ما قدمه علماء السيكوفيزيقا هو القوانين الحسية العامة التي تتعلق بالتمييز بين المنبهات أو العتبات الحسية المطلقة[١] والفارقة[٢].

ويشير مفهوم العتبة المطلقة إلى درجة الشدة التي ينبغي أن يصل إليها المنبه لكي يستثير جهازاً حسياً معيناً، ويتم تحديد هذه العتبة بتقديم منبه معين ذو درجة شدة محددة إلى المفحوص ونطلب منه أن يحدد لنا ما إذا كان يدركه أم لا ثم نوالي تقديم منبهات أخرى من نفس النوع. وإن كانت متفاوتة في شدتها ونطلب من المفحوص أن يحدد ما إذا كان يدركها. والواقع إننا لا نصل إلى قيمة واحدة للمنبه نستطيع أن نسميها بالعتبة المطلقة أنما نجد مدى من شدة التنبيه يبدأ بأن يكون المنبه غير محسوس تماماً ثم نتقدم إلى درجات من الشدة تكون محسوسة جزئياً بمعنى إننا نستطيع أن نقرر أحياناً إننا بصدد منبه

(١) Absolute thresholds

(٢) Defferential thresholds

وأحياناً إخرى إننا لسنا بصدد منبه حتى نصل إلى مستويات أعلى من الشدة نقرر في كل الحالات إننا بصدد منبه، ويتعارف المتخصصون على تحديد العتبة المطلقة بأنها مستوى شدة التنبيه الذي يقرر الفرد عنده في ٥٠٪ من الحالات إنه بصدد منبه، والواقع أن هناك فروقاً بين الأفراد في عتباتهم المطلقة راجعة إلى دقة الحواس أو مستوى الاستثارة في الجهاز العصبي، كذلك فهناك فروق لدى الفرد نفسه حسب درجة تعبه وحالته الانفعالية والعضوية.

ويشير مفهوم العتبة الفارقة إلى أقل فرق بين منبهين ندرك عنده أننا بصدد منبهين مختلفين وليس منبهاً واحداً، ويستخدم علماء النفس مصطلح الفرق الملاحظ بالكاد[١] ليشير إلى هذه الكمية، وتقاس العتبات الفارقة بأن نقدم للفرد منبهين ونطلب منه أن يقارن بينهما على بعد محدد كأن نقدم قطعتين من المعدن متساويتين في الحجم ونطلب منه أن يقرر ما إذا كانت إحداهما أثقل من الأخرى ثم نواصل التغيير في وزن إحداهما ونثبت الثانية ونرصد الحالات التي وجد الشخص فيها فرقاً والحالات الأخرى التي لم يجد فيها فرقاً ونقارن ذلك بالواقع الفعلي الذي نعرفه عمّا إذا كانت هناك فروق أم لا وهكذا، ولعل أهم ما يستلفت النظر في الكائن الإنساني أن العتبة الفارقة دائماً ما تكون نسبة ثابتة من شدة المنبه، هذه الحقيقة يعبر عنها فيما يسمى بقانون فيبر[٢] ويشير قانون فيبر في أبسط صورة إلى أن الفرق اللازم بين منبهين لندرك أن بينهما فرقاً هو نسبة ثابتة من المنبه الأصلي. لنفترض أننا نحاول تحديد العتبة الفارقة في مجال تقدير الأوزان ووجدنا أن الفرد إذا أعطى وزناً مقداره مائة جرام ليقارن بينه وبين أوزان أخرى متقاربة ووجدنا العتبة الفارقة بأنها جرامين فأننا نستطيع أن نستنتج أن العتبة الفارقة لوزن يبلغ ٢٠٠ يصل إلى ٤ جرامات والوزن الذي يبلغ ٤٠٠ جرام عتبته الفارقة ٨ جرامات وهكذا....، بعبارة أخرى أن العتبة الفارقة أو القيمة التي لو أضيفت إلى المنبه تجعلنا نقرر أن هناك فرقاً يبلغ ٢٪ من قيمة المنبه الأصلي.

---

(١) (J.n.d.) Just Noticeable difference (٢) Weber

هذه بعض الخصائص العامة للإحساس والسؤال الذي يرد على الذهن الآن هو كيف تنطبع المنبهات على أجهزة الحس لدينا لتصل إلى الجهاز العصبي الذي يستطيع أن يتعامل معها ويفهمها.

للإجابة على هذا السؤال علينا أولاً أن نوضح عدداً من الخصائص الهامة للجهاز العصبي.

الجهاز العصبي هو الجهاز الذي يسيطر على أجهزة الجسم المختلفة لتنظيم وضبط العمليات الحيوية الضرورية للحياة. ويشمل ذلك العمليات الإرادية التي نتحكم فيها كالحركة واستخدام اليدين والرجلين والعمليات غير الارادية التي لا نستطيع التحكم فيها كتنظيم ضربات القلب وضبط افراز الهرمونات ويمارس الجهاز العصبي وظيفة التنظيم والضبط هذه على الوارد الحسي الذي يتدفق عليه إما من العالم الخارجي عبر أجهزة الحس المختلفة، أو من أجزاء الجسم المختلفة فهو إذن يتلقى هذه المعلومات ويحللها ويفسرها ويصدر الأوامر بالتغييرات والحركات الملائمة لحسن التكيف معها، سواء بحفظها في مخازن الذاكرة المختلفة في الجهاز العصبي أو بإحداث التكيفات الحركية أو الجسمية الملائمة لمواجهتها والتعامل معها.

ويمكن أن نقسم هذا الجهاز إلى قسمين رئيسيين من الناحية التشريحية:

١ - الجهاز العصبي المركزي[١] ويتكون من المخ وهو موجود داخل جمجمة الرأس والنخاع الشوكي الذي يشغل قناة العمود الفقري.

٢ - الجهاز العصبي الطرفي[٢] ويتفرع عن الجهاز المركزي ويشمل: -

أ - الأعصاب الدماغية[٣] وعددها ١٢ زوجاً من الأعصاب في أجزاء الوجه المختلفة وتختص بتنظيم نقل الإحساسات البصرية والشمية والذوقية والسمعية والإحساس بالتوازن إلى المخ وتنظيم حركة الوجه واللسان والعين

---

(١) Central Nervous system

(٢) Peripheral nervous system

(٣) Cranial Nerves

والبلعوم والشفتين.

ب ـ الأعصاب النخاعية الشوكية وعددها ٣١ زوجاً من الأعصاب وهي الأعصاب التي تنقل الإحساسات من سائر مناطق الجسم عدا الرأس وتتحكم أجزاؤها الحركية في حركة سائر أعضاء الجسم والعضلات الإرادية.

٣ ـ الجهاز العصبي المستقل، وينقسم إلى الجهاز السيمبثاوي والجهاز الباراسيمبثاوي، وهو ينظم عمل العضلات اللاإرادية مثل عضلة القلب وجدران الأوعية والأغشية المختلفة والغدد. ويقوم كل من الجهاز السمبثاوي والباراسيمبثاوي بعمل مضاد للآخر مما يحافظ على توازن دقيق لأداء الوظائف الجسمية المختلفة ويحافظ على درجة مقبولة من ثبات البيئة الداخلية للجسم.

تأتي المعلومات إذن إلى المخ من سائر أجزاء الجهاز الطرفي حيث ينظمها ويحللها ويحدد أسلوب التصرف فيها فإذا كان هذا التصرف يتطلب الحركة سارع المخ من خلال الجهاز الطرفي بإصدار الأوامر اللازمة لإحداث هذه الحركة في البيئة الخارجية. كل هذه المعلومات تنتقل داخل خلايا الجهاز العصبي من خلال نظام دقيق يقوم على انتقال نبضات كهربائية عبر كل خلية تتحول عند نهايتها إلى مجموعة من التغيرات الكيميائية وهذه التغيرات الكيميائية بدورها تستثير الخلايا المجاورة لتحدث فيها نبضة كهربائية تنتقل عبرها وهكذا:

ونعود الآن إلى السؤال الذي وجهناه وهو: كيف تنطبع المنبهات على أجهزة الحس لدينا لتصل إلى الجهاز العصبي؟

ما لدينا في العالم الخارجي هو أنواع مختلفة من الطاقة، لدينا موجات كهربائية ضوئية صوتية، وتغيرات كيميائية الخ... هذه الأنواع المختلفة من الطاقة تختلف عن الطاقة المستخدمة لنقل الإحساسات داخل الجهاز العصبي وهي بالأساس طاقة كهروكيميائية، ولذلك فإننا نحتاج إلى محولات لتحويل هذه الأنواع المختلفة من الطاقة إلى طاقة كهربائية لكي يتمكن الجهاز العصبي من التعامل معها. وهذه المحولات هي ما نسميه في الجهاز العصبي

بالمستقبلات الحسية.[1].

وتبدأ أي عملية حسية بإستثارة أحد المستقبلات، فالطاقة الضوئية مثلاً، تقع على مستقبلات العين، والتي تسمى بالعصي[2] والمخاريط[3] فتحولها هذه المستقبلات إلى نبضات عصبية يمكن ترجمتها فيما بعد إلى مرئيات. والموجات الصوتية تتحول بواسطة مستقبلات الأذن وهي مجموعة الخلايا الشعرية في القوقعة الداخلية للأذن إلى نبضات عصبية تترجم إلى أصوات في المخ، والمواد الكيميائة التي تشكل الطعام الذي نأكله تنبه مستقبلات الذوق وهي البراعم المنتشرة على سطح اللسان.

وبالإضافة إلى المستقبلات الرئيسية أو المحولات فهناك أجهزة أخرى مكملة ففي حالة الإبصار مثلاً: نجد بالإضافة إلى العصي والمخاريط القرنية والعدسات والحدقة، هذه الأجهزة المكملة تقوم في حالة العين بوظيفة التكبير أو تيسير وصول طاقة المنبه إلى المستقبل.

وعندما يصل المنبه إلى المستقبل يقوم بإحداث حالة من الاستثارة. هذه الحالة يتولد عنها ـ عندما تصل إلى حد معين ـ جهد كهربائي ينبه الخلايا العصبية الحسية الواقعة بجوار المستقبل فتحدث ما نسميه بالنبضة العصبية. وتكون الطاقة الفيزيقية للضوء التي تحولت إلى طاقة كهربائية قادرة على تنبيه خلايا الجهاز العصبي، وهنا يبدأ الإحساس وما يتلوه من عمليات تحليل وتنظيم هذه العملية تحدث تقريباً في سائر أجهزة الحس وإن كانت تتخذ صوراً مختلفة ولكن المبدأ واحد: طاقة فيزيقية تتحول من خلال المستقبلات إلى طاقة عصبية هذه الطاقة العصبية تشكل المادة الخام التي تعتمد عليها في الإحساس بالعالم الخارجي وفهمه وإدراكه.

يوحي الحديث عن الإحساسات بأننا بصدد عملية سلبية بحتة للتلقي فالمنبهات تنطبع على أداة الحس وتلك بدورها تنقلها إلى الجهاز العصبي

---

(١) Receptors (٢) Rods (٣) Cones

والواقع أن الأمر مختلف وأكثر تعقيداً من ذلك فرغم أن المنبهات تنطبع على أجهزة الحس إلا أننا لا ننتبه بالفعل إلا لعدد محدود جداً من هذه المنبهات، انظر مثلاً إلى نفسك وأنت تستمع إلى محاضرة (هذا إذا كنت طالباً منتبهاً!!!).. ستجد أن هناك أصواتاً عديدة تأتي إلى سمعك... صوت السيارات وأبواقها المتصاعدة.. صوت العصافير المعششة على نوافذ المدرج.. أصوات خافته لزملاء لك يتهامسون إلى جوارك. ولكن كل هذه الأصوات لا تشكل سوى خلفية ضئيلة التأثير لا تنتبه لها وإنما أنت مشغول بتلقي ما يقوله المحاضر وتحليله وفهمه وحفظه في ذاكرتك. فالإنسان في الواقع يمارس تحكماً إرادياً على المنبهات الواردة إليه ليختار أن ينتبه إلى بعضها ويهمل البعض الآخر، وأن يركز حواساً معينة على عملية التلقي هذه، فانت في هذه الحالة تركز على حاسة السمع أكثر من حاسة الشم.

والواقع أننا نمارس أنواعاً من التحكم في التنبهات أعقد من ذلك بكثير، فنحن نقوم أحياناً كثيرة بتأثير تخفيض على المنبهات الشديدة والتي قد تؤذي الجهاز الحسي لنقلل من شدتها الواقعة علينا، والجهاز العصبي يقوم أحياناً بكف تام للتنبيهات الواردة في حالات التعب الشديد لكي يحمي خلايا المخ من الإجهاد والإعطاب.

إن عمليات الإنتقاء والتركيز والتخفيض والكف هذه تقع تحت ما يسمى بالانتباه ويتحكم في هذه العمليات جهاز متخصص في أسفل المخ تمر به التيارات العصبية الحسية الصاعدة ويمارس بدوره تأثيراته على أجهزة الحس المختلفة ويسمى بالتكوين الشبكي(١).

وبالإضافة إلى هذا النوع من الإنتباه يوجد ما يسمى باستجابة التوجه(٢) وهي استجابة يقوم فيها الكائن بالالتفات التلقائي وتركيز الحواس عند صدور منبه جديد في البيئة المحيطة فإذا سمعت مثلاً صوت فرقعة عالية للمرة الأولى

---

(١) Reticular Formation　　(٢) Orienting Response

فأنك ستوجه رأسك نحو مصدر الصوت وترهف أذنك هذا بالإضافة إلى تغيرات أخرى عديدة في سائر أجزاء جسمك، فإذا اكتشفت إنه صوت لا خطر منه وإنه مجرد طفل يلهو بمسدس صوتي فستطمئن نفسك وتعاود نشاطك، فإذا تكرر نفس الصوت مرة أخرى فستستجيب للمرة الثانية بنفس الطريقة ولكن بشدة أقل، ومع تكرار صدور المنبه ستتكرر استجابتك ولكنها ستتناقص تدريجياً حتى يأتي وقت لا تصدر فيه أي استجابة، وهنا نقول إنك تعودت أو أنك قد وصلت إلى درجة التعود[1].

وهذه الاستجابة التوجهية استجابة ولادية بمعنى إننا نولد بها، وموجودة لدى سائر الكائنات ولها قيمة بقائية هامة جداً، حيث إنها هي الوسيلة الأساسية لحماية الكائن من الأخطار المحدقة به في بيئته، ولولاها لكانت حياة الكائن في بيئته من الصعوبة بمكان، كذلك فإن ميكانزم التعود له أهمية بقائية كبيرة حيث بدونه سنظل نصدر استجابات توجه شديدة لها تأثير خطير على الجهاز العصبي، والجسم البشري لو استمرت.

الإدراك:

بعد أن أوضحنا بإيجاز شديد كيف يتلقى الفرد الإحساسات من البيئة الخارجية وكيف ينتظم انتباهه لها يبقى السؤال الهام كيف يخلع الكائن معنى على هذه الإحساسات القادمة؟ وهو سؤال يدخلنا في الحديث عن سيكولوجية الإدراك. والمقصود بالإدراك: هو تنظيم للمعطيات الحسية أو الوارد الحسي الذي تنقله لنا الحواس وتفسيره وإعطاؤه معنى بناء على خبراتنا السابقة وإعتماد على وظائف معرفية أخرى وعوامل عديدة محددة للطبيعة السيكولوجية للإدراك، كالحالات الطارئة للشخص من تغير في الحالة المزاجية وتناول العقاقير المخمدة والمنبهة والتعب، كذلك عوامل: السن ـ التعليم ـ الثقافة ـ

---

(1) Habituation

سمات الشخصية - الاهتمامات - الميول المهنية - القيم - التهيؤ . الذهن...الخ.

والإدراك ذو طبيعة انتقائية أيضاً، ففي كل لحظة تتلقى حواسنا أنواعاً مختلفة لا حدود لها من المنبهات، ولكن القليل منها فقط هو الذي ندركه بوضوح في تلك اللحظة وهي المنبهات التي نوجه إليها انتباهنا.

والإدراك هو الوسيلة التي يتكيف بها الإنسان مع البيئة المحيطة به، فإنك لو رأيت كلباً شرساً وأنت سائر في الطريق فلا بد أنك ستبعد عنه لأنك ترى فيه حيواناً ضاراً فلو اقتربت منه عرضت نفسك للأذى، فأنت في هذه الحالة رأيت في الكلب الشرس حيواناً ذا صفات معينة تنطوي علي معنى معين ومن ثم سلكت معه سلوكاً معيناً وأنت ذاهب لحضور حفل عيد ميلاد أحد أصدقائك، وأخذت تفكر في أي الهدايا تقدمها له واكتشفت أنك قد نسييت حافظة نقودك هذا الموقف يجعلك تغير سلوكك بالعودة إلى المنزل لاحضار النقود أو تصعد إلى قريب لك لإقراضك بعض النقود لتسرع إلى مقصدك وأنت تتأهب للذهاب إلى عملك وفتحت نافذة حجرتك فوجدت السماء ملبدة بالغيوم فلا بد أنك ستتوقع أنه سيكون يوماً ممطراً ومن ثم تستعد له بالملابس المناسبة.

ويتضح من الأمثلة السابقة أنه لكي يتم الإدراك لا بد من وجود منبهات حولنا بالعالم الخارجي كلب - بيت - صديق - عربة - عدو - مطر ولا بد من وجود الحواس التي تنقل إلينا هذه المنبهات ثم انتباهنا لبعض من هذه المنبهات دون غيرها بالإضافة إلى رصيدنا السابق من خبرات متعلمة تساعدنا في إسباغ المعنى على هذه المنبهات.

فبالنسبة للمثال الأول: إذا اقتصر إدراكك للكلب على مجرد الإحساس وحده فلم تصلك منه إلا مجموعة إحساسات بسيطة كأن ترى حجمه وشكله ولونه وسماع نباحه، ولم تترجم هذه الإحساسات إلى معنى ذي دلالة لما أمكنك أن تتجنب طريقه وتمنع اذاه عنك ولما أمكنك أن تتكيف مع البيئة التي

تعيش فيها، فالإحساسات دون ترجمتها إلى معنى لا قيمة لها.

مبادىء التنظيم الإدراكي:

قدم رواد المدرسة الجشتالطية أمثال: فرتهيمر[1] وكهلر و كوفكا إسهاماتهم في مجال الإدراك من خلال الوصول إلى القوانين المنظمة له [مبادىء التنظيم الإدراكي والتي تتعلق أساساً بالشيء المدرك فقدموا مفاهيم الشكل والأرضية وقوانين القرب - الإستمرارية والتشابه والإغلاق وقد فسروا أخطاء الإدراك بناء على هذه القوانين. وفيما يلي شرح موجز لبعض هذه المبادىء:

١ ــ الشكل والأرضية[2]:

يميل الفرد إلى تنظيم المدركات البصرية التي يراها على هيئة شكل وأرضية، فأنت تدرك الصورة المعلقة على الحائط على أنها شكل ظاهر والأرضية أو الخلفية هي الحائط وربما تدرك شكلاً معيناً داخل الصورة كشكل بينما باقي الصورة بشكل الأرضية، وأنت تدرك الكتابة التي أمامك على أنها شكل أسود على أرضية بيضاء. والشكل عادة يكون الجانب من موقف التنبيه المتماسك ذو الحدود الواضحة بينما تكون الأرضية هي الخلفية التي تظهر الشكل في لحظة معينة. هذه العلاقة بين الشكل والأرضية تتغير بتغير التثبيت والاهتمام على جوانب معينة من الموقف فالشكل قد يتغير ليصبح أرضيه لجزء أصغر في داخله أو ندرك الشكل والأرضية معاً كشكل على أرضية أخرى، فصورة رجل تكون شكلاً على أرضية مكونة من باقي الصورة بينما تصبح هذه الأرضية بما فيها صورة الرجل شكلاً على أرضية من الحائط الذي تعلق عليه الصورة. المهم اننا لا نستطيع أن نرى شكلين معاً في موقف إدراكي واحد. انظر إلى الصورة ولاحظ:

---

(١) Wertheimer

(٢) Figure and ground

أ ـ أنه يمكن رؤية الكأس الأبيض على أرضية سوداء.

ب ـ أننا نستطيع رؤية الوجهين الأسودين على أرضية بيضاء.

ج ـ أننا لا نستطيع رؤية الشكلين معاً.

٢ ـــ القرب(١):

ويقرر هذا المبدأ أن الأشياء المتقاربة تميل إلى أن تدرك معاً في وحدة إدراكية واحدة. ويوضح الشكل (٢) مبدأ القرب. لاحظ في الشكل أننا بصدد خطوط رأسية ولكننا ندركها في ثنائيات ونحن ندركها هكذا لأنها متقاربة مع بعضها البعض.

٣ ـــ التشابه(٢):

تميل الأشياء المتشابهة في المجال الإدراكي إلى أن تدرك معاً كوحدات مستقلة. ويعني هذا أننا نميل في إدركنا إلى عمل تجميعات من المنبهات على أساس مدى تشابهها واختلافها. انظر إلى شكل (٣) نحن لا ندركه على أنه خطوط أفقية لأن هناك اختلافات في الأشكال التي تشكل الخط الأفقي بينما نميل إلى أن ندركه على أنه خطوط رأسية نتيجة للتشابه في هذا الاتجاه.

٤ ـــ الإغلاق(٣):

يميل الفرد في إدراكه للمنبهات إلى إغلاق الثغرات لكي يؤكد أو يصل إلى معنى معين. ومعنى هذا أننا نميل إلى تكميل المنبهات التي ندركها على أنها ناقصة التنسيق مع المدركات السابقة في خبرتنا. انظر الشكل (٤) ولاحظ أننا لا ندرك هذه الأشكال على أنها خطوط منفصلة كما هي حقيقتها ولكننا ندركها على أنها مربع ومثلث.

---

(١) Proximity (٢) Similarity (٣) Process

وابتداء من أواسط القرن العشرين وكنتيجة للتقدم الهائل في استخدام الحاسبات الألكترونية، بدأ علماء النفس يستخدمون هذا الأسلوب في معالجة المعلومات كنموذج للعملية الإدراكية، فقد أدرج الإدراك ضمن نموذج معرض متكامل يشترك أو يساهم في بنائه العديد من الوظائف المعرفية الأخرى كالإنتباه والتعلم والتذكر بمستوياته المختلفة. والتفكير المجرد، وهذا النموذج يمثل تأكيداً على العمليات النفسية في الإدراك.

وفي هذا الإطار درس الإدراك من خلال منحيين:

١ ـ منحى عملية الإدراك ذاتها.

٢ ـ منحى المحصلة النهائية[١] أو ناتج العملية.

وفيما يتعلق بالمنحى الأول، نجد أنه من أبرز النظريات التي صنعت لتفسير عملية الإدراك، النظرية التي قدمها سيفرمان[٢] قد أرتأى وجود ثلاث عمليات أو أبعاد تشكل الإدراك البصري خاصة.

(١) التحكم في الإحاطة[٣]:

وهي النظرة الشاملة العناصر لمجال أو مدى إحاطة الأفراد بالمنبهات البصرية ويمكن تسجيل هذا مباشرة عن طريق تسجيل حركات العين، ويوجد بعض الأفراد الذين يتميزون بالإحاطة على مدى واسع في المجال البصري بينما البعض الآخر يحصرون نظرهم في مساحة صغيرة من أي مجال يعرض عليهم.

(٢) تشكيل المجال[٤] أو إبراز الأجزاء الرئيسية في المجال:

وهي عملية الانتقاء لعناصر المجال، فبعض الأشياء أو المنبهات تسقط وبعضها يبرز في دائرة الانتباه وهنا تبرز قدرة الشخص على انتخاب بعض

---

(١) End prduct
(٢) Selvirman
(٣) Scanning control
(٤) S

المنبهات وإبرازها كشكل وإسقاط البعض الآخر أو إعطائها أهمية ثانوية كخلفية.

(٣) التحكم في شدة المنبه[1]:

ويشير هذا البعد إلى الشدة التي تسجل بها الإحساسات عن طريق الجهاز العصبي، وهي مرتبطة بخصائص المدرك الفيزيقية ولكن هناك أيضاً جوانب سيكولوجية في الموقف، والمثل الواضح على ذلك الألم فبعض الأفراد يبالغون في الإحساس بالألم والبعض الآخر يقللون من هذا الإحساس.

وفيما بعد أجرى سيلفرمان دراسة عاملية للتحقق من هذه الفروض وتبين له صحتها فقد أمكن تحديد هوية هذه الأبعاد الثلاثة، فضلاً عن قيام العديد من الدراسات الإكلينيكية التي أوضحت اضطراب هذه العمليات لدى فئات من المرضى النفسيين.

وتلقي تجارب سيلفرمان أيضاً الضوء على جانب سيكولوجي آخر من الوظيفة ويختص بثبات الإدراك[2] ونعني بثبات الإدراك بأن أشياء مثل الحجم والشكل واللون ودرجة بريق الشيء تظل كما هي دون تغيير بالرغم من التباين والتنوع الذي يطرأ على وضع الشيء، بسبب البعد أو خصائص الوسط الذي يحتويه فنحن ندرك الجسمين المتساويين في الحجم والمتباعدين في المكان بنفس الحجم على الرغم من أن الصورة الواقعة على شبكية العين للجسم البعيد أصغر من الصورة الخاصة بالجسم القريب فكان من المفروض أن نرى الجسم القريب أكبر من الجسم البعيد ولكن هذا لا يحدث في نطاق السواء، ويرجع السبب في ذلك إلى أن آلاف الخبرات التي يمر بها الإنسان منذ الطفولة تعلمه أن يقوم بعملية تعويض أو تعديل في أحجام الأشياء المتباعدة، فيميل إلى التقليل من تقدير حجم الأشياء القريبة منه وإلى الزيادة في حجم الأشياء البعيدة عنه أما

(١) Stimubus Intensity control

(٢) Perceptual scanning

عند الأطفال فلا تكون هذه العملية بهذه الدرجة من النضج، فنجد الأطفال في حوالي السنة الخامسة أو السابعة يتعاملون مع الخصائص الفيزيقية للمنبه، فيرسمون الأشكال القريبة كبيرة في الحجم والأشكال البعيدة صغيرة الحجم، وكلما كبر الطفل كلما زاد تعامله مع الجوانب السيكولوجية للأشياء.

وقد كشفت الدراسات الاكلينيكية الظاهرة ثبات الإدراك أن رسوم بعض المرضى النفسيين تشبه رسوم الأطفال في إدراكهم للأجسام، فيرسمون الأجسام البعيدة صغيرة الحجم والأجسام القريبة كبيرة الحجم، ويرجع ذلك إلى خلل عملية الإحاطة لديهم، وجزء من هذا الخلل يرجع إلى فقدان عملية التعويض أو التعديل.

كما كشفت دراسات أخرى إلى أن بعض فئات من المرضى يفرطون في تقدير حجم الأشياء البعيدة أكثر من الراشدين الأسوياء إذ يتسمون بالإحاطة المبالغ فيها[1] لأجزاء المجال، أما في مجال السواء فنجد أن عملية الإحاطة يحكمها المجال والوظيفة المؤداة ولذلك تتميز بانتقائية شديدة.

ننتقل الآن إلى الشق الثاني الممثل للدراسات الحديثة في مجال الإدراك والخاص بناتج عملية الإدراك ولقد درس ناتج العملية من خلال عامل السرعة[2] الزمن المستغرق حتى صدور الاستجابة والدقة[3] عدد الأخطاء.

وتعتبر السرعة والدقة من أهم مصادر الفروق الفردية في عملية الإدراك فنجد البعض يغلب عليه السرعة في أدائه على حساب الدقة، إذ يستغرق وقتاً أقل لإصدار الاستجابة ولكنه يرتكب أخطاءاً كثيرة بينما البعض الآخر يميل إلى الدقة في الإدراك فتقل لديه الأخطاء إلا أنه يكون بطيئاً في الوصول إلى الحل أو الاستجابة، وهناك فريق ثالث تتوازن لديه السرعة والدقة فينجز أعماله في وقت مناسب وأخطاء قليلة وهذا التوازن بين العمليتين يعبر عن كفاءة ناتج العملية الإدراكية التي تتوقف على الأبعاد الثلاثة السابقة من إحاطة بالمجال، وانتقاء

---

(١) Over Scanning (٢) Speed (٣) Accuracy

المنبهات الأكثر أهمية أو ذات الفاعلية في الموقف ثم التحكم في شدة هذه المنبهات دون مبالغة أو تقليل.

ولقد تناولت البحوث مظاهر متعددة من دقة الإدراك منها:

(١) ـ دقة الإدراك البصري:

كأن يقدم للشخص مجموعة من الأشكال تمثل أدوات معينة شاكوش - مقص - سكين... الخ) وبجانب كل شكل رئيسي أربعة أشكال مجاورة تماثله مع اختلافات طفيفة باستثناء أحدها الذي يطابقه تماماً، وعلى الشخص أن يقوم بالمقارنة لينتقي الشكل المماثل للشكل الأصلي.

(٢) ـ دقة تقدير المسافات:

مثلاً يطلب من الشخص تقدير طول ورقة أمامه.

(٣) ـ دقة تقدير الأثقال:

حيث يعطى الشخص أجساماً مختلفة الأوزان ويطلب منه تقدير أيهما أثقل وأيهما أقل وزناً وإدراك الفروق بين وزنين أو ثقلين يعبر عن دقة إدراك الشخص.

(٤) ـ دقة تقدير الزمن:

ونستطيع هنا استخدام جهاز التسجيل في إصدار نغمة معينة ثم يتوقف ويطلب من الشخص أن يقدر المدة التي استمرت فيها النغمة:

أما عن سرعة الإدراك فقد استخدم جهاز العارض السريع في قياسها وهو جهاز يعرض المنبهات أشكال - كلمات - رموز.. لفترة زمنية محددة نصف ثانية مثلاً ثم يطلب من الشخص تحديد هوية المنبهات التي عرضت عليه، وهنا نجد فروقات فردية في سرعة إدراك هذه

المنبهات فهناك أشخاص يستطيعون أن يميزوا المنبه في خلال نصف ثانية وآخرون لا تكفيهم حيث يعجزون عن إدراك المنبه في هذه المدة كذلك من الممكن استخدام اختبارات الدقة لقياس سرعة الإدراك وذلك من خلال تحديد زمن معين للأداء.

لعله قد اتضح من هذا الفصل التفرقة بين ثلاث وظائف يعالج الفرد من خلالها المعلومات والمنبهات الواردة إليه من العالم الخارجي ومن البيئة الجسمية الداخلية، الإحساس ذو الطبيعة الفسيولوجية في المقام الأول، والانتباه كشرط أساسي للإدراك وبوصفة فلترتنقية أو ترشيح للمنبهات الواردة والإدراك كعملية سيكولوجية معقدة يسهم في إنتاجها العديد من الوظائف المعرفية الأخرى.

الفصل الثالث
لِمَ تسري الإشاعة

للإشاعة شرطان أساسيان. فالشرط الأول ينحصر في أن موضوع الإشاعة ينبغي أن ينطوي على شيء من الأهمية بالنسبة للمتحدث وللمستمع، أما الشرط الثاني فينحصر في أن الوقائع الحقيقية ينبغي أن تتسم بشيء من الغموض وهذا الغموض ـ كما سبق أن قلنا ـ يمكن أن ينشأ عن انعدام الأخبار أو اقتضابها، أو عن تضارب الأخبار، أو عدم الثقة بها، أو عن بعض التوترات الإنفعالية التي تجعل الفرد غير قادر أو غير متهيء لتقبل الوقائع التي تقدمها الأخبار إليه.

والحق هو أن الإشاعة تشتمل دائماً على فتات متخلف من الأخبار، تشتمل على «جانب من الحقيقة»، ولكن هذا الفتات تطغى عليه في مرحلة انتقالاته، شطحات أخيولية، بحيث يستحيل أن يعزل منها أو أن يستبين متميزاً عنها. ففي أقصوصة الإشاعة يكاد يكون من المستحيل دائماً أن نحدد على وجه الدقة ما هي الوقائع التي ترتكز إليها، أو ما إن كانت حقاً تشتمل على أية واقعة على الإطلاق.

القانون الأساسي للإشاعة:

إن الشرطين الأساسيين للإشاعة، ونعني الأهمية والغموض، يرتبطان ارتباطاً كمياً على وجه التقريب فيما يبدو ـ بسريان الإشاعة، والمعادلة الخاصة بشدة الإشاعة يمكن أن تصاغ على النحو التالي:

ش دالة = أ × غ

وهذه المعادلة تعني، بالكلمات، أن قدر الإشاعة السارية يتغير تبعاً لمدى

أهمية الموضوع عند الأشخاص المعنيين، وتبعاً لمقدار الغموض المتعلق بالمسألة المعنية. والعلاقة ما بين الأهمية والغموض ليست علاقة «إضافية» وإنما «تضاعفية» بمعنى أنه إذا كانت الأهمية «صفراً» أو إذا كان الغموض «صفراً» فلن تكون هناك إشاعة. وعلى سبيل المثال فإن مواطناً أمريكياً لا يحتمل أن ينشر إشاعات عن سعر الجمال في سوق أفغانستان، وذلك لأن الأمر لا «يهمه» على الإطلاق، وإن كان السعر يتسم ولا شك بعدم التحدد والغموض، كما أنه ليس على استعداد لأن ينشر التقولات عن سكان سوازيلاند Swaziland، لأنهم لا يثيرون اهتمامه، «فالغموض» وحده لا يطلق الإشاعة ولا يسندها.

وكذلك الحال بالنسبة «للأهمية» وحدها. فعلى الرغم من أن حادث سيارة أفقد فيه ساقي هو بالنسبة إلي ذو أهمية فاجعة، فإني لست مع ذلك معرضاً لإشاعات تتعلق بمدى إصابتي لأني أعرف الوقائع. وإذا تلقيت «وصية» وعرف المبلغ الذي تشتمل عليه، فسأكون أبعد ما أكون عن تقبل إشاعات تبالغ في قيمة المبلغ. ولقد كان الضباط في المراكز العليا أقل انفتاحاً للإشاعات، مما كان عليه المحاربون القدماء، لا لأن الأحداث الواقعة كانت أقل أهمية بالنسبة إليهم، ولكن لأنهم كانوا ـ بصورة عامة ـ على دراية أعظم بالخطط والاستراتيجية. فحيث لا يوجد غموض لا يمكن أن تكون إشاعة.

وفي فترة الحرب ـ كما سبق أن قلنا ـ تكون شروط قيام الإشاعة أحسن ما يمكن. فالأحداث العسكرية «بالغة الأهمية». ومع ذلك فالسرية الحربية، بالإضافة إلى البلبلة الطبيعية التي يعانيها الشعب فيما يتعلق بتقدم العدو وتحركاته التي لا يمكن التنبؤ بها، نقول إن هذه السرية وهذه البلبلة تعملان على خلق غموض سحيق، وذلك بالذات حول هذه المسائل التي تعنينا إلى أقصى حد.

فالقانون الذي قدمناه يمكن التعويل عليه بدرجة عالية. وهنالك ـ مع ذلك ـ ظروف بعينها تقل فيها فاعلية هذا القانون. فإذا كان الناس يعانون من رقابة شديدة، ولنقل من جانب الجستابو، وكانت هنالك عقوبات صارمة على ترديد

الإشاعة، فمن المحتمل أن يضبط الناس أنفسهم إن كثيراً أو قليلاً.

هذا وبالنظر إلى أن الإشاعة إنما تسري فحسب ما بين الأفراد متشابهي العقول، فحيث يكون المجتمع غير متجانس بدرجة مسرفة، وحيث قلّت الإتصالات بين جماعاته المندرجة، فإنه يكون من المحتمل أن تتجنب الإشاعة اجتياز الحواجز الإجتماعية، ومن ثم يضيق سريانها.

ومع ذلك فمن الممكن أن تتعطل فاعلية القانون لسبب آخر. فقد يحدث أحياناً عندما يتبين شخص ما العلة التي تجعله يتصرف على نحو بعينه فإنه سرعان ما يتصرف بطريقة مختلفة. ويبدو الأمر في غالبية الأحوال وكأن الشخص إذ يتبين أنه يتصرف كآلة صماء، يتحرر بذلك من أن يكون كذلك. ومن هنا فإن بعض طلاب علم النفس عندما تبينوا في أنفسهم هذه العادة المستهجنة أو تلك، سارعوا في التوّ إلى التخلص منها وكذلك فإن الأشخاص الذين تنبهوا إلى أن مجرى انفعال بعينه يساير تنبؤ الأخصائي النفسي، وجدوا أن الانفعال لم يعد يعمل ولم يعودوا يعيشونه بطريقة طبيعية. وهكذا فإن الشخص - متفهم الإشاعة - أي الذي يفهم أنه في ظروف اتغلب عليها الأهمية والغموض مما يهيئوه لتصديق الاشاعات ونشرها يكون لهذا السبب عينه أقل استعداداً لأن يأتي ذلك.

وليس من الصواب مع ذلك أن نخلص إلى أن تبين الشخص لنفسه، أو أن الإستبصار، يشفينا حتماً من كل عاداتنا المرذولة، أو أنه يتيح لإرادتنا، وفي التو، حرية غير محدودة. ومع ذلك فثمة حقيقة، قل أن يتنبه إليها علماء النفس، وهي أن معرفة الشخص بالقانون، أي بالطريقة التي تعمل الظاهرة وفقاً لها، كثيراً ما تؤدي إلى تغيير، بل وأحياناً إلى إبطال فاعلية هذا القانون.

وفي هذه الحقيقة - القائلة بأن الأشخاص المتنبهين للإشاعة هم أقل استعداداً لأن يكونوا ضحاياها - ما يبرر كل المجهودات التربوية التي اضطلع بها إبان الحرب، النفسانيون، والكتاب والمذيعون، ومحررو عيادات الإشاعة. وفي هذا أيضاً حجة تدعم إدخال دراسة لدعامات الإشاعة ضمن برامج المواد

الاجتماعية في المدارس والكليات. فبوسع الشبيبة التي تتعرف على قانون الإشاعة أن تحمي نفسها في مختلف المواقف، حيث لا يتوفر الدليل. ومع ذلك فلا بد من بذل الجهود حتى لا يستحيل الحذر والتشكك المعقول إلى سلبية غير واعية. فالشخص المسرف في حذره من الإشاعات يمكن أن يتخذ اتجاهاً من الإرتياب حتى بإزاء أكثر البيانات صدقاً.

الدوافع إلى افتحاش الإشاعة

عندما نقرر أن الإشاعة لا تسري إلا إذا كان موضوعها ينطوي على أهمية بالنسبة إلى الفرد الذي يسمعها وينقلها، فإننا إنما نوجه الإنتباه إلى «العامل الدوافعي» للإشاعة.

إن أية حاجة بشرية يمكن أن تكون القوة الدافعة للإشاعة. فالاهتمام بما هو جنسي يفسر الكثير من التقولات ومعظم الفضائح. والقلق هو القوة الدافعة إلى أقاصيص الكوارث وجثث القتلى التي كثيراً ما نسمعها. والآمال والرغبات تكمن وراء الإشاعات الحالمة. والحقد يسند أقاصيص الإتهام والإفتراء.

ففي أغسطس من عام ١٩٤٥ إنتشرت إشاعة مؤداها أن روسيا إنما أعلنت الحرب على اليابان وذلك فحسب لأنها قد حصلت في مقابل ذلك على أسرار القنبلة الذرية.

وكان المصدقون والمروجون لهذه الأقصوصة من الأشخاص الذين يمقتون الروس، وربما يمقتون ـ وإن كان بدرجة أقل قليلاً ـ القائمين بالحكم في واشنطون. كان الحقد المر هو الدافع إلى الإشاعة، ولكن ناشر الإشاعة، بدلاً من أن يقول في صراحة «إني أكره روسيا»، أو «إني أكره الحزب الديمقراطي»، فإنه تشبث بأقصوصة «تخفف» و «تبرر» و «تفسر» توتره الإنفعالي الدفين.

وجدير بالإهتمام هنا أن نلاحظ الغموض المتعدد الجنبات الذي تعمل الإشاعة في خدمته. فهي إذ تتيح للشخص ان ايصفع ما يكرهه فإنها «تفرج» عن «دافع إنفعالي» أساسي، ولكنها في نفس الوقت ـ وبنفس الرمية ـ «تبرر» ما يشعر

به الشخص بإزاء الموقف، و «تفسر» له أمام نفسه وأمام الغير علة ما يدفعه إلى هذا الشعور. وهكذا فالإشاعة تسبغ المعقولية وهي تضطلع بالتفريج.

«كيف لا أكره روسيا؟ لقد خفت إلى مساعدتنا ولكن مقابل رشوة باهظة...».

«كيف لا يستولي علي الرعب وقد أنمحى أسطولنا في بيرل هاربور...».

«كيف لا أرتاب في اليهود؟ إنهم مسرفون في التعصب لجنسهم...».

«كيف لا أشعر بأني أفضل من جاري؟ أنا لا أنزل إلى انحرافات حياته...».

ولكن تبرير دوافعنا الإنفعالية، وإسباغ المعقولية عليها ليس هو النوع الوحيد من «التعقيل» (بإسباغ المعقولية). فبصرف النظر عن ضغط دوافعنا الخاصة فإننا نسعى دوماً وبلا انقطاع إلى استخراج «دلالة» من محيطنا. فهنالك ـ إن جاز القول ـ ضغط فكري إلى جانب الضغط الإنفعالي. فالعثور على سبب معقول لموقف غامض هو في حد ذاته دافع.

وهذا السعي إلى «إغلاق جيد» (حتى بصرف النظر عن العامل الشخصي) إنما يفسر حيوية الكثير من الإشاعات. إننا نريد أن نعرف «لم» و «كيف» و «إلى أين» بالنسبة إلى العالم المحيط بنا. إن عقولنا تحتج على «العماء» ومنذ الطفولة ونحن نتساءل «لم»، وهذا السعي وراء معنى هو عملية أوسع من ميلنا إلى تعقيل وتبرير حالتنا الانفعالية الراهنة.

من هنا تنشأ «إشاعات فضولية». فالغريب الذي ينزل ببلدة صغيرة، ولا يعرف الناس عن عمله شيئاً، إنما يتسبب في تولد أساطير كثيرة تستهدف تفسير علة قدومه إلى البلدة إرضاء للعقول الفضولية. والتنقيب الذي يبدو غريباً في مدينة ما إنما يوحي بتفسيرات خيالية حول الهدف منه، والقنبلة الذرية التي لا يفهم الناس عنها إلا القليل، تولد الكثير من «السعي وراء معنى».

وخلاصة القول، أن الإشاعات تهدىء، التوترات الانفعالية القائمة بإتاحتها إفراغاً لفظياً يحقق التفريج، إن الإشاعات غالباً ما تبرر وتذود عن وجود

هذه الإنفعالات التي لو واجهها أصحابها بصورة مباشرة فمن المحتمل ألا يقتدروا على تقبلها. والإشاعات في بعض الأحيان تتيح تفسيراً جد فسيح لكثير من الملامح المستغلة للبيئة، ومن ثم تلعب دوراً بارزاً في إشباع الحاجة العقلية إلى جعل العالم المحيط بنا يبدو معقولاً.

وهذه الديٖنامية الثلاثية الجنبات نادراً ما يفهمها، إن فهمها على اطلاق، ناشر الإشاعة. إنه لا يعرف السبب في أن الإشاعة بعينها تبدو له شديدة الجاذبية، وجديرة بالترديد والنشر في سرعة وعلى نطاق واسع. إنه لا يتنبه إلى أي مدى يعكس نفسه في الأقاصيص التي ينشرها، وذلك لأنه لا يفهم ميكانيزم الإسقاط.

الإسقاط:

نتحدث عن «الإسقاط» عندما تنعكس الحالة الإنفعالية للشخص، دون وعي منه، في تأويله للبيئة المحيطة به. مثل هذا الشخص يعجز، في نظرته إلى الواقع المحيط به، عن أن يقتصر على استخدام البينات الموضوعية، والخالية من التحيز.

وفي الأحلام يضطلع كل واحد بالإسقاط. وإنما بعد اليقظة فحسب نستطيع أن نتبين أن رغباتنا الخاصة، أو مخاوفنا، أو نزعاتنا الإنتقامية هي المسؤولة عما حدث في أخاييلنا الحالمة. فالطفل النائم يحلم أنه قد عثر على جبال من الحلوى. والشاب المفعم بمشاعر الدونية، يحلم في نومه بانتصارات في حلبة الرياضة. والأم الخائفة تحلم بموت طفلها.

وأحلام اليقظة إسقاطية هي الأخرى. فحين نضطجع على الأريكة نطلق العنان لخيالنا بصور الأحداث التي تجسد آمالنا ورغباتنا ومخاوفنا، ومن ثم نجد أنفسنا في الخيال مظفرين، ومشبعين، وأحياناً مدحورين وخاسرين، وكل ذلك بحسب مزاجنا أو بحسب نوع الإنفعال الذي يوجه آنئذٍ تيار تداعياتنا الفكرية.

إن الإشاعة أشبه ما تكون بحلم يقظة لاكته الأفواه. فإذا كانت

الأقصوصة التي نسمعها تتيح لنا تأويلاً للواقع يتفق مع حياتنا الحميمة فإننا نميل إلى تصديقها وإلى نقلها.

وفي المثال التالي يوضح لنا كارل مننجر K.meninger (١٩٣٠) كيف يمكن لرغبة متخفية أن تستثير، وأن تجدول في نفس الوقت أقصوصة مختلفة.

تقول مسز أدمز لمسز بك: «أين مسز كنج اليوم؟ أهي مريضة؟».

وتقول مسز بك لمسز كلارك: «إن مسز أدمز تتساءل أليست مسز كنج مريضة؟».

وتقول مسز كلارك (التي لا تحب مسز كنج) لمسز ديفز (التي تحب مسز كنج).

«سمعت أن مسز كنج مريضة. أرجو ألا تكون حالتها خطيرة».

وتقول مسز ديفز لمسز أليس: «تقول مسز كلارك أن مسز كنج مريضة جداً. ينبغي على أن أذهب في التو لأراها».

وتقول مسز أليس لمسز فرنش: «أظن أن مسز كنج جد مريضة. فقد استدعيت مسز ديفز إليها منذ لحظة».

وتقول مسز فرنش لمسز جريج: «يقولون إن مسز كنج لا يرجى أن تعيش فقد استدعي أقاربها ليكونوا إلى جوار «فراشها».

وتقول مسز جريج لمسز هدسون: «ما هي آخر أخبار مسز كنج؟ هل توفيت؟».

وتقول مسز هدسون لمسز انجهام: «في أي ساعة توفيت مسز كنج؟».

وتقول مسز انجهام لمسز جونز: «هل أنت ذاهبة إلى مأتم مسز كنج؟ لقد سمعت أنها توفيت أمس».

وتقول مسز جونز لمسز كنج: «سمعت منذ لحظة خبر موتك ومأتمك فمن الذي أشاع ذلك».

وتقول مسز كنج: «هنالك كثيرون يسعدهم لو صح ذلك».

ومن أمثلة الإسقاط في صورة الأكثر تعقداً نورد إشاعة من إشاعات الحرب العالمية الثانية. لقد كانت غالبية الإشاعات التي سجلت أثناء الحرب، كما رأينا في الفصل الأول، من النمط العدائي الذي ينطوي على اتهامات ضد جماعة معينة من الجماعات الأمريكية: كاليهود، وجماعة مكتب إدارة التسعيرة O. P. A.، والزنوج، والكاثوليك. والجهاز الحكومي، والجيش، والأسطول، والصليب الأحمر، أو ضد حلفائنا، وعلى الأخص بريطانيا وروسيا. وعلى الرغم من أن عنصر المنطق هو أكثر بروزاً في هذه الإشاعات فديناميات الإسقاط، فيما يبدو، هي أيضاً قد دفعت بها إلى الأمام في الطريق.

ولنفترض أن واحدة من ربات البيوت قد قالت من فوق السور الخلفي لبيتها (وكثيرات فعلن ذلك بالفعل).

«سمعت أنهم هنالك في معسكر ١٠ لديهم اللحوم بوفرة حتى إنهم يلقون شرائح برمتها من لحم الأبقار الطازج في صناديق القمامة».

فماذا يمكن أن يكون الدافع عند هذه المرأة؟

(أولاً) كان نقص اللحوم بالنسبة إليها وإلى أهل بيتها مسألة ذات «أهمية». هذا إلى أن الدليل في هذه الحالة يتسم «بالغموض». فإنه لم يكن في وسع هذه المرأة أن تصل إلى الحقائق في هذا الأمر. وأكثر من هذا، فإنها كانت تعاني بمعنى الكلمة من نقص اللحوم. تعاني الإحباط (الحرمان النفسي) في تنظيم وإعداد الوجبات. وهي عندما تشعر بالإحباط تعرف أن هنالك دائماً سبباً لذلك.

ومن هنا فإنها في «سعيها وراء معنى» تجاهد للكشف عن المتهم، لقد كان من الممكن بالطبع أن تتهم المحور أو هتلر، ولكن هؤلاء الأوغاد ليسوا فحسب بعيدين عن متناولها، وإنما كانت سيئاتهم من العظم والعمومية بحيث كان من الصعب عليها أن تتبين علاقتهم بإحباطها العياني المباشر. وبالإضافة إلى ذلك. لو كانت هنالك ترتيبات أفضل، أفلم يكن من الممكن أن يتوفر اللحم للجميع؟ ومن المحتمل أيضاً أن تكون قد التقت ببعض من الضباط

الجشعين غير المقدرين للمسؤولية، أو لعلها ساخطة على الطريقة التي يعامل بها الجيش حبيبها «جوني». وعلى أية حال يبرز وغد ملموس، على مقربة، ومشبوه، فلا تلبث تهمة نقص اللحوم حتى تلصق بالجيش.

وهكذا تفسر المسألة لنفسها، وتثبت اللوم. ويطلق على هذه العملية اسم «الإسقاط المتمم». (مري وآخرون ١٩٣٨). وليس معنى الإسقاط المتمم أن يلصق الشخص مشاعره الانفعالية بالآخرين، وإنما بالحري أن يتلمس الشخص في المسالك التي يفترضها في الآخرين مادة تفسير «معقولة» لمشاعره (بهذا المعنى نجد حالة قصوى من حالات «الإسقاط المتمم» عند المصاب بالبرانويا الذي في معاناته للشك والعدائية يتهم الآخرين بالتآمر عليه).

ومع هذا فقد لا نكون قد بلغنا بذلك كله إلى تفسير كامل لثرثرة هذه المرأة.

ولنفترض أنها قد عجزت عن خفض استهلاكاتها المنزلية، (مما أوحت به الحكومة)، أو لعلها قد مارست شيئاً من الغش باحتجازها كوبونات التموين عند شرائها اللحم، أو أنها اشترت شيئاً منه من السوق السوداء.

ونظراً لأنها في الأعماق مواطنة مسالمة ومحبة لوطنها، فإنها لا تستطيع أن تفلت من وخزات الضمير. أو تراها تستطيع؟ (إن الغالبية من الناس تحرص - ما وسعتها الحيلة - على أن تحقق الهدوء لضميرها، وكيما تبلغ إلى ذلك فإنها تقع، بين حين وآخر على الأقل في شرك «الإسقاط المباشر»).

إن الإسقاط المباشر (لا المتمم) لشعورنا بالأثم لهو نعمة من النعم السحرية للطبيعة، تتيح تجنب وخزات الضمير المؤلمة. ولقد أشار إمرسون Emerson إلى ذلك حين كتب: «إن ما نسميه خطيئة عند الآخرين هو مجرد ما نسميه «تجربة عندنا» فالآخرون هم الذين يرتكبون الخطايا لا نحن. (وحتى لو ارتكبناها، فما أهونها من خطايا إذا قورنت بنذالة الآخرين) فالمرأة التي نحن بصددها يحتمل أنها كانت دون وعي منها تعمل على تهدئة ضميرها، وكأنها تقول لنفسها: «علام أشعر بالإثم؟ وأين تكون مراوغاتي التافهة في الأنظمة

التموينية بالقياس إلى غيرها؟ تأمل فقط، إن الجيش يبدد شرائح بأكملها من اللحم. إن فعلتي بالقياس إلى ذلك لا تستحق الذكر».

وهنالك أيضاً بعض الأدلة التجريبية تتعلق بأهمية الإفلات من مشاعر الإثم في تصديق الإشاعات. ولقد كشف أولبورت ولبكر Allport and Lepkir (١٩٤٥) عن وجود ميل عند الأشخاص الذين يصدقون إشاعات معينة تتصل بالتبذير وبالإمتيازات الخاصة بمكتب إدارة التسعيرة O. P. A. إلى أن يكونوا أناساً ممن يستبيحون الغش في مقررات التموين وممن ينكرون في الوقت نفسه أي شعور بالإثم أو العار يخامرهم من أجل ذلك». وعلى العكس من ذلك عند الأشخاص الذين يسلمون بالغش ويعترفون بأنهم «يستشعرون الخزي» فقد تبين أنهم أقل تصديقاً للإشاعات المتصلة بأخطاء الآخرين. وباختصار، فإننا حين نصدق بالنسبة للآخرين أسوأ الأمور، فإننا نتحايل للإفلات من إثم لا شعوري عندنا. أما حين نتجه باللوم إلى أنفسنا فإننا نكون أقل استعداداً للإشاعات.

ونجد توكيداً لنفس المبدأ في تجارب فرنكل - برونزويك Frenkel-Brunswik وسانفورد (١٩٤٥). فلقد أكتشف هذان الباحثان أنه بين جماعة من الفتيات الجامعيات المناهضات لليهود بصورة صريحة كان هنالك ميل إلى تجنب لوم الذات وإلى التملص من مسؤولية التقصير. وعلى الضد من ذلك، بين جماعة من الطالبات المتحررات بشكل واضح من التحيز ضد اليهود، كان هناك ميل واضح عندهن إلى «عقاب الذات». بمعنى أنهن يملن إلى توجيه اللوم إلى أنفسهن في حالات الخيبة والفشل. فالأشخاص الذين يرفضون مواجهة أخطائهم يتلمسون كباش الفداء. أما الأشخاص الذين يعرفون مواطن الضعف في أنفسهم فلا يبدو أنهم بحاجة إلى كباش فداء.

تعميم قانون الإشاعة:

نستطيع أن نلخص ما عرضنا له حتى الآن على النحو التالي:

«إن الإشاعة تنطلق وتمضي في رحلتها في وسط اجتماعي متجانس، بفضل الدوافع القوية عند الأشخاص القائمين بنقلها. ويتطلب التأثير القوي لهذه الدوافع أن تضطلع الإشاعة بدور تبرير هذه الدوافع بمعنى أنها تفسر وتبرر، وتسبغ دلالة على الدافع الانفعالي الدائم. وأحياناً ما تكون العلاقة بين الدافع والإشاعة من القوة بحيث نستطيع أن نصف الإشاعة ببساطة على أنها إسقاط لحالة ذاتية وانفعالية معاً».

أما وقد قررنا العلاقة الوثيقة بين الإشاعة والحالة الذاتية الانفعالية فلنلق من جديد نظرة على صيغة القانون:

ش دالة = أ × غ

وهذه الطريقة في التحليل عظيمة الشبه بطريقة ماكجريجور McGregor (١٩٣٨) في تناول عامل التفكير الراغب في صياغة التنبؤات. ففي تجربة ماكجريجور طلب إلى الأشخاص (وكان ذلك في عام ١٩٣٦) ما إن كانوا يعتقدون أن هتلر سيبقى في الحكم «بعد سنة من اليوم». ولقد أجاب ٩٥٪ من الأشخاص بأنهم يعتقدون بأنه سيبقى، ولقد سئلوا أيضاً عما إن كان اتجاههم الشخصي محبذاً لهتلر، وتبين أن الغالبية مناهضة له.

والمهم هنا أن كراهية الناس له لم تؤثر على تنبؤهم. إذ لم يكن في الموقف غير قليل من «الغموض». وقد كانت قبضة هتلر على ألمانيا في ذلك الوقت قوية.

ومن ناحية أخرى طلب إلى الأشخاص أن يتنبأوا بمدى احتمال تحقق خطة ملك إنجلترا إدوارد الثامن المعلنة لزواجه خلال تلك السنة. وما إن كانوا يعتقدون أنه يجب عليه أن يتمم الزواج. فمن بين الأشخاص الذين كانوا معارضين لزواج الملك تنبأ ٣٢٪ «بنعم». في حين أنه من بين الأشخاص المناصرين لزواج الملك تنبأ ٨٠٪ «بنعم». وفي وقت إجراء التجربة كانت الأخبار عن مشروع زواج الملك غاية في الغموض والتناقض. فحين لا تتوفر هداية الدليل الموضوعي، فإن الغالبية من الناس تتنبأ وفقاً لتفضيلاتها الذاتية.

ويكتب ماكجريجور: «... إن مدى أثر العوامل الذاتية في التنبؤ يتحدد تبعاً لدرجة الغموض في الموقف المثير، وتبعاً لما للمسائل المعنية من أهمية عند المتنبيء.

فإذا كانت الأهمية، أو إذا كان الغموض صفراً، فإنه من المفروض أن يكون أثر العوامل الذاتية على التنبؤ صفراً، في هذه الحالة لن تكون هنالك «رغبات» للتأثير على التنبؤ، وعندئذٍ يكون التنبؤ ببساطة مجرد تسجيل لغموض الموقف المثير الراهن، وإذا كان الغموض صفراً يكون الموقف المثير ملزماً تماماً، بحيث تظل أية رغبة شديدة عديمة الفاعلية.

وتنتهي بنا دراسة ماكجريجور إلى أن الإشاعة تتبع قانوناً ـ أكثر عمومية ـ في علم النفس الاجتماعي، يمكن صياغته على النحو التالي:

«إن التحريف الإنفعالي الذاتي في إدراك وتأويل البيئة إنما يحدث فحسب تبعاً للتأثيرات المتضامنة للأهمية والغموض».

إن الإسقاط والتفكير الراغب ليسا بميلين مطلقين. فهما يتحققان فقط عندما تسمح الظروف الشارطة. فالأشخاص يدعمون رغباتهم بالإعتقاد ويلجأون إلى التبرير، والإسقاط، وينشرون الإشاعات الكاذبة وذلك فحسب تبعاً لغموض الموضوع وأهميته الخاصة.

وهكذا فإن الإشاعة، كصورة من أكثر صور النشاط الاجتماعي بعداً عن المنطق تتكشف كظاهرة محددة. فهي كالتفكير الراغب عند ماكجريجور، لا تزدهر إلا حين يتحقق للشخص الشعور باندماج الذات، وحين لا تفرض الأدلة أو المعارف الموضوعية قيوداً منطقية على الحكم والنقد.

وفي هذا المجال قد يكون من المفيد أن نذكر أيضاً أن عدداً من الإشاعات يكشف فيما يبدو عن تعطش معرفي أكثر منه عن حاجة إنفعالية.

ونظراً لأن الأشخاص شغفون بالإستطلاع، راغبون في المعرفة، ففي ذلك ما يقيم شرط الأهمية. ولكن نظراً أيضاً لأنهم لا يعرفون، ونظراً لأنهم يجدون المسألة المعنية تتسم بالغموض، فإنهم ينفتحون للإشاعة فالقصص

الطويلة التي يرويها الأطفال معبرة عن تأويلاتهم لمظاهر الطبيعة والعقل والله تشارك في هذا الطابع المميز «للإشاعة الاستطلاعية». والأساطير والخرافات، وإن لم تكن بأي حال متجردة دوماً عن الطابع الانفعالي، فإنها هي الأخرى قلما تبدو في الغالب أكثر من مجرد صور علمية بدائية للكون. وباختصار فإن «السعي وراء معنى» يمكن وحده أن يحقق شرط «الأهمية» الذي يكمن وراء انتشار الإشاعة (أو الأسطورة).

فالحاجات التي تتسم بالأهمية ليست كلها حشوية. فمن الممكن أيضاً أن تكون عقلية.

أسباب ثانوية لسريان الإشاعة

ليس من الحكمة من أن تفترض أن كل فرد ناشر للإشاعة إنما يدفعه دائماً ذلك الأنموذج الدينامي الذي وصفناه. ففي بعض الحالات يمكن أن يكون الدافع جد خاص، فلا ينطوي على أية علاقة بالموضوع الذي تنصب عليه الإشاعة، وعلى سبيل المثال، يمكن أن يكون الدافع عند ناشر الإشاعة مجرد الرغبة في اجتذاب الانتباه. «إني أعرف شيئاً أنت لا تعرفه» ذلك غالباً مدخل الطفل إلى ترديد الإشاعة. فكون الشخص «في الصورة» إنما يرفع من شعور الشخص بأهمية ذاته. فالشخص وهو آخذ في سرد قصته يكون، طوال ذلك الوقت، مهيمناً على مستمعيه. ومثل هذه المتعة يمكن أن تكون شديدة الغواية بالنسبة إلى الأشخاص الذين حياتهم ـ فيما عدا ذلك ـ خلواً من الأحداث لا لون لها. هذا إلى أن مردد الإشاعة يمكن أن يتيح لنفسه مشاعر المغدق على صديق شغوف بتذوق الفضائح، أو بالأقاصيص المقابرية المفعمة بالجثث والمصائب. وهو وإن لم يحفل هو نفسه بالإشاعة فإنه يلقي بها إلى تلذذ صديقه.

أضف إلى ذلك أن الشخص يمكن حين ينقطع حبل الحديث أن يجد من الملائم أن يملأ الفراغ بترديد ما سمعه منذ لحظات. وعلى ذلك فإن الأشخاص الذين لا يتجاوبون مع المشاعر الانفعالية التي تنطوي عليها الإشاعة قد يعملون

مع ذلك على استمرار سريانها، ومثل هذه الدردشات الاجتماعية غير الهادفة لا يمكن وحدها أن تفسر وجود الإشاعة أو الشكل الذي تتخذه، ولكنها مع ذلك تعين على دفع الإشاعة في رحلتها عبر نقطة ميتة من السلسلة.

ففي وقت من الأوقات، حين كانت الولايات المتحدة ما تزال في حرب مع إيطاليا تبين أن ٢٥٪ من بين أعضاء جماعة «ايطالية أمريكية» فقيرة كانوا يستمعون بانتظام لراديو روما، وينقلون دعاية المحور إلى جيرانهم وقد يبدو للنظرة العجلى، أن ولاء هذه الجماعة كان ينبغي أن يوضع بصورة جدية موضع الشك، ولكن الدافع الذي يكمن وراء هذا الموقف قد استبان بسيطاً وبعيداً عن التعقيد، فالأشخاص الذين كانت أجهزة استقبالهم من الجودة بحيث تستطيع التقاط المحطة الإيطالية كانوا يستشعرون مشاعر الإمتياز والتفوق في جماعتهم، وكيما يحتفظوا بهذا الإمتياز، فقد كانوا يتجشمون مشقة الإستماع، وينعمون بمشاعر الفخار وهم ينقلون ما سمعوه إلى جيرانهم الذين يحسدونهم على ذلك.

إشاعات مركز التطلع

تبلغ الإشاعات أقصى احتدامها عندما يكون الجمهور متوقعاً حدوث حادث خطير، ويشتد الاحتدام عندما تدخل الصحافة والإذاعة إلى المسرح. فهدنة عام ١٩١٨ قد سبقها بأربعة أيام إعلان في الصحافة غير صحيح. وفي عام ١٩٤٥ تكرر نفس الشيء قبيل يوم النصر في أوروبا V- day وقبيل يوم النصر على اليابان V- day. وفي جميع هذه الحالات تمخض الأمر عن احتفالات سابقة لأوانها. فبالإضافة إلى ما يمكن أن نفهمه من رغبة هيئات الإعلام في ألا تتهم بالغفلة والنعاس، وفي أن تقدم إلى الجمهور الأنباء الطيبة في أبكر وقت ممكن (وقبل أن يسبقها منافس إلى ذلك) فهنالك أسباب سيكولوجية تكمن وراء الميل الشائع عند الجميع إلى «الإستباق» وذلك بقدر ما يتعلق الأمر بتوقع أنباء هامة.

ها هنا نلتقي بعامل دينامي قوي، هو عامل «التوقع» في الحياة العقلية للأفراد. فبعدما يطول الإنتظار ويطول وحتى لا يبقى غير عنصر واحد فحسب لينحل اللغز، عندما نكون كلنا «تحفز» للإكمال. إننا نكون أشبه شيء بهذه الحيوانات التي تسرع في عبورها المتاهة إلى صندوق الطعام، فتزيد من سرعتها بقدر ما تقترب من نهاية الطريق في المتاهة التجريبية. إننا نخضع مثلهم «لجذب الهدف» وحتى هؤلاء الأشخاص الذين تدربوا على جمع الأخبار فإنهم لا يطيقون الانتظار، كما يدل على ذلك تصرف اليونايتدبرس، قبيل يوم النصر على اليابان:

إشارة برقية تثير احتفالاً سابقاً لأوانه.

في الساعة ٩,٣٤ من مساء الأحد أرسلت اليونايتدبرس ما يأتي عبر مبرقاتها الكاتبة:

إشارة:

واشنطون: اليابان تقبل شروط الحلفاء للتسليم.

وبعد دقيقتين أي في الساعة ٩,٣٦ أرسلت إشارة عاجلة:

إشارة:

رئاسة التحرير: أوقف الإشارة السابقة.

ولكن النشرة كانت قد أذيعت على الهواء، وفي التو انطلقت في أرجاء نيويورك كلها الصفارات وأنفرة التنبيه.

عندها أمر الكثيرون من مديري دور السنيما بإيقاف العرض وإعلان «النبأ» فتدافع الآلاف إلى الشوارع للإشتراك في الاحتفالات السابقة لأوانها.

وفي الساعة ٩ والدقيقة ٤٠ مساء نشرت اليونايتدبرس:

رئاسة التحرير: إن مكتبنا في واشنطن ينبه إلى أنه لم يرسل الإشارة التي سبقت إذاعتها منذ لحظات، ونحن نجري الآن التحريات للتأكد من مصدر النبأ.

وفي هذه اللحظة أخذت محطات الراديو تنبيهات عاجلة بأن النبأ غير

صحيح. ومن الواضح أن جميع الإذاعات كانت تستند إلى إشارة اليونايتدبرس.

وفي نفس الوقت كانت المبرقات الكاتبة لليونايتدبرس في شبه شلل فلم تصدر عنها كلمة واحدة طوال ٢٠ دقيقة على أقل تقدير.

وفي الساعة ٥,١٠ مساءً أرسلت الإشارة التالية:

رئاسة التحرير: ما زلنا نتابع التحقيق في أمر إشارة واشنطون، ولكننا لم نستطع حتى الآن تحديد مصدرها. وسنقدم تقريراً تفسيرياً في أقرب وقت ممكن.

إن إشاعات «جذب الهدف» لا تناقض المبادىء التي عرضنا لها، وإنما هي تجسيد لها في حالة خاصة. إن «الخاتمة» المتوقعة ذات «أهمية» عظمى عند الكثيرين. هذا إلى أن كون الأخبار الرسمية هي موقع الناس من لحظة إلى أخرى لمما يزيد بالفعل من «الغموض» القائم في الموقف (أحدث؟ ألم يحدث؟). فجامعو الأخبار وزبائنها يتجهون بكل اهتمامهم إلى الخاتمة المتوقعة. والأمر لا يحتاج إلا لزيادة طفيفة في «القابلية للتصديق» حتى يتأكد الناس ويعتقدون أن الخاتمة قد تمت.

الفصل الرابع

(موجز)

الشهادة والتذكر

الإشاعة بحسب التعريف ظاهرة اجتماعية. فلا بد من شخصين على الأقل لتكون إشاعة. ومع ذلك ففي أية لحظة بعينها، يكون فرد واحد هو «عجلة الأقصوصة» مما يدور في ذهنه هو سر الأمر كله. وعلى وجه الدقة فإن السلسلة شيء يزيد على مجرد حاصل جمع حلقاتها. ومع ذلك فإن الحلقات واحدة واحدة إنما تؤلف مادة السلسلة ولبابها. ومن هنا فإننا لا نستطيع أن نتوقع فهم الإشاعة فهما مليئاً بغير ما تحليل دقيق للعمليات النمطية التي تجري متعاقبة عقلاً فعقلاً من العقول الفردية التي تؤلف سلسلة الإشاعة.

الشهادة

على الرغم من أن علماء النفس لم يحفلوا إلا قليلاً حتى الحرب الأخيرة بالاستعدادات السلسلية (العديدة الأفراد) للإشاعة، فإنهم قد اهتموا لفترة ما بالأنموذج القاعدي: إدراك ـ حفظ ـ إدلاء على نحو ما يتحقق في الفرد. ولكن منذ نحو خمسين عاماً انكب هؤلاء العلماء بصورة جدية على دراسة الشهادة، وهي التي أطلق عليها البحاث الأوائل من الألمان مصطلح Aussage.

كانت دراسة الشهادة بمعنى دراسة المشاهد كقائم بالإدلاء، ميداناً التقت فيه إهتمامات سيكولوجية متعددة، كما قرر ذلك هوبيل Whipple (١٩٠٩).

«ينبع الإدلاء من عمليات الإدراك، فهو بالتالي يشتمل على كل سيكولوجية الإحساس والإنتباه والإدراك الداخلي كما يرتبط بالحفظ والتذكر، ومن ثم يشتمل على كل سيكولوجية الذاكرة.. ويخضع لإدلاء الشروط من عوامل ذاتية متعددة من قبيل الميول المزاجية، والعواطف، والقابلية للإيحاء إلخ».

وفي الوقت الذي كتب فيه هوبيل ذلك، كان علماء النفس تجتذبهم دراسة الإشاعة ربما لأنها كانت تكون الميدان التطبيقي الوحيد المشتمل على العديد من العمليات العقلية العليا، والذي يتيح لهم أن يوجهوا علمهم إلى الأغراض العملية. ومما كان يبعث في نفوسهم الرضا أن يلقوا الضوء على مسألة مستغلقة تثار في عجيج وضجيج قاعات المحاكمة ومكاتب الصحافة.

ومن بين الرواد الأول يبرز عالمان، بينية. Binet وشترن Stern فبينيه (١٩٠٠) هو الذي وجه الأنظار إلى ضرورة الدراسات التجريبية المنهجية، وكان من بين طليعة من اضطلعوا بمثل هذه الأبحاث. كان رائداً في استخدام اختبار الصور، الذي عن طريقه، يتم تقدير مدى الصدق في الإدلاء عن المادة المصورة. وكانت المواد التي يستخدمها تشتمل أيضاً على اختبارات وصف الأشياء، واختبارات الذاكرة اللفظية وكانت القدرة على الإدلاء تدخلت ضمن سلم مقاييسه، وما تزال جزءاً من اختبارات ـ ستانفورد ـ بينية للذكاء.

أما الباحث المنهجي الآخر فهو وليم شترن، الذي يعد كتابه «في سيكولوجية الشهادة» (١٩٠٢) مرجعاً تقليدياً في مجال الشهادة وبفضل شترن على وجه الخصوص تطورت دراسات الشهادة في خطين رئيسيين: اختبارات الصور وتجارب الواقع. ففي اختبارات الصور نعرض منظراً على الشخص ويُطلب إليه أن يصفه من الذاكرة بأقصى ما يستطيع من دقة. وكيما نجعل ظروف البحث أقرب ما تكون شبهاً بالحياة تضطلع تجارب الواقع بتقديم بعض الأحداث الحية، ودون أن يتنبه الأشخاص إلى أن الظاهرة التي يشهدونها قد اصطنعت بمهارة.

فإحدى التجارب النمطية «الجد شبيهة بالحياة» كانت تنطوي على الحادث التالي. ففي أثناء اجتماع مناقشة علمية اشتبك اثنان من بين الطلبة في عراك. وأخذ النقاش بينهما يتزايد حدة حتى بلغ الأمر بأحدهما أن يشهر مسدسه على خصمه مهدداً إياه بإطلاق النار. وفي هذه اللحظة تدخل الأستاذ فأبعد ما بين المتخاصمين، وطلب إلى الشهود أن يقدموا وصفاً تفصيلياً للحادث.

ولفحص قدرة الشهود على الإدلاء استخدمت طريقتان:

(١) طريقة الرواية أو السرد الطليق الذي يقدمه الشخص بغير معونة، أو إرشاد أو مقاطعة من جانب المجرب. ويتميز هذا النمط من الإدلاء ببعده عن التأثر بالإيحاء. ولكنه مع ذلك لا يكشف عن قدرة الشخص على التذكر بصورة كاملة ومستنفدة كما هو الشأن في النمط الثاني من الإدلاء.

(٢) طريقة الأسئلة أو طريقة الإستجواب وتنحصر في إعداد مجموعة من الأسئلة تغطي جميع التفصيلات وجميع جوانب «المادة ـ المثير» والعيب الأساسي لهذه الطريقة هو بالطبع خطر الإيحاء. فإن الشاهد الذي ينزلق بتأثير «الأسئلة الهادفة» له وجه مألوف في قاعات المحاكمة.

ولقد كشف شترن (١٩٣٨) عن عدد من العوامل التي تؤثر في إدلاءات الشاهد.

فالحالات الأولى للوي والحذف تحدث فيما يبدو أثناء الإدراك الأول للصورة أو الحادثة نفسها. فالشاهد يميل إلى إغفال التفصيلات المحيطية بالقياس إلى الموضوع الرئيسي. فهنالك كثير من التفصيلات التي لا يراها على الإطلاق. وكلما مضى الوقت يصبح إدلاؤه أقل دقة، وتصبح مظاهر اللوي أكثر فأكثر خطورة، وخاصة حين يخضع الشاهد لعملية استجواب.

وعندما يتاح للشاهد أن يضطلع بسرد تلقائي، فإنه يستطيع أن ينتقي ويلتقط من بين التفصيلات الخاصة بالحادث الأصلي، فيدلى من بينها بما يراه أكثرها وضوحاً، وأكثرها ـ فيما يحتمل ـ دقة في ذاكرته أما في حالة الإستجواب، فالشاهد يجد نفسه مضطراً لأن يدلي بقضايا محددة عن الموضوعات التي ترقد في الهامش المعتم من ذاكرته. وفي مثل هذه الظروف يغلب على الشاهد أن ينقاد للصورة الخاصة التي يتخذها سؤال القائم بالإختبار وما ينطوي عليه السؤال من تلميح ضمني.

ولقد تبين شترن كذلك أن الحادثة موضوع الإدلاء ينبغي أن تكون قائمة في كيان متحدد في ذهن الشاهد إن كان لنا أن نحصل منه على إدلاء دقيق

بدرجة مقبولة.

أما إذا خلط الشاهد ما بين المشهد وتجارب أخرى مشابهة، فإن ذلك يتمخض عن مزيج مؤسف. ويلاحظ شترن ـ ملاحظة تنطوي على أهمية كبرى بالنسبة للإشاعة ـ أن هنالك عدداً لا يحصى من الناس لا ينعم الماضي في مسرحهم الشعوري إلا بالقليل من «الانتظام الزمني» فإن ما حدث في وقت ما يختلط اختلاطاً عمائياً بأشياء أخرى حدثت في وقت آخر. وكل من حاول أن يضطلع بتقديم وصف لأحداث طفولته بترتيبها الزمني فهو شاهد على ما ينال الإطار الزمني للذاكرة من «شلفطة».

إن الشهادة، كما تبين شترن، تنال بشدة خاصة من الجوانب القريبة وغير المألوفة للمثير. فهذه الجوانب إما أن يعاد تأويلها لتساير ما هو مألوف بالنسبة إلى الشخص، وإما أن غرابتها تتعرض من جانب الشخص للمغالاة الشديدة بحيث تصبح القسمة المركزية في الإدلاء.

وفي حالة الإدلاء اللفظي تضاف قوى أخرى للوي ـ فالأشخاص لا يملكون من الألفاظ إلا قدراً محدوداً. فهم يستخدمون «تعبيرات» جاهزة (كليشيهات) ومصطلحات لفظية مألوفة للتعبير عن صور الذاكرة التي كثيراً ما تكون ناقصة ويعوزها التنظيم. فالألفاظ عندما تستخدم تسبغ على التذكر صورة هي من التحدد أكثر مما عليه التذكر في صورته غير اللفظية. تشكل «أفكارنا»، و «تلزمنا» بأفكار لم تكن محددة قبل أن ننطق بها.

وأخيراً فقد تبين شترن أن الفروق بين الأشخاص في الذكاء، وفي عادات التعبير اللفظي، إنما تؤثر بشكل واضح على الإدلاء. فمن الأشخاص من يميل إلى تقديم مجرد تعديد لقسمات غير مترابطة من تجربته ومنهم من ينسج قصة يختلط فيها التأويل والتقييم بالإدلاء نفسه. وعلى وجه العموم لا يبدو أن هناك اختلافاً ثابتاً بين إدلاءات الرجال وإدلاءات النساء من حيث الثقة. أما الأطفال، فإنهم من عدم الدقة ومن سهولة التأثر بالإيحاء (وذلك لأن ترسانة تجاربهم لا هي بالكافية ولا هي بالمساغة بدرجة كافية بحيث تنتظم في بنية

جديدة) إلى حد أنه لا يمكن في الواقع أن تثق في إدلاءاتهم.

ولقد تسبب إثبات شترن استحالة التعويل على شهادة الأطفال في تعديل القانون الألماني، بحيث تضاءل تقبل المحاكم في ألمانيا لمثل هذه الشهادة.

وثمة أبحاث كثيرة مماثلة اقتفت طريق شترن. ولقد تناولت بعض هذه الأبحاث طريقة الإيحاء للاستجواب كما تناول بعضها الآخر أثر الفترات الزمنية المختلفة على دقة الإدلاء.

ولقد كشفت كل هذه الأبحاث عن قصور شهادة «شاهد العيان» خاصة في الظروف التي يشتد فيها الانفعال إبان الإدراك الأصلي، أو إبان عملية السرد. والقصور العادي في عمليات الإدراك والحفظ والإدلاء اللفظي إنما يعد جسيماً بدرجة كافية ولكن الحالات الانفعالية تزيد كثيراً من جسامة هذا القصور.

والإشاعة من حيث أنها تبتعد عن شهادة شاهد العيان مرة، ومرتين، وآلاف المرات، إنما تزداد وتزداد بعداً عن الصحة. فلا غرابة بالتالي إن كان الدليل المستند إلى التقولات يلقى الاستبعاد القاطع في معظم المحاكم.

الإدراك والتذكر والإدلاء

المراحل السيكولوجية الثلاث في الشهادة هي: الإدراك والتذكر والإدلاء ونفس هذه العمليات الثلاث هي قوام «انتقال الإشاعة» مع فارق، هو أن المراحل في الحالة الأخيرة تتكرر في حلقة من حلقات الإشاعة وأن الإدراك ينخفض في جميع الحلقات - باستثناء الأولى - إلى مجرد سماع المنقول.

وعلى وجه الدقة يستحيل عزل مثل هذه المراحل بعضها عن البعض بصورة قاطعة فما ندركه إنما يتأثر بالضرورة بما نتذكره من التجارب الماضية الملائمة، كما أنه يتأثر أحياناً بما نرغب في الإدلاء به. والتذكر يعتمد على الإدراك ولكنه يعتمد أيضاً على الألفاظ التي تجسد الموقف في الذهن. والإدلاء هو نتاج العمليتين السابقتين ولكنه أيضاً نتاج الموقف الاجتماعي الذي

يتم فيه الإدلاء.. وشكل الإدلاء يتوقف على ما نملكه من ألفاظ وعلى ما نستهدفه من الحديث.

وكلما مضت هذه العملية المعقدة في طريقها، متقدمة من الإدراك المبدئي إلى الإدلاء الختامي، تحدث كثرة من التحورات العجيبة بانصهار الانطباعات الحسية الأصلية مع الذكريات الماضية والانفعالات في سبيكة واحدة.

فالنسيان الانتقالي واللوي الذاتي يغيران بالضرورة كل قيم أحداث العالم الخارجي تقريباً. ولكن الدور الحاسم إنما تضطلع به «الاتجاهات» «والتوقعات». فهما اللذان يجعلان من التذكر عملية عقلية «بنائية» أكثر منها مجرد عملية «نسخية».

والتصور المركزي هو تصور «السعي وراء معنى» (وهو تصور سبق لنا استخدامه في الفصول السابقة).

يقول بارتلت: «إنه لمن اللائق أن نصف أية إستجابة معرفية بشرية - من إدراك وتصور وتفكير واستدلال - على أنها سعي وراء معنى».

وبارتلت يلفت النظر هنا إلى ميل العقل إلى أن يعيد تشكيل جميع التجارب تبعاً لفئات واضحة ذات مغزى.

وفي سعيهم وراء معنى، يعمد الأفراد إلى التكثيف أو إلى الحشو بحيث يحققون «جشطلتا» أفضل، «إغلاقاً» أفضل، صيغة أبسط وأكثر دلالة.

كذلك وجد بارتلت أن «الإثراء» (بمعنى الزيادة في العناصر) كان نادراً نسبياً، وعلى وجه الجملة فإن الناس «يهيكلون» ذكرياتهم أكثر مما يثرونها، ويصدق نفس الميل كما سنرى، على الإشاعات، فنادراً ما يصيبها الإثراء. والأغلب الأعم أن تكون صوراً مسرفة في التبسيط بالقياس إلى الحادثة الأصلية.

وثمة استثناء يحدث عندما تعاني ذكرى قسمة واحدة الإبراز الشديد مما يؤدي إلى إثراء هذه القسمة على حساب الأخريات اللائي يملن إلى التلاشي.

ولقد تبين، المرة تلو المرة أن تحوير المادة في الاستعادة إنما يتبع مجرى

الاهتمامات الشخصية للفرد، ذلك المجرى الذي يتحدد في إدراكه الأول. إنه يستخلص من القصة «الفكرة العامة» التي تتمشى مع نزعاته الخاصة، وكلما مضى الوقت أمعن في ملاءمة القصة من «تصورة القبلي».

الذكرى الفردية
في مقابل «الذكرى الاجتماعية»

إن مجرى الذكرى الفردية ومجرى «الذكرى الاجتماعية» يعدان متوازيين من أغلب الأوجه. فنفس نمط اللوي يوجد في الحالتين.

وليس في هذا ما يبعث على العجب حيث أن الذكرى الاجتماعية إنما هي مسألة عقول فردية متعاقبة تتناول نفس المادة الأساسية.

ومما يميز الذكريات الاجتماعية أنها عادة ما تصبح شديدة «المسايرة للعرف». فحيث أن العديد من الأفراد يدخل في العملية فإن المعنى الذي ينبثق يغلب عليه أن يكون «الشائع» في الجماعة المعنية فالخصائص الفردية للواحد عرضة لأن تنمحي بفعل الخصائص الفردية للشخص التالي، وهكذا تنحت القصة مستحيلة إلى لب متاح لفهم الجميع.

الفصل الخامس

(موجز)

المنهج التجريبي

يفضل علماء النفس، كغيرهم من رجال العلم، عند بحثهم لمشكلة أن يضطلعوا بذلك، ما أمكن، تحت شروط التجريب المضبوطة المقيدة، فإنهم يريدون الكشف عن التغيرات الأساسية التي تنتج حين تكون بعض العوامل المؤثرة المعروفة لديهم فعالة، وهم يريدون ما أمكن تبديل هذه العوامل بطريقة منهجية. كيما يكشفوا عن الأثر الذي يتمخض عنه كل عامل من هذه العوامل، ومدى إسهامه في الظاهر، موضوع البحث.

ولكن الكثير من الظواهر العقلية تمتنع على المنهج التجريبي. فكيف لنا مثلاً أن نضطلع بالتجريب المنهجي على ظواهر مألوفة من قبيل «الوقوع في الحب»، والخبرة الصوفية الحية، وهزة من يتلقى وصية لم يكن يتوقعها، أو الأسى النكد المنبعث عن الحماة؟

وما طبيعة الموقف بالنسبة إلى الإشاعة؟ إن التجريبي ليتمنى أن يزرع إشاعة وأن يقتفي كل حلقة من الحلقات في سلسلة انتقالها، مما يتيح له ليس فحسب أن يكشف عن صورة من الصور المتعاقبة المختلفة للأقصوصة، وإنما أيضاً أن يحلل حتى الثمالة أجهزة الإهتمامات والسياقات العقلية عند كل عميل من عملاء الإشاعة.

وعلى الرغم من سهولة الخطوة الأولى ـ ونعني زرع الإشاعات في التربة الاجتماعية المحيطة بنا، إلا أنه سرعان ما يستحيل علينا أن نتتبع السلسلة حلقة حلقة، وخير ما نستطيع أن نعمل هو أن نلتقط بعض الصور المتأخرة العشوائية للإشاعات التي أطلقناها وهي تسبح في طوفانها عائدة إلينا.

المنهج المعملي

يستمد المنهج المعملي في دراسة الإشاعة أصوله من الأبحاث التجريبية على الذاكرة والشهادة، تلك التي سبق أن عرضنا لها في الفصل السابق.

وتنحصر العملية الأساسية لهذه التجارب في وضع الشخص في مواجهة موقف مثير مقنن نستطيع أن نقارن بالنسبة إليه استعاداته اللاحقة. كما نسجل مجرى التحورات في إدلاءاته المتعاقبة، ويمكن تنويع هذه العملية الأساسية على أنحاء لا حصر لها، وينحصر أهم أشكال التنوع لتجارب الشهادة في أن نجعل الإدلاء ينتقل عبر أفراد منفصلين ما يعرف «بطريقة الاستعادة السلسلية»، وبهذه الطريقة نستطيع كشف العامل الاجتماعي في انتقال الإشاعة.

ونحن نسلم بأن عملية الضبط المعملي إنما تتم فحسب في حالة التبسيط المسرف. فنحن بإكراهنا الاستعادة السلسلية على وضع مصطنع إنما نضحي بالتلقائية والطبيعية لموقف الإشاعة، وبدلاً من الدوافع العميقة التي تدعم عادة انتشار الإشاعة. إننا نجد أن سير الإشاعة المعملية يعتمد على استعداد الشخص للتعاون مع المجرب.

وفي الموقف التجريبي لا تترجم العدائية، ومشاعر الخوف وإرضاء الذات إلا ضمن نطاق ضيق... كذلك لا يتوفر تأثير الصداقة الشخصية ما بين الراوي والسامع (وهي العلاقة المميزة في العادة لانتشار الإشاعة). وفي خارج المعمل يميل الراوي عادة إلى أن يضيف لوناً (شجن أو فكاهة أو إثارة) إلى قصته بما يلائم حاجة السامع. ففي المعمل يفرض الإطار على الإدلاء الحذر، والدقة المتعمدة. فالراوي إذ يشعر بأن «إتسامه بالدقة» يتهدده الضياع يبذل قصارى جهده كيما ينقل في إدلائه كل ما سمعته بالضبط.

وعندما يستخدم الطلبة في التجارب، فإن الجو المدرسي «بما ينطوي عليه من اهتمام بدقة الملاحظة، وصدق الإدلاء، إنما يميل بدرجة أعظم إلى أن يجعل الأقاصيص المتعاقبة أشد بعداً عن «اللون» وعن الطابع الشخصي بالقياس إلى ما تكون عليه الإشاعات الواقعية في العادة.

وهنالك فروق أخرى ما بين إشاعات الحياة الواقعية والإشاعات التي ندرسها في المعمل.

ففي الحياة العادية يستطيع السامع أن «يدردش» مع الراوي، بل وأن يستجوبه إذا شاء (وإن كان من النادر في الواقع أن يفعل ذلك) بينما يحرم السامع ـ في حالة التجارب ـ من هذه الفرصة المحتملة.

وفي المواقف الواقعية قد تنقضي فترة أيام أو أسابيع أو أشهر ما بين سماع الإشاعة وترديدها، بينما ـ في المعمل ـ يطلب الإدلاء بصورة مباشرة في العادة، هذا والمجرب كيما يضمن توحيد الظروف في التجربة عادة ما يعطي تعلمياته إلى السامعين بأن يكون الإدلاء «بأقصى دقة ممكنة».

أما في الإنتشار العادي للإشاعة فلا يقف بالمرصاد فاحص ناقد ليرى ما إن كانت القصة تتكرر في دقة، وأهم من هذا كله، أن الدوافع الشارطة إنما هي جد مختلفة.

ففي التجربة يناضل الشخص في سبيل الدقة، ومخاوفه الذاتية وكراهياته وآماله لاتستثار، إنه ليس بالعميل التلقائي للإشاعة الذي يكونه في الحياة العادية.

وينبغي أن نلاحظ أن جميع هذه الشروط الفارقة تقريباً من شأنها أن تعمل على الزيادة من دقة الإدلاء في الموقف التجريبي، وأن تتمخض قدراً جد ضئيل من اللوى والإسقاط بالقياس إلى إشاعات الحياة الواقعية، ومع ذلك فعلى الرغم من جميع هذه النقائص والقيود، فإن التجارب المعملية تنجح بدرجة كافية في إبراز جميع الظواهر الأساسية لانتشار الإشاعة. فإشاعات داخل البيت» (المعملية) قد لا تكون من الحيوية، ومن التلوين الإنفعالي، ومن التطرف بقدر فاعلية إشاعات «خارج البيت» (الحياة الواقعية)، ولكن هذه وتلك تنتسب إلى نفس النسيج السيكولوجي.

طريقة التقنين:

من بين فصل مدرسي، أو جمهور من المستمعين، ينتقى جماعة من

الأشخاص ـ ستة أو سبعة في العادة ـ (وعادة ما يكونون متطوعين) يطلب إليهم أن يتركوا القاعة، وهم في العادة أيضاً لا يعلمون أن التجربة تتعلق بإشاعة، وإن لم يكن هنالك من ضرر لو قام عندهم مثل هذا الظن، ذلك أن الدراسات تكشف عن أن حالات اللوى التي تحدث لا تتأثر إلا تأثرا ضئيلاً بمثل هذا الظن. (انظر كيركياتريك ١٩٣٢) نذكر لهم فحسب بأن عليهم أن يصغوا جيداً إلى ما يسمعون عندما يعودون إلى القاعة وأن يكرروا ما سمعوه بأقصى دقة ممكنة، وبعدما يغادر الأشخاص القاعة، تعرض على الشاشة صورة لمنظر يشتمل على كثير من التفاصيل ويتم اختيار واحد من الحضور يكلف بمهمة وصف المنظر (وهو متطلع إليه على الشاشة) وذلك للشخص الأول من المنتفعين، ويطلب إليه أن يضمن وصفه عشرين عنصراً على وجه التقريب، وبعد الوصف الأول للصورة يستدعى إلى القاعة واحد من أفراد الجماعة المنتقاة، ويوضع في مكان لا يستطيع منه أن يرى المنظر على الشاشة، وإن كان جميع الأشخاص الآخرين في القاعة يرون المنظر، (إذا لم يكن هنالك ساتر معماري بجوار الباب الذي يدخل منه الشخص بحيث يحجب منظر الشاشة، فينبغي وضع ساتر متحرك في مكان مناسب قبل بدء التجربة).

يستمع الشخص الأول إلى وصف شاهد العيان، ذلك الوصف الذي يقدمه العضو الذي تم اختياره من بين الحضور، أو يقدمه المجرب.

ثم نحضر إلى القاعة الشخص الثاني، فيأخذ مكانه بجوار الشخص الأول، بحيث يبقيان عاجزين عن رؤية الشاشة، وعندئذ يبدأ الشخص الأول فيسرد بأقصى دقة ممكنة ما سمعه في وصف المنظر (الذي ما يزال مرئياً من الحاضرين) ثم يأخذ الشخص الأول مكاناً يستطيع منه أن يتابع سير التجربة.

ثم يحضر الشخص الثالث ليأخذ مكانه بجوار الشخص الثاني فيستمع إلى إدلائه. وتمضي العملية بنفس الطريقة حتى يكرر الشخص الأخير الوصف الذي سمعه وحتى يأخذ مكانه (وعادة ما يتم ذلك وسط ضحكات الحاضرين) ليقارن ما بين الصيغة التي قدمها والمنظر الأصلي.

ونحن نقدم عن أحد هذه الأشكال مجموعة من الأداءات الختامية تمثل تسجيلاً دقيقاً لإدلاءات الأشخاص الأواخر عما تشتمل عليه الصورة في تجارب مختلفة، وبمقارنة هذه الإدلاءات الختامية بالصورة الأصلية نتبين إلى أي حد يمكن أن يصل اللوى ونسيان التفاصيل، وذلك حتى في المسار القصير لستة أو سبعة انتقالات لكلمات منطوقة.

الأشخاص:

في هذه التجارب التي تتجاوز الثلاثين والتي نقدم نتائجها في الفصول التالية نلاحظ أن الطريقة التي وصفناها قد استخدمت مع تشكيلة واسعة من الجماعات.

أثر جمهور النظارة:

تجدر ملاحظة أن معظم التجارب قد اجريت في حضور جمع من النظارة كبير نسبياً (ما بين ٣٠ و ٣٠٠)، وعليه فقد كانت إدلاءات الأشخاص تتم في حضور زملاء الفصل أو زملاء التدريب ممن يشاطرون الأشخاص إهتمامات اجتماعية أو اقتصادية أو مهنية معينة لم تكن هناك دلائل تدل على «رهبة المسرح»، وربما كان ذلك بسبب تجانس الجماعات، وبسبب ما أدى إليه الاعتماد على المتطوعين من استبعاد للأشخاص المتسمين بالحياء المسرف. ومع ذلك فمن الواضح أنه كان هناك تأثير اجتماعي معين يعمل عمله. فلقد كانت البروتوكولات النهائية في حضور جمهور النظارة أميل إلى القصر وأقل دقة في جملتها بالقياس إلى البروتوكولات التي يدلي بها الأشخاص إلى المجرب وحده.

ولقد كشفت دراسات التأثير الاجتماعي عن أن الأشخاص في العادة يزداد حذرهم وتحفظهم كلما استشعروا أنفسهم تحت الملاحظة. (انظر راشيل ١٩٣٥).

وفي الحق أن ناشري الإشاعة في الحياة اليومية نادراً ما يروون حكاياتهم أمام جمهور يقيم أقوالهم. ولكن حتى لو سلمنا بأننا يمكن أن نتوقع زيادة طفيفة في الدقة عند تواجد جمهور، فإن طبيعة ومجرى اللوى في الإشاعة ـ وهما مركز اهتمامنا الحالي ـ لا يختلفان مع ذلك في الحالين أي اختلاف يستحق الذكر.

الفصـل السـادس

(مـوجـز)

التـسوية والإبـراز

كلما مضت الإشاعة في رحلتها مالت إلى أن تصبح أكثر قصراً، وأكثر إحكاماً، وأكثر سهولة في فهمها وروايتها. فكلما تلاحقت صور الإشاعة قل عدد الألفاظ وقل عدد التفاصيل.

والإدلاءات الختامية (وهي تمثل الإدلاء السادس أو السابع) التي أوردناها إنما تكشف في كل حالة كيف أن الأوصاف الأولى، والمشتملة على عشرين عنصراً أو يزيد، تتقلص، في إيجاز مذهل، إلى نحو خمسة عناصر في المتوسط.

وتنحدر التفاصيل بأقصى شدة في بداية سلسلة الاستعدادات ثم يضطرد تناقص العدد ولكن ببطء حتى نهاية التجربة.

وهذا المنحنى، المستمد من إحدى عشرة تجربة يكشف عن أن ٧٠٪ من التفاصيل تسقط خلال خمسة أو ستة انتقالات من فم إلى فم، حتى وإن لم تكن هنالك في الواقع فترة زمنية فاصلة. فمعدل السقوط يتبع اتجاها هبوطياً مطرداً، وإن كان أكبر معدل لسقوط التفاصيل يتم في الاستعدادات الأولى.

والسرعة في معدل السقوط في معدل التسوية، لا بد وأن ترجع في الأغلب إلى أن القائمين بالإدلاء في تعاقبهم، إذا لم يروا المثير الأصلي، فليس لديهم منه أي أثر ضابط ليؤخر سرعة السقوط، وليس لديهم أي متسع من الوقت. للتسميع العقلي، مما كان يمكن أن يعينهم على أن يقدموا للسامع التالي وصفاً أكثر اكتمالاً.

وسرعة التسوية ترجع أيضاً في جانب منها لما ذكرناه تحت اسم الأثر الاجتماعي لجمهور النظارة الداخل ضمن خطتنا التجريبية. فالقائم بالإدلاء إذ يشعر أنه أمام جماعة من السامعين الناقدين الذين ينظرون إلى الصورة الأصلية

الماثلة طوال الوقت أمامهم «إنما يجد نفسه تحت المحاكمة في قضية الدقة» فيحاول أن يتجنب الأخطاء باستبعاد العناصر التي لا يثق فيها تمام الثقة.

حدود التسوية:

إن التسوية لا تبلغ قط حد الإزالة التامة. فإن ثبات الجزء الأخير من المنحنى لهو كشف له نتائجه فهو يدل على:

١ ـ أن العبارة القصيرة المحكمة إنما يغلب أن تستعاد استعادة أمينة.

٢ ـ أن الإدلاء عندما يصبح مقتضباً فلا يكون أمام الشخص إلا القليل جداً من التفاصيل التي ينتقي من بينها، ومن ثم تقل الفرص المتاحة أمام إمكانية اللوى.

٣ ـ أن المهمة تصبح من السهولة بحيث تقتدر الذاكرة الحرفية (الصماء) على الاحتفاظ بالمادة في الذهن. وفي جميع الحالات يكون الإدلاءان الأخير وما قبيل الأخير، أكثر شبهاً فيما بينهما من أي إدلائين آخيرين.

ومع ذلك فهناك حالتان خاصتان تلعب فيهما الحرفية هي الأخرى دورها في الإنتشار العادي للإشاعة. فإذا لم يكن للشخص من دافع أقوى من مجرد الرغبة في الحديث، فقد يجد نفسه يكرر في خمول ما سمعه منذ وقت قريب على الصورة التي سمعها. وكذلك في حالة ما تصبح الإشاعة من الإنكماش والاقتضاب و «مشابهة الشعارات» بحيث لا تتطلب جهداً في حفظها بالصورة الحرفية التي سمعت بها، فعندها تبدو الذاكرة الحرفية فعالة. ومثال ذلك:

اليهود يهربون من الخدمة.

اللجنة الصناعية بالكونجرس في أيدي الشيوعيين.

ولقد تنبه كتاب الإعلان إلى أهمية «الحرفية». فهم يجاهدون كيما تكون شعاراتهم مقتضبة محكمة وإيقاعية ليسهل تذكرها:

اللكي سترايكس، تعني صفوة التبغ.

دخّن التشستر فيلدز، ففيها الرضى.

وهكذا إلى الغثيان......

وكذلك فإن الكثير من الأساطير والخرافات قد لقي الاقتضاب مما بلغ صورة الحكم والأمثال إلى حد أنه يكاد يستحيل نسيانها:

للبرد التشبيع وللحمى التجويع.

في كل يوم تفاحة والطبيب لن يدخل لك ساحة.

لاقتصادك في العصا فالطفل عصى.

والتسوية لا تعني الحذف العشوائي للتفاصيل. فبعض التفصيلات تبدو أكثر تعرضاً للحذف من غيرها ومن بين العناصر التي تتعرض بصفة خاصة للتسوية يذكر بارتلت Bartlett أسماء الأعلام والألقاب فأسماء الأعلام (إن لم تكن جد معروفة) ليس لها من الدلالة أو الأهمية إلا القليل في نظر الشخص. إنها لا تعينه في «اقتفاء المعنى» ومن ثم فهي تحذف.

وتتفق نتائجنا مع نتائج بارتلت من حيث أنها تكشف عن أن أسماء الأعلام تعد من أكثر عناصر الأقصوصة بعداً عن الثبات، ومن ثم تتعرض بصفة خاصة للتسوية، وفي جميع تجاربنا بالفعل فإن أسماء الأماكن والأشخاص تعرضت للسقوط أو للوي إلى درجة يستحيل معها التعرف عليها.

وعلى الرغم من أن التسوية السريعة التامة للأسماء تعد قاعدة عامة فهنالك استثناءات. فإذا كانت اهتمامات الأشخاص أو تدريباتهم تهيئوهم لأن يهتموا اهتماماً خاصاً بأسماء الأعلام فإن هذه الأسماء قد تحفظ عبر سلسلة بأكملها من الاستعدادات.

الإبراز:

يمكن تعريف الإبراز على أنه إدراك انتقائي، وحفظ انتقائي، وإدلاء إنتقائي لعدد محدود من التفاصيل من بين سياق أكبر، إنه الوجه المقابل للتسوية. فلا يمكن لأحدى العمليتين أن توجد بغير الأخرى. وإنه وإن كان الإبراز يحدث في كل بروتوكول إلا أن نفس العناصر لا تحظى دائماً بالتوكيد. فما يتم إبرازه في

بروتوكول قد تتم تسويته في بروتوكول آخر.

ويوجد أيضاً إبراز «الأقلمة الزمنية» ضمن إطار الحاضر، ويتضح في الميل إلى وصف الأحداث على أنها تحدث ضمن إطار الحاضر.

فإن ما يحدث «هنا والآن» لينطوي على جاذبية وأهمية رئيسية بالنسبة إلى القائم بالإدراك.

ففي الحالات القليلة التي يلبس فيها الوصف المبدئي ثوب الماضي، لا يلبث أن يحدث قلب مباشر إذ يقوم المستمع «بأقلمة زمنية» للمنظر في إطار الحاضر، ومن الواضح أن مثل هذا الأثر يمكن أن يحدث في حالة الإشاعات التي تنصب خاصة على بعض الأحداث المنتسبة للماضي. فليس من الممكن إحداث أقلمة زمنية للإشاعة فنقول: «إن الملكة ماري أبحرت هذا الصباح في سفينة تحمل ۰۰۰ و ۱۰ جندي».

ومع هذا فالكثير من الأقاصيص تكتسب إبرازاً عن طريق ربطها بالظروف الحاضرة، وعلى سبيل المثال عبارة من قبيل أن المسترس قد أشترى دجاجة من السوق السوداء بسعر الرطل ۱,٥۰ دولار يمكن أن تصبح (وعادة ما تصبح)، سمعت أنهم اليوم يطلبون ۱,٥۰ دولار لرطل الدجاج في السوق السوداء.

فالناس أكثر اهتماماً بما يجري «اليوم» منهم بما جرى في «الأسبوع الماضي»، ومن هنا تكون الغواية التي يستشعرها الشخص في أن يكيف زمن الحدوث ما أمكن ليجعله في الحاضر، وكما سنرى في الفصل التاسع فإن بعض الأساطير الهرمة والتي كانت متداولة في الحرب العالمية الأولى قد نفض عنها التراب فبعثت فيما بين ۱۹٤۱ و ۱۹٤٥ وتم تكييفها لتساير الحرب العالمية الثانية.

وإن الميل إلى إبراز الحركة حين توجد، أو نسبتها إلى أشياء ثابتة لهو حالة من حالات قانون جد معروف من قوانين الانتباه. فالحركة في المجال البصري (وخاصة عندما تكون غالبية الأشياء في حالة سكون) تكاد تستأثر دائماً أبداً بانتباهنا. وهنالك سبب بيولوجي هام يفسر العلة في ذلك. فالأشياء المتحركة يحتمل أن تتمخض عما يضر أو يسر، أو عن فرصة أخرى متاحة لنا.

إنها تلزمنا بأن نرقبها. وبمقتضى هذا القانون عن الإنتباه الاول فإن الأشياء التي توصف ـ في تجاربنا ـ بالحركة تستولي على انتباه السامع وتميل إلى أن تحظى بحفظه وإدلائه.

و «الحجم» يعمل على الإبراز. فالحجم كالحركة هو عامل من العوامل الأساسية المحدودة للإدراك. فالقائم الأول بالإدلاء يوجه الانتباه إلى بروز العناصر الكبيرة الحجم ومن ثم يتلقى كل مستمع من المستمعين المتعاقبين نفس هذا الإنطباع بما ينطوي عليه من إلحاح. وحيث أنه يتحتم على كل مستمع أن يعول فحسب على الإدلاء الذي سمعه دون أن يستطيع التثبت بالرجوع إلى الصورة الأصلية. فمن المحتمل أن يغالي في خياله مغالاة كبيرة في البروز النسبي للشيء.

وهنالك محددات لفظية وأيضاً محددات فيزيائية للإنتباه. ومن ثم فهنالك اتجاه واضح للاستمرار في الإدلاء عن اللافتات «ففي تجاربنا عادة ما تكون اللافتة تخصيصاً للمكان وللموضوع الرئيسي ـ لوضعية المرسح».

ففي وقت إجراء التجربة كانت حوادث الشغب في ديترويت تُسلط عليها الأضواء ويدور حولها النقاش ومن ثم فقد اعتبر الأشخاص من المسلم به أن صورة الحادث قد أخذت من تلك المدينة. وعن طريق إبراز المنظر بأقلمته الزمنية ضمن الإطار الحاضر يتضاءل غموض الموقف بالنسبة إلى الشخص، إذ يحصل على أرض وطيدة يستند إليها في سعيه وراء معنى.

والإبراز يحدث أيضاً فيما يتصل «بالرموز المألوفة». مثلاً نجد أن الكنيسة والصليب هما من أكثر العناصر تواتراً في الإدلاء فهذه الرموز المألوفة في الثقافة الأمريكية تعني الكثير ويعرفها الجميع. فالشخص يستشعر الأمان من الزلل في إدلائه بها، وذلك لأنها جد مألوفة ومثل هذه الرموز تضطلع أيضاً وفي يسر بدور في عملية «مسايرة العرف وهي جانب عظيم الأهمية في تطور الإشاعة».

والإغلاق «صورة» من صور الإبراز. وهو يشير إلى ما عند الشخص من

دافع إلى أن يجعل تجاربه من الإكتمال والتماسك والدلالة إلى أقصى حد ممكن. وتنطوي اللافتات على أخطاء وانتقاصات كثيرة متعمدة مما يختفي أثناء التجربة بفضل الإغلاق. فكلمة Bow (باو) مثلاً يتم الإدلاء بها - إن تم ذلك على الإطلاق - على أنها Bowlcng (باولنج). واسم Gone Autry (جين أوتري) على لافتة صالة السينما يتحول دائماً الإدلاء إلى Gene Autry (جين أوترى). وكلمتا Lucky Rakes (لكي ريكس) تصبحان عادة Lucky Strikes (لكي سترايكس)، وهذه الإغلاقات عادة ما تتم في الإدلاء الأول (ونعني في الوصف من الشاشة)، وهي تؤكد ما يعرفه جميع القائمين بتصحيح البروفات من صعوبة الكشف عن الأخطاء من جانب الشخص المعتاد على الصورة الهجائية الصحيحة الكاملة.

وصورة أخرى ممكنة من صور الإغلاق هي إدخال التفسيرات والتبريرات. وهذه الصورة هي أقل وضوحاً في تجاربنا مما هي عليه في إشاعات الحياة اليومية. فالإبراز عن طريق (إسباغ معنى) كان من السمات الجد مميزة لإشاعات الحرب. حيث تم - بصورة منتظمة - تفسير حالات النقص في السلع، والإعاقات، وفترات البلبلة والقلق عن طريق «الأقاصيص المروعة» عن الخسائر أو عن طريق إلقاء اللوم على الخوذات النحاسية «واليهود» و «إدارة التسعيرة» أو غير ذلك: وإن عدداً كبيراً من إشاعات الحياة اليومية لا يعدو أن يكون تفسيرات وتبريرات زائفة لما نستشعره أو نعانيه في ذواتنا.

الفصل السابع

(موجز)

نتائج التجارب الإساغة

عادة ما نميز في أحاديثنا الجارية تمييزاً قاطعاً ما بين «التفكير المنطقي» و «التفكير الإنفعالي». فنحن نقول أن هذا الكاتب أو الفنان أو الملحن «يعتمد على العقل» فهو «منطقي» أو «دماغي». بينما ذلك الآخر «يعتمد على الانفعالات» فهو «حدسي» أو «رومانتيكي». ونحن بنفس الطريقة نعنون أحياناً عملياتنا إما «منطقية» أو «لا منطقية»، وأحياناً أخرى إما «معرفية» أو «وجدانية». وفي حالات عارضة نستخدم كلمة «نزوعي» بمعنى «نضالي» أو «إرادي» في مقابل «المعرفي».

ومثل هذه التعارضات القاطعة، وإن استخدمها علماء النفس أنفسهم إنما هي في الواقع غير دقيقة. فما من نشاط عقلي يمكن أن يكون «معرفياً» خالصاً، بمعنى أن يكون خالياً لحظتئذٍ من كل ما هو دوافعي أو انفعالي، فالذاكرة عادة ما ينظر إليها على أنها وظيفة «معرفية»، ومع ذلك فإننا مستحيل علينا أن نفهم التذكر ما لم يكن لدى الشخص «دافع» لأن يتذكر. وقد يكون هذا الدافع قوياً من قبيل الكراهية السياسية أو الإجناسية وقد يكون هيناً من قبيل الرغبة في إرضاء المجرب بتنفيذ تعليماته. ففي كل حالة تمتزج وتنصهر العمليات المعرفية (التي تشتمل على الجوانب الفكرية من الإشاعة) بالعمليات الدافعية (وهي التي تؤلف جانب الإهتمام في الإشاعة).

ويتضح التداخل الدفين ما بين العمليات المعرفية والعمليات الانفعالية في هذه التغيرات التي نعانيها في تجاربنا [المادة المثيرة] خلال انتقالها. وعندما نتساءل عن هذا الذي يؤدي إلى محو بعض التفاصيل وإلى إبراز بعضها الآخر، وعن هذا الذي يفسر تبدلات الأوضاع والإضافات وغير ذلك من أشكال

التزييف التي تطبع مجرى الإشاعة، فإن الجواب يكمن في «عملية الإساغة»، والتي تصدر عن الإطار الفكري والانفعالي القائم في عقل المستمع.

وعلى الرغم من أنه لا يحق لنا أن نقيم تعارضاً قاطعاً ما بين الأوجه الفكرية والأوجه الانفعالية في التغير الناتج عن الإساغة، إلا أننا، لصالح التحليل، سوف نتحدث من ناحية عن الميول «الإساغية» التي هي نسبياً «لا انفعالية» ومن ناحية أخرى عن الميول الإساغية التي هي نسبياً «أكثر انفعالية» في طابعها. ولكن ينبغي علينا طوال الوقت أن نعي تماماً هذه الحقيقة وهي أن الإساغة المعرفية والإساغة الانفعالية يمتزجان في الواقع بلا تمايز.

الإساغة (الانفعالية) نسبياً

لقد كان علماء النفس من أتباع نظرية الجشطلت أول من اكتشف هذا النمط من «الانضباط الذاتي» الدينامي للتغير، وذلك فيما يسمونه آثار التذكر. تذهب نظرية الجشطلت إلى أنه ما إن يتم الإدراك حتى تنشأ ضغوط تتمخض «إعادة انتظام الذكرى».

فالإدراك منذ البداية انتقائي يميل إلى تبسيط العالم من حولنا والذاكرة تواصل هذه العملية وتسرع بها. فالذاكرة بالنظر إلى أنها لا تتقيد بتواجد مثير، تعجل بصياغة «الجشطلتات الحسنة». فالتغير هنا يسير في اتجاه البساطة والتناظر والتناسق الحسن.

فالعقل ذاتي النشاط فهو يجاهد ليجعل محتواه في صيغة من الإتزان قدر الإمكان. ولهذا تنطلق عمليات من شأنها أن تتمخض في الذاكرة عن صيغ (جشطلتات) أفضل من هذه التي كان ينطوي عليها المثير نفسه.

الإساغة بالنسبة إلى الموضوع الرئيسي: إن العناصر ـ كما بينا عند الحديث عن الإدراك والتذكر والإدلاء ـ تتعرض للإبراز أو التسوية تبعاً لمقتضيات الدافع المهيمن في القصة. وكذلك تتعرض العناصر للوى بحيث تجعل القصة أكثر تماسكاً، ومعقولية، و «استدارة» وعلى سبيل المثال نجد أن

موضوع الحرب يحظى بالإستمرار والتوكيد في جميع الإدلاءات، ويتحول إلى بؤرة تجتذب «إضافات» معينة. ومن هنا ينضاف في أحد الإدلاءات كاهن خيالي إلى الصورة، ويصور إدلاء آخر عدداً من الناس على أنهم قتلى، وتتحول عربة الإسعاف إلى نقطة للصليب الأحمر، وفضلاً عن الإضافات، هنالك صور أخرى من التزييف تعمل في خدمة الموضوع الرئيسي.

«الاسترسال الحسن»: أوضحنا في الفصل السابق كيف أن الميل إلى تحقيق الإغلاق يتمخض عن الإبراز. فالشخص يميل إلى إكمال ما ليس بكامل في مجال المثير، سواء أكان المثير صورة أصلية أم إدلاء مسموعاً فكل ذلك يعد أمثلة على «الإسترسال الحسن» بلغة الجشطلتات. إنه يوضح ليس فحسب عملية الإبراز وإنما عملية الإساغة أيضاً وذلك من حيث أنه يستغل بوضوح المعارف السابقة لإقامة صيغة عقلية أكثر تماسكاً وانسجاماً.

«الإساغة بالتكثيف»: يبدو أحياناً وكأن الذاكرة تجاهد، كيما تحمل من العبء أقله. فبدلا من أن تتذكر عناصر منفصلة، فقد يكون من الإقتصاد أن تصهرها جميعاً ضمن فئة عامة واحدة. وبدلاً من مجموعة من لوحات الإعلان في الطريق التحت ـ أرض، تستقل كل منها بفرديتها، فإن الإدلاءات تقتصر أحياناً على الإشارة إلى «لوحة إعلانات» أو ربما إلى «جملة إعلانات».

وكنتيجة لهذا الإتجاه فإن ما هو متشابه ومشترك بين عدة عناصر يحظى بالتوكيد، بينما تضيع الفروق والخصائص الفردية للعناصر. والإساغة بالتكثيف تعيننا على فهم عملية «التنميط الجامد»، التي تنتج من تبسيط مسرف بدافع من الرغبة في اقتصاد الجهد العقلي. فالإشاعة لا تذهب إلى حد التمايزات الدقيقة.

الإساغة بالنسبة إلى التوقع: بالإضافة إلى التغييرات التي تعين على تدعيم الموضوع الرئيسي، فإن كثيراً من العناصر تتخذ صيغة من شأنها أن تدعم العادات الفكرية المألوفة عند العميل: فالأشياء يتم إدراكها وتذكرها على نحو ما تكون عليه «في العادة». فعربة إسعاف الصليب الأخيرة تحمل مواد طبية بدلاً من المتفجرات «ويعد هذا مثلاً على الإساغة بالنسبة إلى التوقع، وفي نفس

الوقت يعد مثلاً على الإساغة بالنسبة إلى الموضوع الرئيسي. والكيلومترات على شارات الطريق تتحول دائماً إلى أميال لتساير الوحدات الأمريكية المألوفة في قياس الأطوال.

وباختصار فعندما تكون واقعة إدراكية فعلية في صراع مع التوقع، فمن المحتمل أن يتكشف التوقع عن كونه ـ كعامل محدد للإدراك وللتذكر ـ أكثر فاعلية من الموقف ذاته.

الإساغة بالنسبة إلى العادات اللغوية: غالباً ما يكون التوقع مجرد ملاءمة لمادة الإدراك والتذكر لتساير «الكليشيهات» اللفظية القائمة من قبل.

ولقد سبق أن أشرنا إلى حالة من اللوى الغريب ترجع بوضوح إلى العادات اللغوية، وقد وقعت في التجارب الخاصة فالساعة فوق برج الكنيسة تعاني الإزاحة إلى «زخامة مدفئة».

والتأثير القوي الذي تنطوي عليه الكلمات ففي إثارة الصورة عند السامع، وفي تحديد الأطراف ينبغي أن يتصور ضمنها الحادثة، هذا التأثير إذا هو بلا شك خطوة كبرى في عملية صياغة الإشاعة «لمسايرة العرف»، فكثير من الإشاعات يتم تناقلها دائماً تقريباً في أنماط لفظية جامدة لا غير.

الإساغة الأكثر حظاً من الانفعالية الدوافعية: إن الظروف التي أجريت فيها تجاربنا، لم تفسح مجالاً طليقاً للميول الإنفعالية التي تنطوي عليها في العادة المنقولات والإشاعات والفضائح بيد أن هذه الميول عميقة الجذور في الطبيعة البشرية، وأحياناً ما تعبر عن نفسها حتى في الظروف المعملية.

الإساغة بالنسبة إلى الاهتمام بالملابس (عند النساء): حصل المؤلف بالنسبة إلى بروتوكول من جماعة من طالبات الكليات وفيه يتجلى الإهتمام متصلاً عنيداً خلال السلسلة كلها بالأوكازيونات والملابس، بينما لم يرد في ذكر الملابس بهذه الصورة البارزة في أي من إجابات جماعات الذكور.

الإساغة بالنسبة إلى الاهتمام المهني: إن الأشخاص العسكريين الذين أجرينا عليهم تجاربنا يمكن أن يقدموا لنا أيضاً مثالاً. ففي الإدلاءات عن كشف

هذه الجماعات عن إهتمام خاص بتعيين الساعة للوقت من النهار ولقراءة إشارة الطريق المحددة للمسافات والاتجاهات فالتدريب المهني قد جعلهم أكثر تنبهاً لهذين الأمرين.

الإساغة بالنسبة إلى «الاهتمام بالذات»: تنتشر غالبية الإشاعات لأن الناس يسعون إلى صورة من صور الإهتمام بالذات.

الإساغة بالنسبة إلى الحكم القبلي: مهما تكن - في موقف التجربة - صعوبة الحصول على أمثلة للوى الناتج من العدائية، فإننا مع ذلك نجد في المادة التي بين أيدينا مجالاً لاقتفاء آثار الهيئة العدائية للإتجاهات الاجتماعية. ولقد تكشف بعض الرسومات عن خصوبة خاصة من هذه الزاوية.

ففي أكثر من نصف الإدلاءات الخاصة بهذه الصورة وجد في مرحلة من مراحل سلسلة الإدلاءات، أن الزنجي (بدلاً من الرجل الأبيض) ينعت بأنه يحمل موسى الحلاقة في يده. وفي عدد من الحالات تم ارتحال الموسى من الرجل الأبيض إلى الزنجي في مرحلة باكرة من سلسلة الإستدعاءات.

ولا نستطيع أن نجزم ما إن كان هذا اللوى المشؤوم يعبر عن العدائية أو الخوف بإزاء الزنوج، ففي بعض الحالات يمكن أن تكون هذه الإنفعالات العميقة هي قوى الإساغة الفعالة، وإن كان التزييف يمكن أيضاً أن يتم من جانب أشخاص ليست لديهم عدائية صريحة ضد الزنوج فهنالك إستعداد كبير لدى الناس لأن يتقبلوا من غير تمحيص النمط الثقافي الجامد والشائع عن الزنجي بوصفه حار المزاج باستخدام الأمواس كأسلحة بحيث أن الإدلاء يمكن أن لا يعني شيئاً أكثر من إساغة بالنسبة إلى «الكليشيهات اللفظية» و «التوقع المساير للعرف».

ومن هنا فاللوى في هذه الحالة لا يعني «بالضرورة» الإساغة بالنسبة إلى الكراهية. والكثير مما يعد حكماً قبلياً إن هو إلا مجرد مجاراة للأساليب الشعبية الشائعة.

وفيما يتصل بهذا الشكل نفسه كانت إدلاءات الأشخاص في الزنوج تنم

أحياناً عن نمط من اللوى عميق الدوافع. لقد كان دافعهم هو الرغبة (بالنظر إلى مصلحتهم كأعضاء في الجنس الزنجي) في التهوين من حدة الصورة الزنجية (راجع الكتاب، بروتوكول ك).

وثمة شخص زنجي قد أستبعد في نقله للوصف الخاص بشكل الحقيقة الخاصة بأن الشخص المركزي في الصورة، والذي يوشك أن يلقي بقنبلة يدوية، هو زنجي ولعله قد استشعر بأنه لو ضمن وصفه إشارة إلى الزنوج (حتى ولو لم ينطو على التحقير) فإنه بذلك يشجع الأحكام القبلية والأنماط الجامدة.

وهكذا، فحتى في الظروف المعملية نجد إساغة بالنسبة إلى الحاجات الإنفعالية العميقة، والإشاعة إنما تميل إلى أن تتلاءم مع، وإلى أن تدعم، هذه الاهتمامات المهنية، أو العضوية الطبقية أو الأجناسية، أو الأحكام القبلية، عند الشخص القائم بالإدلاء.

حقا، إن حالات اللوى الانفعالي التي نصادفها في تجاربنا هي أقل وأقل جداً مما هي عليه في إشاعات الحياة اليومية، ومع ذلك فالميكانيزمات هي نفسها لا تتغير وعلى الرغم من الظروف المعملية المقيدة، فلعلنا قد نجحنا في توجيه الإنتباه إلى جميع الأشكال الأساسية التي ترتبط بالإساغة.

الفصل الثامن

(موجز)

نتائج التجارب

خاتمة

تبدأ غالبية الإشاعات كرواية لحدث واقعي - ومعنى هذا أنها تبدأ من تجربة إدراكية عاشها شخص لحدث يراه من الأهمية والجاذبية بحيث يستحق أن ينقل إلى الآخرين. وعادة ما يستمر محور الإشاعة «موضوعها الرئيسي» حتى النهاية. فأقصوصة معادية لليهود تظل معادية لليهود، وقصة الرعب تظل قصة رعب. ولقد تبين هارتجنبوش (١٩٣٣) Hartegen busch ما يتسم به الموضوع الرئيسي من مقاومة للتغير، وذلك في تجاربه التي تم فيها إستعادة متسلسلة لجمل ولقصص قصيرة على السواء من جانب أشخاص من أعمار مختلفة وثقافات متنوعة. وكيفما كانت طبيعة المادة، وكائناً ما كان نوع الأشخاص، فإن الموضوع الرئيسي كان دائماً أبداً أقل العناصر تعرضا للتغير.

نقلة الموضوع:

بيد أن هنالك حالات تشذ عن هذه القاعدة. فدفعة واحدة أحياناً يمكن لبعض التفصيلات الهامشية أن تحظى بالإبراز على حساب الموضوع الرئيسي، عما يتمخض عنه ظهور موضوع جديد.

وفي البروتوكول الذي تكلمنا عنه نجد أن الإعلان الذي يدعو إلى انتخاب «ماكجينيز» وهو واحد من عدة ملصقات، يتعرض للإبراز بدرجة جد مسرفة. فالإدلاء الختامي مؤداه أن ثمة هياجاً في العربة وأناساً يصيحون أنتخبوا ماكجينيز عن «أولدرمان». أما الموضوع المركزي الأصلي - وهو الشجار ما بين عامل الدفاع والزنجي - فقد اختفى تماماً.

ولكن حتى في هذه الحالة، لا يستطيع أحد القول بأن الإدلاء هو برمته «نسيج من الأكاذيب». فإن نواة من واقع المنظر الأصلي ما تزال باقية: فالطريق التحت أرضي، والكاهن اليهودي، والمرأة، الإشارة إلى ماكجينيز، كلها تعبر عن مسائل واقعية.

الاختلاف والتطوير التشكيلي:

ثمة عدد قليل من الحالات نستطيع أن نتحدث فيها عن الإختلاف الصريح، وذلك حين يظهر أحد العناصر على نحو لا يمكن تفسيره على أنه مجرد لوى لعنصر من العناصر التي وردت في الاستعادة السابقة، وبتعبير آخر فإن الاختلافات تكاد تكون دائماً حالات من الإساغة فالتفصيلات الوهمية الملائمة للموضوع المركزي يمكن أن تصدر عن الراوي.

ففي البروتوكول الأخير، رأينا كيف أن أحد الرواة قد أضاف حشداً إنتخابياً صاخباً في القطار التحت أرضي «ليسبك» قصة ترشيح ماكجينيز.

وفي حالة تجاربنا التي أجريناها، لا نجد إلا أقل الشواهد على ما يسمى عادة «بالتطوير التشكيلي» فالقصص تمضي أقصر فأقصر، لا أطول فأطول ولقد وجد بارتلت أيضاً نفس هذا الميل إلى الإنكماش في تجاربه على الذاكرة عند الفرد، ولكنه يذهب إلى أننا يمكن أن نتوقع الازدهار والتطوير التشكيلي في الاستعادات السلسلية.

ولكننا لا نجد أن الأمر كذلك. فاستعاداتنا السلسلية تكشف عن حالات واضحة من الإبراز والتسوية على السواء، بل وتزيد على ما وجده بارتلت في تجاربه على الأفراد.

وكما أوضحنا من قبل، فإن جانباً من هذه الظاهرة يرجع إلى تواجد جمهور نظارة وإلى بعض التعليمات الخاصة بالتجربة (الاداء بأقصى ما يمكن من الدقة)، ومع هذا فإن دراسة إشاعات الحياة اليومية تكشف أيضاً عن أن الإشاعات تمضي في انتشارها إلى الاقتضاب المسرف بل وتتخذ صيغة الأقوال المأثورة.

وليس من شك في أن درجة الإقتضاب تتوقف إلى حد ما على طبيعة الإشاعة. فإشاعات الرعب تميل إلى أن تصبح شعارتية الطابع، وذلك لأن تعديد التفاصيل البشعة يدعم القصة، وعلى العكس من ذلك فإن إشاعات الكراهية من قبيل: «اليهود يفرون من الخدمة»، ربما تكون قد تضاءلت في هذه العبارة القصيرة الأخاذة بعدما بدأت بطريقة موقفية مرتبطة بإحصائيات زائفة أو «س» من الناس.

السعي وراء معنى:

كيما نفسر مجرى الإختلاقات، لا بد لنا أن نعود ثانية لفكرة «السعي وراء معنى». ففي الإشاعات المألوفة نجد عند ناقل الإشاعة ميلاً واضحاً إلى اختلاق «أسباب» تفسر الأحداث وإلى افتراض «دوافع» عند الأشخاص، وباختصار إلى توضيح «علة وجود» الحدث موضوع الإشاعة.

وفي تجاربنا كانت التعليمات تعمل بقوة على مناهضة مثل هذه التفسيرات التبريرية. ومن هنا فإن الكثير من البروتوكولات في تجاربنا تنحط إلى مستوى التعديد الصبياني المحض لعناصر غير مترابطة.

فالتعديد هو طريق الأمان. ولكن معظم الإدلاءات في تجاربنا تحتفظ مع ذلك بطابع الأقصوصة، وفي الإشاعات، فإن الاستنباطات المعقولة ما أن يستخرجها عميل من عملاء الإشاعة حتى تلقى من جانب المستمع تقبلاً في غير تفحص.

إساءات الفهم اللفظية:

وثمة مصدر للاختلاق والتزييف أقل شأناً، وإن كان مع ذلك على جانب من الأهمية، يرجى إلى إساءات الفهم اللفظية. فالشخص حين لا يرى الحادث الأصلي، وحين لا تكون لدية سابق معرفة عن طبيعته، فإنه يصبح معتمداً في فهمه اعتماداً كلياً على انطباعاته السمعية.

والجهاز السمعي غير محكم عند كثير من الناس. وحتى الذين يستمتعون بسمع حاد سوي غالباً ما يخطئون سماع، أو يخطئون في تأويل الألفاظ التي لا تستند عندهم إلى سياق عقلي.

أخطاء الوقت والمكان:

إن الكثير من الإشاعات يقدم أحداثاً «على أنها» وقعت في نقطة بعينها من المكان والزمان، ولكن تجاربنا تكشف عن أن العبارات «المحددة» للزمان والمكان وكذا أسماء الأعلام تعد من أكثر العناصر تعرضاً للوى سلسلة الإدلاءات.

وتقل الأخطاء في الموضع «الجغرافي» العام للمنظر وخاصة حين يتصدر الإدلاء، وذلك بفضل عاملين، ألا وهما حاجة الشخص إلى أن يتوجه في موقف يتسم بالغموض وتأثير الأولوية فيندر أن يتعرض الموضع العام للمنظر لأن يحذف أو لأن يلوى بصورة جسيمة.

أما الخصائص التفصيلية للمكان فعادة ما تكون قصيرة العمر وغالباً ما تتعرض لحالات جسيمة من البتر خلال النقل.

وأسماء الأشخاص كأسماء الأماكن تعد من العناصر البعيدة جداً عن الثبات، وخاصة عندما لا تكون مألوفة عند الراوي.

والتفصيلات النوعية الخاصة «بالزمان» شأنها شأن أسماء الأماكن وأسماء الأشخاص عادة ما تتعرض للاستبعاد أو اللوى.

إدلاءات الأطفال:

تختلف إدلاءات الأطفال من عدة زوايا اختلافاً واضحاً عن إدلاءات الكبار.

التسوية أكثر وضوحاً: إن الأطفال الأصغر سناً يحفظون عناصر أقل في إدلاءاتهم المتعاقبة بالقياس إلى الأطفال الأكبر سناً، وهم يحفظون عناصر أقل

بكثير بالقياس إلى الكبار.

الإدلاء تعديدي: يورد المؤلف تسجيلاً مأخوذاً من أطفال في السنة الخامسة ويكشف عما تتسم به الإدلاءات من طبيعة مفككة في هذه السن.

فهذه الإدلاءات خليط مفكك، ليس فيه ما يكشف عن أية محاولة للإدلاء بقصة متماسكة، والموقف في سنوات المدرسة الإعدادية يعد أفضل بدرجة طفيفة كما يتضح ذلك من البروتوكول.

ففي سن الثانية عشرة وليس قبل، يبدأ الأطفال عادة في نسج العناصر في قصة تأويلية وفي الظروف التي أجرينا فيها تجاربنا، وحيث ينصب الإهتمام على دقة الإدلاء فإن اتجاه التعديد يستمر حتى إلى مستويات أعلى من العمر (من ١٣ و ١٤).

العامل الأجناسي يقل اتضاحاً: إن المادة ـ المثير التي استخدمناها من هذه التجارب تتيح لنا فرصة طيبة لنتبين كيف يستجيب الأطفال للجوانب الأجناسية من المشاهد ونستطيع أن نقرر بلا تحفظ أن الأطفال يميلون إلى الإقلال من أهمية الجانب الأجناسي.

وفي حالة ما ترد العناصر الأجناسية في إدلاءات الأطفال، فإنها ترد كخاصية من بين الخصائص الكثيرة التي يعددونها، ولا تجد في أية حالة أية إساغة بالنسبة إلى التحقير.

وهذا البروتوكول هو نمطي بالنسبة إلى إدلاءات الأطفال ويوضح انعدام انفعالية الصغار في تناولهم للمسألة الأجناسية وسرعة اختفاء هذه المسألة.

الفصل التاسع

(موجز)

النمط الأساسي لتسوية الحقائق

في عرضنا التفصيلي للنتائج المعملية لانتشار الإشاعة، ترى هل شردنا بعيداً عن باقة متنوعات الإشاعات اليومية والتي هي موضوعنا الرئيسي؟ وكيما نتبين أن الأمر لم يكن كذلك، فلنأخذ عينة من الإشاعة، ونرى مدى ما ينطبق عليها من مفاهيمنا الأساسية في التحليل.

ونحن نختار هنا إشاعة تافهة، ونختارها تبعاً للصدفة من بين حصيلة الأقاصيص وقت الحرب، والتي انتشرت في منطقة ريفية من المين Maine في صيف ١٩٤٥، قبيل استسلام اليابان.

مدرس صيني، في عطلة إنفرادية، كان يقود سيارته في المنطقة، واستفسر عن الطريق إلى قمة تل يستطيع منها أن يشهد المنظر الممتع المرسوم في دليل للسياحة أصدرته الغرفة التجارية في مدينة مجاورة. ولقد تقدم أحد الأشخاص فدله على الطريق، ولكن لم تمضِ ساعة حتى كانت المنطقة كلها تظن بالأقصوصة القائلة بأن «جاسوساً يابانياً قد صعد إلى قمة التل ليصور المنطقة».

إن الوقائع البسيطة المجردة التي تكون نواة الحقيقة في هذه الإشاعة لم ترد قط في الإدلاء ولكنها تعرضت للوى منذ البداية، وذلك في إتجاهات ثلاثة أصبحت الآن مألوفة لدينا. فلقد تعرضت تلك الوقائع «للتسوية» و «الإبراز» و «الإساغة»، ولننظر في كل نمط من هذه التغيرات على الترتيب:

(١) التسوية:

لقد إستبعدت الإشاعة الكثير من التفصيلات التي تعد ضرورية للفهم الصحيح للحادث: كون جنسية الزائر مجهولة وإن كان بالتأكيد شرقياً، هذا إلى أن أحداً لم ير معه آلة تصوير.

وهذه الوقائع المستبعدة من الإشاعة لا يسهل إرجاعها إلى ضعف في ذاكرة الناس. فهي بالحرى «إستبعادات منهجية». فلقد سقطت هذه الوقائع لأنها لو ذكرت لعملت على نقض التأويل المفضل: «جاسوس ياباني».

ونحن لا ندري إلى أي حد استمر سقوط التفاصيل من القصة في إنتشارها من شخص إلى شخص. ومن المحتمل أن شاهد العيان لم يدرك جميع شواهد الموقف فتكون رؤيته لشخص «شرقي» قد بعثت فيه للتو تحزباته القديمة وتصوراته القبلية. فالإدراك والتذكر هما جانبان من عملية واحدة.

(٢) الإبراز:

الإبراز كما رأينا هو مناظر التسوية. وعملاء الإشاعة وقد تقبلوا تأويلهم الخاص للمدرس الصيني الزائر، فإنهم يبرزون بعض الملامح مقللين من شأن بعضها الآخر. فما كان في الموقف الأصلي «شرقياً» قد تخصص فأصبح «يابانياً» وما كان مجرد «رجل» قد تحدد فأصبح «جاسوساً».

و «تأمل المناظر» وهو الهواية البريئة للعطلات قد ناله الإبراز فاستحال إلى هدف مشؤوم هو «التجسس».

ولقد كان من المعلوم أن الحرب قد دخلت مراحلها الأخيرة، والتجسس، وخاصة في المناطق النائية لم يكن من الناحية الموضوعية أمراً محتملاً.

ولكن هكذا كانت الانفعالات والريب في وقت الحرب بحيث تمخض عنها الإبراز، مسبغاً الأهمية على الحادث، ومكثفاً إياه ومعطياً له دلالة، وجاعلاً منه نذير خطر. هنا شيء «يستحق الذكر»، يستحق الاحتراز، يستحق الاعتبار.

(٣) الإساغة:

إن التسوية والإبراز لا يتمان بالطبع تبعاً للصدفة، وإنما يتمان أساساً في مجاراة مع الخبرات الماضية والاتجاهات الحالية. ففي المنطقة الريفية من «المين» لم يكن للسكان من اتصالات سابقة تذكر مع الشرقيين. فهم كغيرهم من غالبية الغربيين لا يقدرون على التمييز ما بين شخص صيني وشخص ياباني. فليس لديهم غير عنوان واحد للشرقيين وطيد الرسوخ في أذهانهم بفعل أخبار وأقاصيص وقت الحرب، ألا وهو «الجاسوس الياباني».

ومن ثم فإن الموقف الجديد كان لا بد أن يعاني الإساغة بالنسبة إلى أقرب الأطر المرجعية للتناول.

ففي تلك المنطقة النائية، منطقة المين، كان السكان يستشعرون الحرب بعمق. فقد كان لكل عائلة تقريباً ابن في الحرب. وكانت الكراهية لليابانيين قوية، وكانت الرغبة في الدفاع عن أمريكا شديدة، وكان التوجس من الأجانب خاصية ثقافية مستقرة في تلك المنطقة.

وإنه بالنسبة إلى هذه الاتجاهات المتأصلة قد تمت إساغة الإدراك لهذا الحدث، ومن هذه الاتجاهات نفسها تولد الدافع لتلفيق هذه الإشاعة. فوقت الحرب قد أوجد الظروف التي أتاحت لهذه العوامل الديناميكية أن تعمل عملها.

لقد كان هذا الحادث ينطوي بالنسبة إلى الأهالي على «أهمية» ممكنة. كما كان الحادث ينطوي على قدر كبير من «الغموض»، إذ كان الأهالي تنقصهم المعلومات الصحيحة عن جنسية الزائر وهدفه.

وهذه العملية الثلاثية الجوانب، من التسوية والإبراز والإساغة، إنما تعكس السعي وراء معنى «عند عملاء الإشاعة» فوقائع الموقف، التي لم تفهم إلا بصورة غامضة، لا تتيح التفسير الذي تتطلبه زيارة الغريب، ومن ثم، زحفت فكرة وحيدة موجهة ـ فكرة الجاسوس ـ، وبما يساير ذلك تمت «تسوية» جميع التفاصيل المخالفة، كما تم «إبراز» الوقائع لتتلاءم مع الموضوع المختار، وتمت

«إساغة» الحدث ـ برمته ـ بالنسبة إلى بنية المشاعر والأفكار القائمة من قبل والمميزة لأعضاء الجماعة التي انتشرت فيها الإشاعة.

عمومية نمط التشويه الثلاثي الأوجه:

اضطلع فولف Wulf (١٩٢٢) منذ سنوات بدراسة التغيرات التي تطرأ مع الوقت على الذكريات الفردية. وتتألف المواد ـ المثير التي استخدمها فولف من رسوم بسيطة غير متناظرة.

قدمت هذه الرسوم، رسماً رسماً إلى الأشخاص الذين أجريت عليهم التجربة، وبعد ثلاثين ثانية تقريباً، طلب إلى الأشخاص استعادة الرسم بأقصى دقة مستطاعة. ثم طلب إلى الأشخاص استعادة الرسم مرة أخرى بعد يوم، ومرة أخرة بعد أسبوع، وأخيراً بعد فترة تتراوح ما بين أسبوعين وشهرين. ومن ثم فقد حصل فولف على قدر هائل من المعطيات لدراسة مصير الذكريات، والتغيرات التي تعتريها مع الوقت.

الرسوم ـ المثير والإستعدادات المتعاقبة ـ بحسب فولف. والجزء العلوي يوضح «التوكيد» أو «السن» (الإبراز) والجزء السفلي يوضح التسوية (بمعنى التحويل إلى العادي المألوف) normalizing أو التسوية (كمقابل للإبراز) leveling. وكلا هذين الضربين من التغييرات يوضح ميل الذكريات إلى تحقيق قانون الحمل أو الامتلاء Pragnanz (قانون أحسن صيغة).

فلو كانت النظرية القديمة على حق، ونعني النظرية الميكانيكية عن الذكرى (انطباع على الشمع)، لكان من المحتم مع الوقت، كما يقول فولف أن تسير الذكريات فقط إلى الانطماس. ولكنه قد اكتشف أن الرسوم تميل إلى أن تتخذ صيغة «أحسن» أو «أبسط» أو أكثر دلالة.

وهذه التغييرات تتبع نفس الطريق، بصرف النظر عن طول الفترة المنقضية ما بين الإثارة والاستعداد.

ولقد عبر فولف بالألمانية عن هذا بوصفه ميلاً لذكرى المحفوظة إلى

تحقيق «البراجنانز» بمعنى الحمل أو الإمتلاء (أي إلى تحقيق صيغة أكثر إكتمالاً وأكثر جوهرية).

لقد قام جيبسون (١٩١٩) فيما بعد بإعادة تجارب فولف في ملامحها الأساسية، وانتهى إلى توكيد الصميم من نتائجه.

ولقد أبرز جيبسون، في تفسير للنتائج، بأكثر مما فعل فولف، الدور الحاسم الذي تلعبه «الإساغة الترابطية». فالرسوم تميل ليس فحسب إلى أن تحقق التناظر والإسترسال الحسن كما قال فولف، ولكنها تميل، بل وبصورة أكثر إستلفاتاً إلى مشابهة الأشياء المألوفة، وإلى أن تتأثر بعملية التسمية.

وفي تجربة مماثلة أجرى أولبورت (١٩٣٠) التجربة على ٣٥٠ من أطفال المدارس، وقدم إليهم رسمين كانا في مظهرهما أكثر «انغلاقاً» وأكثر إتساماً بالطابع الهندسي.

ونورد فيما يلي تجربة توضح الآثار المستلفتة التي تنتج عن الإساغة بالنسبة إلى العادات اللغوية. قام كارميكاريل وهو جان وولتر (١٩٣٢) بتقديم سلسلة من إثني عشر رسماً تمثل أشكالاً هندسية بسيطة وذلك إلى الأشخاص الذين أجريت عليهم التجربة.

لقد تم إعداد هذه الرسوم بحيث يمثل كل واحد منها شيئين على الأقل من الأشياء الواقعية. كذلك عند عرض هذه الرسوم على الجماعات المختلفة في التجربة. اختلفت الأسماء المصاحبة. ثم طلب بعد ذلك إلى الأشخاص أن يرسموا من الذاكرة أكبر عدد ممكن من هذه الأشكال «بأعظم ما يمكن من الدقة». ولقد كانت الرسوم التي رسمها الأشخاص في استعاداتهم تكشف عن مسايرة الأشكال المحفوظة في الذاكرة للأسماء التي كانت مصاحبة لها.

ولقد أوردنا هذه التجارب المتباينة لندلل على أن الباحثين على الرغم من استخدامهم لمثيرات مختلفة ولطرائق متباينة قد انتهوا المرة تلو المرة إلى الكشف عن نفس العملية الرئيسية الثلاثية الأوجه التي تكمن تحت التغييرات التي تطرأ على مجرى الذكريات الفردية والجماعية.

والوجه الرئيسي بين هذه الأوجه للعملية هو ـ فيما يبدو ـ الإساغة ذلك أنه الواضح في جميع هذه التجارب أن الخبرات الماضية والعادات اللغوية، والأنماط الثقافية للتفكير، والدوافع والإتجاهات الشخصية، كلها تعد المرسح لنمط اللوى الذي يتم، وتحدد بالذات العناصر التي يتحتم أن تعاني التسوية وتلك التي يتحتم أن تعاني الإبراز.

ودراسة الطرق الإسقاطية لفهم الشخصية توحي بأن الإشاعة نفسها يمكن أن تكون اختباراً ممتازاً للشخصية. فما الذي يصنعه الشخص بإزاء القصة التي يسمعها؟ إنه يستجيب لها ـ ما اتسمت بشيء من الغموض (لا يقيدها دليل جامد متاح في سهولة)، وما انطوت على شيء من الأهمية المحتملة بالنسبة إلى حياته ـ كما يستجيب الشخص في موقف الاختبار الإسقاطي. فمن بين أصباغ حياته العقلية ينتقي الألوان التي يرسم بها القصة. وقلما يعي أنه يحكي عن طبيعته الخاصة أكثر مما يحكي عن الحادثة التي يقصد إلى تصويرها.

الغرس الخلاق:

لقد غدا الآن واضحاً الشبه ما بين الإشاعة وذكريات الرسوم أو الذكريات على نحو ما تقاس في استعادات القصص. أو على نحو ما تقاس في الإداءات الإسقاطية. ولكن عملية التعميم التي نعرض لها الآن تمتد إلى ما هو أبعد من ذلك.

إن الحياة العقلية كلها إنما هي عملية «تذييت» (بمعنى إحالة إلى الذاتية) للعالم الخارجي. نعم إننا كيما نستمر في البقاء نكيف أنفسنا بطريقة ملائمة إن قليلاً أو كبيراً بالنسبة إلى البيئة الجغرافية والفيزيائية، ولكننا نعيش بصفة أساسية تبعاً لنظراتنا وتقييماتنا الخاصة للعالم المحيط بنا. وإن ما ندركه إنما نغرسه دائماً أبداً في شخصياتنا، ثم نفسره بعد ذلك لأنفسنا وللآخرين في مسايرة لطبيعتنا العقلية والانفعالية من قبل.

ولنتأمل حالة الفنان ـ لأن الفنان من حقه أن يفعل عن عمد ما نفعله جميعاً بغير قصد. إنه يدير انتباهه إلى موقف بعينه ـ ربما منظر طبيعي أو نقيصة

بشرية. وإن يدركه يحيله عن عمد إلى ذاتيته، ويبشر به بتأويلاته الباطنية. وأخيراً يسقطه إلى الخارج في لوحاته أو أعماله الأدبية. فمن شأن الفنانين أن ينالوا «بالتسوية» كل ما يتلاءم، و «بالإبراز» الملامح التي يرغبون في توكيدها، وهم بذلك يبلغون إلى «إساغة» الكل بالنسبة إلى معاييرهم الخاصة في التقييم، هذه المعايير التي لا حاجة إلى القول بأنها تتحدد من ناحية بالمعايير الثقافية ومن ناحية بطبائعهم الخاصة.

وسيان كانت لنا أو لم تكن الموهبة الفنية، فإننا جميعاً من الزاوية السيكولوجية، فنانون. فإن العالم الذي ندركه، والعالم الذي نعبر عنه يتأثران دائماً بما نكون نحن عليه.

والإشاعة حين ننظر إليها من هذه الزاوية إنما هي عمل فني ساذج. وإنما تمثل غرساً مدركاً حسياً في السياقات العقلية وفي الميكانيزمات العقلية التي تؤلف طبيعتنا. فإن ما نراه أو نسمعه «ينبغي» أن يناله التبسيط في مسايرة للعملية الاقتصادية للذاكرة «ينبغي» تشربيه بالدلالة وذلك إرضاء لدافعنا العقلي إلى السعي وراء معنى وإلى تجنب العماء العقلي، والدلالة الناتجة يتحتم عليها أن تساير ما اعتدناه من تأويلات للطبيعة وللسلوك البشري وعملية غرس الإشاعة ـ التي نسمعها في حياتنا الخاصة لا يمكن إلا أن تنال بالتأثير طبيعة الإشاعة التي نحكيها.

ألا تصدق الإشاعة أبداً؟

لقد اقترحنا في مقدمة هذا الكتاب كأكثر تعريفات الإشاعة صلاحية أن نعتبر الإشاعة عبارة عن قصة مقدمة للتصديق تنطوي على إشارة موضعية، دون أن تكون هناك معايير أكيدة على صحتها. ويتميز مثل هذا التعريف بأنه يعين على تمييز قاطع بين الإشاعة والخبر.

ولو قبلنا هذا التعريف فمن الممكن القول: أن أشكال اللوى التي تنتج من عملية الغرس (أي من التسوية والإبراز والإساغة للمشاعر الشخصية) إنما هي

من العظم بحيث يكون من غير المأمون في أي ظرف من الظروف أن نقبل الإشاعة على أنها سبيل حق إلى الاعتقاد والسلوك.

لقد أبانت تجاربنا كيف أنه لا يمكن التعويل حتى على الإستعدادات الثانية أو الثالثة في الترتيب والتي حصلنا عليها تحت ظروف عملية تعد نسبياً مواتية، ومن المحتمل أن تتعرض إشاعات الحياة اليومية لضروب من الإتلاف المسرف.

فإشاعة الجاسوس الياباني التي أوردناها في مطلع هذا الفصل لم تكن برمتها جديرة بالتصديق لأغراض عملية. فإنها قد شوّهت من شكل نواة الحقيقة إلى حد أن هذه النواة لم يعد من الممكن التعرف عليها.

المبالغة:

كل إنسان يعرف أن الإشاعات تميل إلى المبالغة. وتحليلنا للإشاعة يضع في إعتباره هذا الميل المقيت. ناظراً إليه من زاوية الإبراز. فجوهر القصة، أو ما يعده المستمع جوهرها إنما يتضح عن طريق «وضع النقط على الحروف». فقصد أية إشاعة هو أن «تنقل» انطباعاً موحداً عن شيء يعد هاماً. وهل من سبيل لنقل هذا الإنطباع أفضل من الأسلوب البياني في المغالاة؟ فإذا ما هاجم رذيل شخصاً ما، فلم لا نقول عن هذا الأخير بأنه كان ضحية مجنون؟ وفي حالة ما يكون الاهتمام بعنصر الخصومة لهذا الشخص هو المسألة الرئيسية، فلم لا يقول أنه قد تعرض للهجوم من جانب «ثلاثة» أو حتى من جانب جمهرة وإذا ما نال شخص وصية دسمة قدرها مائة ألف دولار، فلم لا ننقل فكرة الثروة العريضة بشكل أوضح فنقول إن قيمتها مليون دولار؟ وإذا تعرض أمننا للخطر في بيرل هاربور بفقدنا الكثير من السفن، فلم لا نجعل التأثير أكثر فاعلية فنقول إن أسطولنا قد انمحق بكليته فإن الدلالة الانفعالية للخبر ـ وهي هدفه الأساسي ـ تظل هي هي، سواء كان العدد دقيقاً أو منطوياً على المبالغة. ولكن القيمة والتعبير للخبر تكون أعظم عندما يتم «التبدل الوضعي للخبر بنقله من التسجيل

المتواضع إلى أعلى نغمة في «السلم».

التطوير التشكيلي:

يقال عادة أن الإشاعات تتعرض للزركشة عند الرواية، وإنها تكبر ككرة الجليد المتدحرجة وتلك إساءة في الفهم. وعلى الرغم من أننا نجد ولا شك الكثير من الإقحامات، إقحامات للأسباب والتفصيلات الموقفية فإنها فيما يبدو إنما تتم فحسب في خدمة الإبراز والتطريز التشيكلي الذي يخدم غرضاً غير التماسك وغير توكيد الموضوع الرئيسي للقصة. نادراً ما يحدث ـ وهو لم يحدث مطلقاً في تجاربنا.

إن الراوي الممتاز يضيف من الاستطرادات ما يضمن الحيرة والترقيب عند المستمع، ويستجلب من الطرائف المساعدة ما يحشو به قصته، ولكن هذا الحشو قل أن يوجد في المجرى العام للإشاعة. وحتى حين يضطلع متحدث فنان بتكبير مضمون الإشاعة فإن الإتجاه العادي لها هو دائماً أبداً إلى التناقص. وبصورة أساسية فإن الإشاعات تتقلص، فتصبح مقتضبة منكمشة، حتى تأخذ الخلاصة أو الحكمة.

التكيف:

إن الذاكرة البشرية لهي من التغير بحيث يستحيل عليها أن تحفظ كل حادثة جزئية مصونة، ومصنفة إن جاز القول للرجوع إليها في المستقبل. ونظرية الذاكرة كمخزن قد تم استبعادها منذ زمن بعيد.

فإن ما يحدث في العادة هو أن الحادثة التي عاشها الشخص لا تلبث أن تنسبك مع الأحداث السابقة المماثلة بحيث تنتهي كلها إلى ذكرى عامة. وكلنا قد صدمه يوماً اكتشافه أنه قد خلط ما بين شخصين مختلفين في الذاكرة أو اكتشافه أن إحدى ذكريات الطفولة قد تكشفت عن كونها ليست واحدة وإنما هي مزج من أحداث متمايزة تماماً.

فالإشاعة التي تبدأ «كل يهودي» غالباً ما تحدد الموضوع الذي يلي فقد بعث نمط جامد قائم من قبل، لا يمثل بدوره أكثر من تكثيف لأفكار غرستها كثرة من الإشاعات والأساطير السابقة وغير المشروطة.

وثمة شكل خاص من التكثيف نجد، فيما تنطوي عليه بعض أنماط الشخصيات من قوة جذب لبعض أنماط القصص. فإذا كانت هنالك قصة فاجرة تريد لنفسها الترديد فمن الممكن أن تلصق نفسها بالنجمة الناهدة ماي وست.

مسايرة العرف:

على الرغم من أن لكل واحد منا أنماطه الجاهدة الخاصة به فإن الغالبية منها مستقاه من بيئتنا الاجتماعية. ومع انتشار الإشاعة يتحتم عليها أن تتجرد من لونها التجميلي الخاص، فالكلمات المألوفة تستخدم لنقل المعاني المألوفة. أما الكلمات غير المألوفة، واللطائف اللفظية، والتأويلات الفردية فكلها تنمحي. فعندما تضطلع شخصيات متباينة بنشر أقصوصة فإن أصغر قاسم مشترك هو وحده الذي يستطيع البقاء.

تهبط القصة في البساطة اللفظية إلى مستوى أقل الناس - ضمن سلسلة النقل - تثقيفاً. وأقلهم ثروة لغوية.

إن الثقافة تتحايل بوسائل مختلفة لتبسيط وتجميل الأقاصيص. والثقافة بما لها من قدرة على جعل الأقاصيص مسايرة للعرف، تعد أحد المحددين الرئيسيين للنمط الأساسي للوى أما المحدد الآخر فجملة الميول الفردية التي تعمل عملها في الإدراك والحفظ والإدلاء، وهي التي وجهنا إليها حتى الآن الجانب الأكبر من اهتمامنا، وسنتناول في الفصل التالي طرائق أخرى تتكامل بها الإشاعة ضمن حياة المجتمع.

الفصل العاشر
الإشاعة في المجتمع

لقد شغلنا حتى الآن ـ إلى حد بعيد ـ بالعمليات العقلية عند الشخص العميل، ناقل الإشاعة. ولكن الإشاعة، شأنها شأن كل شكل من أشكال التعبير الإنساني، إنما هي بصورة أساسية، ظاهرة اجتماعية هي في بعض اللحظات ترتسم موجات متناقلة من الحديث، وفي لحظات أخرى تنحدر شلالات من العنف. هي في بعض اللحظات تقتصر على حفنة من الناس، وفي لحظات أخرى تحتضن الملايين، وذلك قبل أن تستنفد طاقتها وتهجع ساكنة. وليس من النادر أن يكون موضوع إشاعة من الإشاعات بحيث يعلو على الاستنفاد، ومن ثم يتوافر هذا الموضوع في صور مختلفة عبر فترات متعاقبة من التاريخ. فقد يتكشف شكل من أشكال الإشاعة عن قيمة كبيرة، فيتجمد هذا الشكل في أسطورة خالدة. ولكن الإشاعة، سلمية كانت أم مدمرة، واسعة المجال أم ضيقته، طويلة الأمل أم قصيرته، فإنها ظاهرة قائمة ضمن نسيج كل ثقافة من الثقافات البشرية، فمن المستحيل أن نتصور مجتمعاً بغير إشاعات.

الإشاعة والتاريخ:

كان أباطرة الرومان يعانون وباء الإشاعة إلى حد أنهم عينوا «حراس إشاعات» (باللاتينية Deiatores). وكانت مهمتهم تنحصر في مخالطة الأهالي، ونقل ما يسمعونه إلى القصر الإمبراطوري. كانت التقولات الشائعة تعد بمثابة بارومتر دقيق للمشاعر الشعبية. وكان لحراس الإشاعات حين يقتضي الأمر، أن يشنوا من جانبهم حملة مضادة من الإشاعات (شادويك ١٩٣٢) فالحرب النفسية ليست بالجديدة.

وتقدم لنا حادثة حرق روما عام ٦٤م مثالاً طريفاً. وبحسب تحليل شادويك للوقائع، فإن الجماهير المنكوبة تقبلت ونشرت الأقصوصة الذاهبة إلى أن نيرون، وهو حاكم أبعد ما يكون عن الشعبية، إن لم يكن قد أشعل النيران بنفسه بالفعل، فإنه على الأقل قد تهلل بالجمال البربري للهب، وغرد نشيدة في تمجيدها. ولم يكن افتقار الإشاعة إلى أساس من الواقع ما يعين نيرون. وفي دفاعه عن نفسه، نجده يطلق إشاعة مضادة، يتهم فيها المسيحيين، الذين كانوا ممقوتين من الشعب أكثر منه، بأنهم هم الذين أشعلوا النار في المدينة. ولقد تبين أن هذا الشكل الأخير للإشاعة كان أكثر مسايرة للمخاوف والأحكام القبلية السائدة. لقد كان من المستساغ للأفهام، أن تصدر مثل هذه الفعلة من المسيحيين «الحقراء»، ومن ثم صبت الغوغاء جام غضبها على هذه الضحايا السهلة من كباش الفداء، متناسية إلى حين عدائيتها لنيرون.

ولو افترضنا أن الوقائع كانت، في هذه الحادثة، على نحو ما وصفها شادويك، فإننا نتبين هنا فاعلية الديناميات الخاصة بالإشاعة في صورتها النمطية. فمصدر الحريق غير معروف (غموض)، وتأثيره على حياة الناس (أهمية) بلغ حد الكارثة. كان الناس يتلهفون على تفسيره، وفي نفس الوقت على التخفف، هذا الذي يتحقق بلصق التهمة. ولقد أوحت لهم كراهيتهم، التي كانت قائمة بإزاء حاكمهم المستبد، بصيغة معينة. ولكن خوفهم من سطوته، وعاداتهم الراسخة في طاعته، قد جعلتهم جد راغبين في تحويل نقمتهم إلى كبش فداء «أضعف»، إلى العقيدة المسيحية المستغلقة على أفهامهم، والجد مثيرة لريبهم. ومن هنا فعلى المسيحيين، شأنهم شأن كل الأقليات المهيضة الجناح عبر عصور التاريخ، صبت الجماهير المحيطة الغاضبة نقمتها.

هذا إلى أن الحادث ينطوي على جانب آخر من الأهمية. فعلى الرغم من أن إشاعة اتهام نيرون قد توارت حيناً من الزمن فإنها فيما بعد قد عادت لتستقر راسخة. فاللحن الذي استوحاه نيرون من النيران قد غدا أسطورة تاريخية، بل إنه قد بلغ مع الوقت إلى مرتبة الأمثال. فهذا الطاغية الغليظ القلب يستطيع أن

«يعزف على قيثارته وروما تحترق».

وليس يعنينا أن يكون نيرون قد فعل ذلك بالفعل، فحسبنا أن الفعلة المنسوبة إليه هي «عنوان» على شخصيته، ورمز لها. فهذه الفعلة الشنعاء الواهية الأساس، والصحيحة مع ذلك من الناحية المجازية، قد ارتبطت باسمه إلى الأبد. وحيث أن الاستخفاف بالويلات الكاسحة للبشر ليس من النقائص النادرة، فإننا نلتقي بمناسبات لا حصر لها ينطبق عليها هذا المثل، الذي نبت في الأصل من مجرد فرية حاقدة.

والإشاعة هي التي ساقت سقراط إلى الموت، إذ اتهمته بإفساد الشباب وحضهم على الثورة. وفي القرون الوسطى. كانت الحروب الدينية والصليبية تجد ما يسندها في الأقاصيص المسرفة التي تدور حول المعجزات والأسلاب والخطايا. وبعد ذلك بقليل انتشر المستكشفون في أرجاء الأرض سعياً وراء ما صورته الأقاصيص من كنوز ومن ينابيع للشباب الدائم، وليظفروا برؤية ما وسعته هذه الأقاصيص عن مسوخ البحار. وكانت أبهة البلاط البابوي، كما كانت الجوانب الجسيمة من حياة الأساقفة، معيناً لا ينضب للأساطير، هذه التي أسهمت ولا شك في تمهيد السبيل أمام حركة الإصلاح الديني.

ويمكننا أن نتساءل بحق: ما هو - في التاريخ الإنساني - القدر الذي يمكن اعتباره إستجابة من جانب الجماعات البشرية الهامة للإشاعات الجارية؟ إنه لقدر كبير فيما نظن. فإلى وقت جد قريب قلما وجد سكان الأرض ما يعولون عليه غير أنباء الإشاعات. فالصحافة والبرق والإذاعة إن هي إلا مخترعات متأخرة. فلقد كان على الجمهور قبل اختراعها أن يعول على مسافر قادم يأتيهم بما تتناقله الأفواه «على شخص من أمثال بول ريفير P. Revere» ليدق ناقوس الخطر، أو على «منادي المدينة» ليقدم بطريقته الخاصة أخبار اليوم. ولم يكن هنالك غير القلائل من الحكام والملوك الذين كانوا يتسلمون الأخبار في رسائل مكتوبة ومختومة، ومع هذا فلم تكن مصادر أخبارهم بمنجاة من الإشاعات.

ولقد رأينا في تجاربنا المعملية البسيطة، ما يحدث في العادة من

تحريف حتى في «النقلة» النقلة الأولى أو الثانية. وعليه فما أبعدها عن الدقة هذه الصورة عن العالم الخارجي التي تصرفت الجماهير. بل وزعامتها، وفقاً لها خلال مجرى التاريخ.

وعلى العكس من ذلك، فإن المقادير التي نستقي منها اليوم الحقائق لهي أكثر بكثير قوة ودقة. فالبريد والصحافة والإذاعة والبرقيات والرسائل اللاسلكية قد حررتنا ـ بما يعلو على القياس ـ من استرقاق الإشاعة فمن النادر أن يوجد شخص «يرغب» في أن يكون بمعزل عن الأخبار. ويبدو من المؤكد أن صرح التاريخ منذ الآن سيقوم أكثر فأكثر على الحقائق الواقعية، وأقل فأقل على معتقدات الإشاعات.

ومع ذلك فليس في وسعنا أن نخلص إلى القول بأن الدور الذي تضطلع به الإشاعة اليوم يقل عما كان لها من دور في العصور السابقة. فالحقائق الموضوعية المتصلة بالحرب والنكبات والمحاكمات والكشوف، والتصريحات العامة كلها قد غدت متاحة بصورة أدق وأسرع مما كانت عليه في أي وقت مضى. ولكن في نفس الوقت الذي انفسحت فيه الآفاق أمامنا، إتسعت أيضاً مجالات «الغموض». فالحرب الأهلية في الصين، ومولد التوائم الخمسة، والحياة الحميمة للممثلات إلخ...» بدخولها إلى مسرح انتباهنا إنما هي تعبير عن اتساع عالمنا، وعالم الأحداث، هذا الذي وإن كانت أخبارنا ضمنه رسمية في بعض جوانبها إلا أنها ما تزال مع ذلك تتسم بالنقص والغموض.

ومن ثم «فإننا ما نزال نلجأ إلى الإشاعة لنسبغ بنية منتظمة على هذه البيئة المنفسحة. هذا إلى أن حاجاتنا الانفعالية والمعرفية، برغم المخترعات الحديثة، لا تختلف عنها عند أسلافنا وإننا ما نزال مثلهم جد بعيدين عن إقامة تفسير متين للأسرار السحيقة في حياتنا الشخصية. ومن هنا فغالباً ما يعتمد مثلهم على الأسطورة.

الإشاعة والأسطورة:

يمكن النظر إلى الأسطورة بوصفها «إشاعة مجمدة» وعلى وجه الدقة فإن الأسطورة قطعة من أقاويل «تتميز» بقدرة غير عادية على المقاومة قطعة قد توقفت بعد تاريخ من التغييرات والتبديلات، عن أن تتغير في انتقالنا عبر الأجيال وكما يقول لابيير فارنزورث Lapiere & Farnswoth (١٩٣٦): إن الأسطورة هي إشاعة إستحالت جزءاً من التراث الشفوي لشعبنا ومن الناحية اللغوية كثيراً ما يستخدم اللفظان كل مكان الآخر.

وكيما تستحيل الإشاعة إلى أسطورة يتحتم أن يتّسم موضوعها «بالأهمية» بالنسبة للأجيال المتعاقبة. وإن الموضوعات المتعلقة بنشأة قومية من القوميات، أو بالكرامة القومية لهي من هذا القبيل. وكذلك الحال بالنسبة للموضوعات المتعلقة بالميلاد والزواج والموت. بل إن كل ما يمكن أن تكون له دلالة طاغية في عموميتها يصبح جزءاً من فنوننا الشعبية (فولكلور).

والأساطير يمكن أيضاً أن تستمر في البقاء بفضل ما يكون لها من قدرة على تصوير الخلال الإنسانية في صورتها المطلقة. فعزف نيرون والمدنية تحترق ليس بشيء يختص به وحده وإنما كل الناس من أمثاله.

وقد حاقت اللعنة بسسفوس فكتب عليه أن يدفع حجراً هائلاً إلى أعلى التل، لا لشيء إلا ليراه المرة تلو المرة، وهو يهوي إلى القاع.

وتصدق الأسطورة اليوم على البائسين من الأحياء ممن يعانون فيما يبدو نفس المصير. ووردة عيد الميلاد تتفتح بحسب الأسطورة، رغماً عن الثلج والجليد، في منتصف ليلة عيد الميلاد، ببلاد الشمال، مما يترجم عن الفرحة القائمة بالضرورة في قلوب الناس، في تلك الآونة.

وهكذا يتصل بقاء الأساطير لأنها تجسد حقائق أبدية عن العقل البشري.

فالأساطير تتيح إجابات على الألغاز الدائمة للحياة، أو أنها تتيح تعبيراً دقيقاً، وإن يكن مجازياً عن خبايا المشاعر البشرية العميقة. فبفضل الأساطير

«تكتسي الحياة ـ بحسب تعبير كمبال ينج ـ دلالة، فلا تتطلب منا صياغة متجددة».

ويضيف ينج أن النسيج الذي تمدنا به الأسطورة يتيح لنا مشاعر الأمن في ظل من إتصال ايديولوجياتنا وثباتها. وأساطير الجبروت عند أهل الشمال تتيح للسامع مشاعر الاستقرار، والاعتزاز بالأجداد الأولين ناهيك عن تفسير لمشكلات الكون ترضى عنه النفس. فهذه الأساطير ـ ككل الأساطير ـ إنما هي أدوات تفسير نافعة للإنسان خلال حياته القصيرة الغامضة على الأرض.

وتعرف الأساطير التي تتناول القوى الرئيسية والكون، والمعتقدات الدينية «بالميثولوجيا».

وهذه الأساطير إذ تنطوي على جانب كبير من فلسفة الحياة التي يعتنقها أفراد جماعة ثقافية واحدة، فإنها تتميز بصفة خاصة بالقدرة على مقاومة التغير. فإنه وإن تكن هنالك أشكال مختلفة لقصة الخليقة، وطبيعة الحياة الأخرى، ومجيء المسيح، فكل شكل من هذه الأشكال راسخ في محيطه الثقافي الخاص به، وإن ما ينتقل منها عبر الأجيال إنما يكتسي دائماً أبداً بألفاظ عيانية. فلا الأساطير ولا الإشاعات تنطوي على ألفاظ تجريدية، حتى حين تتناول الموضوعات الكونية العامة.

والموضوعات التي تتناولها الميثولوجيا تعد ـ بين الموضوعات التي يتحتم على البشر أن يواجهوها ـ من أكثرها اتساماً بالأهمية، كما أن الأدلة المتصلة بها تتسم دائماً أبداً «بالغموض».

ولما كانت المشكلات الكونية قديمة قدم الزمن، فإننا نجد أن «الأسطورة أقدر من الإشاعة، على مواجهة هذا المطلب، ومع ذلك فهنالك حقب زمنية أقصر تتميز بإشاعاتها العابرة التي تبدو كأنها قد أصطنعت بصورة مؤقتة لتروي غلة الإنسان للتعرف على الحقيقة، وشرهه إلى الاعتقاد. وكل هذه الإشاعات غالباً ما تنشأ متصلة بنهاية وشيكة للعالم، أو بمجيء المسيح، أو بمعجزة من معجزات الشفاء في أحد المزارات أو بأشياء تظهر في السماء، وإننا

لنذكر «قصة» الملاك الذي ظهر في السماء أثناء الحرب العالمية الأولى فوق خنادق فلاندرز.

وعمليات «التسوية» و «الإبراز» و «الإساغة» التي تتمخض عن الأساطير إنما تتضح أكثر ما تتضح في «القصص التاريخية» عن حياة الأبطال القوميين. فحكايات الأعمال العجيبة للملك أرثر، وفردريك باربروسا، وجان دارك، إنما هي مزاج من الخيال والواقع اللذين يستحيل عزلهما، مزاج حظيت فيه الأسطورة بالنصيب الأوفى. ولا أحد، اللهم إلا أن يكون مؤرخاً فذاً، يستطيع أن يستخلص لب الحقيقة، ولا أحد فيما يبدو «يرغب» في ذلك.

وتعتبر الصورة المستقرة للأسطورة مرشداً كافياً. «ولم لا؟» على حد تساؤل النفس الشاعرية. أفلا تجسد جان دارك، مثلاً، مطامح وأماني قطاعات كبيرة من الجنس البشري؟ أفليس دور الأسطورة كرمز للأماني الروحية، أكثر أهمية من دور الناقد في عزل الحقيقة التاريخية مجردة من صورها التي توالت عليها عمليات «الإساغة» و «الإبراز».

ولا يحتاج الأمر إلى الكثير حتى تستحيل الشخصية التاريخية شخصية أسطورية. ففي الولايات المتحدة تتخذ الشخصيات البارزة صورة ميثولوجية وخاصة هؤلاء الذين ماتوا قبل مولد الجيل الحاضر، الذين تمجدهم الأغاني والأعمال الأدبية.

فقصة جون سميث والأميرة بوكاهونتاس Pocahontas تستند إلى أسس واهية من الواقع. ففي تقريره الأصلي عن رحلته لا يكاد الكابتن سميث يذكر الأميرة. ولكنه حين كتب كتابه General Hestorie بعد ذلك بستة عشر عاماً، وضعها في وسط المرسح.

وليس من الممكن أن نتبين إلى أي حد أسبغ جون سميث على قصته طابعاً دراميأ بقدر ما كانت الأحداث الفعلية تتوارى في ذاكرته.

ولكن من المؤكد أن الكتاب اللاحقين والجمهور المتعطش للروايات قد فضلوا الصيغة «المتبلة» من القصة والتي عانت «الإبراز» أو «السن».

وأسطورة جورج واشنطون وشجرة الكريز التي يسمعها الأطفال تستقر في الذاكرة في إعزاز، ويرجع السبب من ناحية إلى البساطة والوضوح في صور القصة، ويرجع من ناحية أخرى إلى التطابق الانفعالي من جانب المواطن الصغير مع الأب الروحي لوطنه. ولكن القصة مشكوك في صحتها.

ويبدو أن مصدر هذه الأسطورة هو أحد رجال الدين، الذي روى أنه سمعها من سيدة عجوز أتيح لها ـ كقريبة من الدرجة الثانية ـ أن تتردد على أسرة واشنطن بين الحين والحين.

(نفز Nevis ١٩٣٨ أو بريت Beritt ١٩٤١). ما أوهاه من أساس لأسطورة قومية.

ولكن ها هنا أيضاً تصبح النفس الشاعرية «شاكية»: لم هذه العقلية الضيقة الحرفية؟، «لقد كان جورج واشنطون رجلاً مستقيماً وجديراً بالإعجاب فالقصة في الصميم. فلتكن هذه القصة رمزاً لتقديرنا للرجل وإعجابنا بفضائله. لا تكن متحذلقاً.

الدلالة المجازية للإشاعة والأسطورة:

إن شكل التعبير في كل من الأسطورة والإشاعة بسيط وإيضاحي: فقدت سفينة مع ألف من الأنفس، قال وشنطون: «إني أبترها ببلطتي الصغيرة «ثور Thor يقذف بمطرقته فيكون الرعد» مثل هذه الأقوال تقدم على أنها تقرير لوقائع (بمعنى أنها قضايا للتصديق والإعتقاد كمرجع في الموضوع).

وعليه فإننا حين نتحدث عما تنطوي عليه الإشاعة من «لوى»، وعن الكيفية التي تنحرف فيها عن صورتها الأصلية، فإنما نستخدم معياراً حرفياً إننا نحكم على المضمون بمقارنته بالوقائع الموضوعية، «بالمثير المعياري».

ولكن هل تدعى الإشاعة «بالفعل» أنها تبيينية وإعلامية؟ إن شكل إعلاماتها ليجعلها تبدو كذلك. ومع ذلك فإن النظرة الفاحصة تكشف عن أن شكل التعبير، في كل من الأساطير والإشاعات، ينطوي في الغالب على دلالة

خفية. أنه «يقول» أكثر مما يبدو للنظرة السطحية أنه يقوله، ومن الممكن أن تكون الدلالة المتخفية هي الأكثر أهمية، والأكثر صدقاً.

فلو أنني أشرت إلى أن اليهود يملكون «وول ستريت» أو أنهم يهربون من الخدمة العسكرية، أو أنهم يحصلون على الأعمال المريحة في الجيش، فإنني على الرغم من الظواهر لا أقصد إلى أن أعلمك بالوقائع بقدر ما أنبهك إلى إنعدام ثقتي في اليهود. فإنني في قرارة نفسي اضطلع بعملية تقييم. وفي وسع موريس أن يصف أقوالي بأنها «تقييمات شاعرية» (موريس ١٩٤٦ من ١٣٤ وما يليها) وإنني حين أردد تقييمات الثقافة بحكايتي لأسطورة الخليقة، أو لأسطورة بطل قومي، أو لأسطورة عن الحياة الأخرى، فإنني مرة أخرى لا أتحدث بطريقة تبيينية أو إعلامية ولكن بطريقة ميثولوجية تقييمية.

وبقدر ما تدعي الإشاعات أنها إعلامية ـ تبيينية فإنها دائماً ما تكون في جانب منها على الأقل مخطئة. ولما كان ادعاء الإشاعات هذا قائماً على الدوام، فإنها أقوال خادعة دائماً أبداً.

ولكن بقدر ما نفهم الإشاعات على أنها «تقييمية» appraisive، فإنها تعبر في دقة عن الحالة العقلية لقائلها.

وكلما تطورت الإشاعات أكثر فأكثر إلى صورة الأقوال «المأثورة» أو إلى صورة الأساطير، ازداد حظها من هذا الطابع التقييمي أو المجازي. فالقول بأن «النعامة تدفن رأسها في الرمال» هو خرافة كاذبة من الزاوية الإعلامية ـ التبيينية. فالنعامة في الواقع لا تفعل ذلك. ولكنه صحيح مع ذلك أن الكثير من الآدميين، ممن ينطبق عليهم هذا المثل، يخفون أعينهم من الخطر المقترب.

والقول بأن الاسكا منطقة دائمة البرودة خاطىء في الواقع. ولكنني حين أريد التعبير عن حالة عقلية بعينها بتشبيه ملائم، فلن تعوقني «خطوط الحرارة المتساوية» وإنما أعلن دون خجل: برودة... كالاسكا».

ويستطيع المستكشف ستيفانسون Stefansson أن يقول الكثير عن المعتقدات الزائفة التي لا حصر لها، والتي نشأت مع الوقت، وأصبحت شيئاً

مألوفاً في الأحاديث المتداولة بالبلدان المتحضرة، وذلك على الرغم من الأدلة المضادة الواضحة. وهو يطلق على هذه التبلورات الفلكلورية اسم «تقنين الخطأ». بمعنى إحالة الخطأ إلى نمط ثابت ـ (ستيفانسون ١٩٢٨). ولكن قبل أن نبلغ إلى نقد مثل هذه «الأخطاء المقننة» ينبغي أن نتبين إلى أي حد ينطوي الأمر في الواقع على خطأ فقليل هم الأشخاص الذين يهمهم أن يعرفوا أن الذئاب ترتحل في أزواج أو في جماعات «أسرية» صغيرة. فهم لا يهتمون في الواقع بالحقائق العلمية عن الذئاب. وأن ما يحتاجون إليه في أحاديثهم هو مجرد مجاز. فالتهديد المروع هو الجو الذي يرغبون في تصويره. قطيع الذئاب تعبير يحقق المطلوب، كائنة ما كانت الوقائع العلمية.

وهكذا فكثير من الناس الذين يرددون الإشاعات أو يحكون الأساطير إنما يدركون ـ ولو بصورة جزئية ـ أن ما يقولونه لا ينبغي أن يؤخذ على أنه حقيقة حرفية، حتى ولو صبغ في ثياب الواقع. إنهم يدركون ـ نصف إدراك ـ أنهم إنما يستخدمون وسيلة تصويرية جذابة لنقل الأفكار.

والأدباء من أصحاب النزعة الفنية إنما يفعلون ذلك على وجه الدقة عندما يستعينون بالخيال ليعبروا تعبيراً عيانياً عن حقيقة عامة. وأحياناً ما يكون إطلاق الإشاعة صياغة خيالية نصف شعورية.

فالأقصوصة التي ننقلها، وإن لم تكن صحيحة من الناحية الواقعية فإننا نعتبرها صادقة من الناحية المجازية. وعلى سبيل المثال، «فأنا» لا أعرف ما إن كانت القنبلة الذرية تحدث سرطانات كامنة، وموتاً بطيئاً على بعد أميال حول الهدف. فإذا ما قررت ذلك في نشري للإشاعة فإني أشير إلى شيء أعرض وأصدق من مجرد الوقائع التي أذكرها (والتي يحتمل أن أكون أنا نفسي نصف متشكك فيها).

فأنا أقول: «يا للقنبلة الذرية من شيء مخيف»؟ ومن ذا الذي يشك في أنني محق كل الحق في عبارتي من زاوية التقييم الشاعري»؟

وهكذا فالإشاعات والأساطير تنطوي على دلالة «تعبيرية» كبيرة، ولا

ينبغي أن نحكم عليها فحسب وكأنها مجرد هذه العبارات الإعلامية التي تبدو عليها، وإنما أيضاً على أنها عبارات «تقييمية» كما هي في العادة ففي المجتمعات الحرة نعتز بحق الفرد في التعبير عن مشاعره، فإذا ما رغب الشخص في استخدام «المأثورات» الإشاعية، فلم لا يفعل؟

وتنشأ المشكلة الاجتماعية للإشاعة من هذه الحقيقة، وهي أن المستمع لا يتلقاها في العادة من زاوية المقاصد «التقييمية» للمتحدث وإنما بالحرى على أنها تعبير «تبييني» عن الواقع. فمع أن المتحدث يكشف عن وحدة الانفعالية معرفية وقد أساغ ضمنها حادثة أو خبراً، فإن المستمع، حين لا يكون حذراً، يأخذ العبارة على أنها نقل لواقعة يمكن التحقق في صحتها. والمستمع بذلك يخلط ما بين الدلالة التعبيرية والدلالة الموضوعية، ويتطلب الأمر قدراً كبيراً من الإستبصار حتى ينصت الشخص إلى عبارات الإشاعة في اهتمام وحذر ممتزجين بالمقادير اللازمة.

تصنيف الإشاعات

حيث أن علاقاتنا الاجتماعية مفعمة بالإشاعات والأساطير، فإنه يحق لنا أن نتساءل عما إن كان هنا أي مبدأ للتصنيف نستطيع بمقتضاه أن نرتبها. أم ترى أن القضايا ذات الموضوعات المحلية الهامة والمتاحة للإعتقاد تعلو على الحصر بحيث تصبح مهمة التصنيف مستحيلة تماماً.

إن الإجابة على هذا السؤال، كما هو الشأن بالنسبة إلى الأسئلة المماثلة المتعلقة بترتيب الظواهر الاجتماعية والنفسية إنما هي مسألة تتوقف على اهتمامات القائم بالتحليل. وحين ينصب الاهتمام على أعراض خاصة ومحدودة يكون جد ميسور أن تصنف في فئات الإشاعات السائدة في فترة بعينها، وذلك على إفتراض أننا قد حصلنا على مجموعة كافية منها. وعلى أية حال فلا يمكننا أن ننعت بالصدق المطلق طريقة بعينها فحسب من بين طرائق الفرز. فمن الممكن أن ينصب اهتمام أحد البحاث على:

(أ) سرعة انتشار الإشاعة، أو زمن دورتها، وأي جانب آخر من جوانبها الزمنية. وقد ينصب اهتمام آخر على:

(ب) الموضوع الذي تدور حوله الأقصوصة، وقد ينصب اهتمام ثالث على:

(ج) الحالات العقلية والدوافع المحتملة التي تكمن وراء تيارها الدافق، ورابع على:

(د) الآثار الاجتماعية المترتبة على الإشاعة، وبيلة هي أم مفيدة أم حيادية. ومن الممكن لبحاث آخرين أن يستندوا إلى فئات أخرى، في محاولة للتمييز ما بين:

(هـ) الإشاعات المحلية والإشاعات الواسعة الإنتشار.

(و) الإشاعات الجديدة والإشاعات القديمة.

(ز) الإشاعات المحتملة الصدق وغير المحتملة الصدق.

(ح) الأقاصيص الطويلة الأمد والأقاصيص القصيرة الأمد. وهكذا يمكن تقطيع الإشاعات إلى شرائح بطرائق جد مختلفة.

وسوف نوضح هنا المبادىء الثلاثة الأولى من بين مبادىء التصنيف الآنفة الذكر:

(أ) أما المعيار الزمني فقد استخدمه عالم روسي من علماء الاجتماع، هوبايسو Bysow (١٩٢٨). فهنالك أولاً بحسب رأيه الإشاعة «الحابية» تنمو ببطء ويتسع إنتشارها في جو من السرية حتى يكاد أن يسمع بها كل فرد. وإشاعات «كاساندرا» Cassandra، المنبئة بالشر، تعد نمطية في هذا النوع. وكذلك أيضاً الإشاعات التي تدور حول الأعمال المشؤومة للممولين الدوليين وصناع الذخيرة، والشخصيات الرسمية. وزعماء العمال.

والإشاعات العدائية هي عادة من هذا الصنف، فحاملوها يأتلفون سلسلة لا تنتهي حلقاتها مما يتيح إنتشارها بصورة متزايدة.

وهناك إشاعات ذات طبيعة إندفاعية. «فهي تنتشر انتشار اللهب لأنها

تتعلق بوعيد أو بوعد مباشر. إنها تجتاح المجتمع في وقت مذهل في القصر وتنطوي على إشاعات العنف، أو إشاعات الحوادث، أو الكوراث أو النصر الحاسم في وقت الحرب.

والإشاعات من هذا الصنف إذ تنطلق في جو مكهرب، للغاية فإنها تميل إلى إثارة استجابات سريعة وعنيفة، وذلك لاستنادها إلى إنفعالات قوية من الهلع أو الغضب أو الفرحة المفاجئة.

وأخيراً نجد في قائمة بايسو الشاعرية «الإشاعات الغاطسة». إنها إشاعات تنتشر برهة، ثم «تغطس» إن جاز القول ـ ريثما تعود فتطفو من جديد في وقت لاحق، حين تسمح الظروف.

وعلى الرغم مما هناك من اختلافات سيكولوجية بين الحربين العالميتين الأولى والثانية فإننا لا نجد بينهما من فارق من زاوية الإشاعات. فأقاصيص ما بين عام ١٩١٤ و ١٩١٨ قد بدت وكأنها قد ظلت غائصة حتى أتاحت لها إنفعالات القلق فيما بين عامي ١٩٣٩، ١٩٤٥ أن تنجذب إلى السطح من جديد. ومن قبيل ذلك إشاعة «طابع البريد واللسان المقطوع». ومؤداها أن أسير حرب أمريكي (في معسكر ألماني في الحرب العالمية الأولى) وفي معكسر ياباني في الحرب العالمية الثانية، بعث بخطاب إلى أسرته لا ينطوي على أية أخبار تستلفت الانتباه اللهم إلا ما يطلبه إليهم من احتفاظ بطابع البريد الملصق على الخطاب. وحيث أن الجندي لم يكن يوماً من هواة جمع الطوابع فقد اندهشت الأسرة لطلبه وحاولت أن تجتلي الأمر. ولم تكد الأسرة تنزع طابع البريد حتى قرأت على الظرف في موضع الطابع ما يعلمهم بأن حراس المعسكر قد قطعوا لسانه.

ولقد انتشرت هذه الأقصوصة البعيدة الإحتمال خلال الحربين، وذلك على الرغم من تناقضها تناقضاً تاماً من حقيقتين:

فخطابات أسرى الحرب ليس عليها طوابع بريد «وقطع اللسان يكاد يؤدي بصورة أكيدة إلى النزيف حتى الموت، ما لم تتوفر عناية من إخصائي في الجراحة.

والإشاعة التي مؤداها أن قوات العدو قد سممت مياه الآبار تعاود الظهور فيما يبدو في كل حرب من الحروب، وكذلك الحال بالنسبة إلى الإشاعات المتعلقة بفظائع العدو (قطع أيدي الأطفال، وأثدية النساء) وحملات الافتراءات الهامسة ضد رؤساء الولايات المتحدة المتعاقبين تتشابه بصورة رتيبة.

وهذه الإشاعات الغاطسة يمكن تفسيرها بطريقتين: فمن المحتمل أنها ترقد في حالة سبات في عقول بعض الأفراد، حتى يستخرجوها بعد سنوات، وربما يتم ذلك دون تنبه منهم عندما يجدون أنفسهم في موقف بيئي مشابه لهذا الذي سمعوا فيه الإشاعة أول مرة.

ومن المحتمل ألا يكون هناك أي إتصال حقيقي بين الإشاعتين. فمن الممكن جداً أن تتمخض الحاجات البشرية في الظروف المتشابهة عن توليد أقاصيص متماثلة. وعلى سبيل المثال فإنه من المعقول أن يبدو تسميم الآبار تهديداً محتمل الوقوع من جانب عملاء العدو في أي وقت من أوقات الحروب.

والناس القلقون الذين يعتمدون إعتماد كلياً على مصدر واحد محدود للمياه ينساقون بسهولة إلى إبراز وتضخيم مخاوفهم دون أن يتنبهوا إلى أنهم في ذلك إنما يعيدون تمثيل صفحة ملونة في تاريخ الإشاعة.

(ب) وتحليل الإشاعات من زاوية الموضوع الذي تدور حوله إنما يعد مبدأ آخر للتصنيف.

وفي هذه الحالة تنحصر مهمة الباحث في إحصاء عدد الإشاعات التي تتناول موضوعاً من الموضوعات.

ففي الأحوال العادية يمكن أن نبحث على سبيل المثال عن نسبة الأقاصيص التي تتناول المسائل السياسية، والأمراض والنواحي الجنسية، والسياسة الخارجية وجماعات الأقليات.

وفي الحق أن مدى اختلاف الموضوعات هو من السعة بحيث تتعرض مثل هذه الطريقة للكثير من الصعاب، وخاصة بالنظر إلى ما هنالك من تباين

واضح تبعاً لاختلاف الأقاليم، والجماعات المهنية، والمستويات الثقافية.

وعلى أية حال فإن هذه الطريقة تعد ذات نفع أكبر في وقت الحرب، وذلك لأن جميع الإشاعات تقريباً تصبح إلى حد ما منصبة على الحرب، وواسعة الانتشار.

ولقد وجد عالم النفس الكندي ارفنج Irving(١٩٤٣) إن إشاعات وقت الحرب في كندا كانت تدور حول ستة موضوعات رئيسية:

(١) الرعب والبشاعة والموت.

(٢) التبذير والإسراف.

(٣) الغزو والغارات ومهددات الأمن.

(٤) المشاعر المناهضة لبريطانيا.

(٥) نوايا الحكومة فيما يتصل بالتموين، وتمويل الحرب، والتجنيد.

(٦) عن الكفاءة في إدارة دفة الحرب، ومهما تكن قيمة هذا التصنيف من حيث الهدف المباشر الخاص بتدعيم المعنوية، وعلاقات الحكومة بالشعب، فإن هذه الطريقة، في خير حالاتها، تكشف عما يتحدث عنه الناس. فهي لا تبلغ إلى الدوافع التي تحرك ناشري الإشاعات، ولا تعين في الكشف عن القوانين العامة للإشاعة.

(ج) سبق أن ذكرنا في الفصل الأول مبدأ للتصنيف أكثر تمييزاً بطابعه السيكولوجي، وهو المبدأ الذي يستند إلى نمط التوتر الدوافعي الغالب «الذي تنطوي عليه الإشاعة». ويذكر القارىء هذا التحليل لألف إشاعة في وقت الحرب، مما كان شائعاً عام ١٩٤٢، والذي كشف عن أنها تعبر جميعها تقريباً عن العدائية أو عن الخوف أو عن الرغبة. وعلى وجه الدقة فإن قليلاً منها لم تكن فيما يبدو غير تعبير عن توتر عقلي غالب عن نوع من الرغبة في الاستصلاح.

ولو ألقى القارىء بنظرة على جدول (١) فصل (١). فإنه يتبين أن هذه الدوافع الرئيسية قد أستخدمت كفئات أساسية في التحليل، كما يتبين أن

الجدول يتضمن أيضاً تحليلاً للمضمون يوضح «الموضوعات» التي تتجه إليها الكراهية، وتلك التي يتجه إليها الخوف، وتلك التي تتجه إليها الرغبة. وهكذ يجتمع هذان المبدآن في نفس التصنيف.

وتصنيف الإشاعات بالرجوع إلى الدوافع الأساسية هو فيما يبدو أيسر بكثير وقت الحرب منه وقت السلم. ولكن حتى بالنسبة إلى وقت الحرب فإن القسمة الثلاثية «كراهية ـ خوف ـ رغبة» تعد تبسيطاً مسرفاً ففي الواقع يمكن «لإشاعة خوف» (تتعلق مثلاً بفظائع العدو) أن تنطوي على عناصر من الاهتمامات الجنسية، أو حب المغامرة، أو على عناصر سائدة من مشاعر التفوق الخلقي. وشبكة الدوافع التي ترد إليها الإشاعة إنما هي مسألة شخصية، وإذا أردنا أن نتبين العلة في أن شخصاً بعينه ينجذب إلى إشاعة بعينها فإن ذلك يتطلب دراسة كلينيكية لذلك الشخص. وبالنظر إلى شدة تباين «الخلطات الدوافعية»، أو امتزاجات الدوافع التي يمكن أن تغذي إشاعة بعينها فإن أي تصنيف سيكولوجي مقضي عليه بأن يكون مسرف التبسيط، وتقريبياً.

انصهار بعض الانفعالات الوجدانية ومشاعر النفور

وهكذا نخلص إلى أننا لا ينبغي أن نتوقع أن ثمة إشاعة من الإشاعات لا ترتبط فحسب إلا بانفعال واحد، أو لا ترتبط فحسب إلا بإتجاه معرفي واحد، فالإساغة لا تتم بالاستناد إلى عنصر واحد. وحتى حين تكون الأقصوصة منتظمة البنية بصورة جيدة وواضحة البساطة، فإنها يمكن أن تكون بمثابة تفسير، وتبرير، ووسيلة تخفف بالنسبة إلى خليط من المشاعر.

ونجد في الإشاعات العدائية المألوفة ما يوضح ذلك. فمن الممكن أن تنصب هذه الإشاعات على وغد واحد لا غير، ولكنها ـ حتى حين تكون على هذا النحو ـ فإن الحالة العقلية الكامنة هي في الغالب بعيدة عن البساطة فهي غالباً ما تهاجم، بصورة مباشرة أو ضمنية، أكثر من وغد واحد. ولقد انتشرت قطعة زجلية منفرة، هي بمثابة إشاعة وافتراء موزونة، وذلك خلال الحملة الانتخابية عام ١٩٤٤، وكان كما يلي: قيل إن روزفلت قد قال مخاطباً زوجته:

أنت تقبلين السود.

وأنا أقبل اليهود.

بقي البيت الأبيض.

ويطول القعود.

هنا تنصهر ثلاثة مشاعر من النفور، وتتبدى العدائية ثلاثية الأفرع. وتكشف مجموعة من الإشاعات المناهضة لليهود عن أن أكثر الأنماط انتشاراً يطابل ما بين اليهود والشيوعيين كراهية ذات شعبتين. والأشخاص الذين يحتقرون إلى جانب اليهود «وولستريت» لا يجدون صعوبة في صهر أحكامهم القبلية تحت لافتة «رجال البنوك الفالميين» وهذه البطاقة الخاصة يمكن أن تنسحب في بعض الحالات على مخاوف مرضية أخرى، بإزاء الأجانب أو العلاقات الدولية في أية صورة من صورها. ولعل الرقم القياسي في صهر مشاعر النفور قد تحقق على يد هتلر في تشهيره بالديمقراطيات الجهنمية اليهودية الشيوعية العالمية.

وفي ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى انتشرت أقاصيص الفظائع التي تصور غدر البلجيكيين وتجريدهم من الإنسانية في معاملتهم للجيش الألماني. (ولقد كان الكثير من هذه الأقاصيص مطابقاً للأقاصيص التي شاعت في دول الحلفاء مع تغير في جنسية الأوغاد).

كانت تلك الأقاصيص في العادة تتهم الكهنة الكاثوليك بأنهم مهيجون للغوغاء، ومحرضون على الفظائع. وهكذا انصهرت الكراهية التقليدية التي يستشعرها الكثيرون من البروتستانت الألمان ضد الكاثوليكية المسرفة في التعالي، مع مشاعر الحقد ضد البلجيكيين الذين يقاومون الألمان. (فان لانجنهوف Van Langenhove ١٩١٦). وفي الحرب العالمية الثانية كثيراً ما ربطت الإشاعات الألمانية ما بين الكهنة الكاثوليك والديمقراطيين الاشتراكيين المناهضين للفاشية والشيوعيين، في حين كانت الإشاعات الروسية أحياناً ما تتهم الكهنة الكاثوليك بالتآمر مع النازيين.

وإننا لنجد إنصهاراً ليس فحسب ما بين مشاعر الكراهية وحدها وإنما أيضاً مع مشاعر الخوف والإثم والارتباك الاقتصادي، وذلك في الأقاصيص العجيبة «لأندية اليانور»، تلك التي إنتشرت في أعداد كبيرة في الولايات الجنوبية عام ١٩٤٣. كان موضوع هذه الأقاصيص ينحصر في أن أعداداً كبيرة من الزنجيات. وخاصة من الخادمات، قد إتحدت تحت الزعامة الروحية لألبانور روزفلت، وذلك بغرض الثورة على النظام الاجتماعي القائم. والانصهار الذي يبرز هنا في المحل الأول هو الإنصهار ما بين العداء ضد قانون التعامل الجديد New Deal وما ينطوي عليه من تحررية والعدائية التقليدية ضد الزنوج. لكن شبكة الدوافع توغل إلى ما هو أعمق من ذلك.

كانت هناك صور جد مختلفة للإشاعات المتعلقة «بأندية اليانور» التي كانت تسمى أحياناً بنات اليانور أو أندية ملائكة اليانور. أو «أخوات اليانور» أو «بيت اليانور الملكي» (أونام١٩٤٣).

وهذه العناوين المزخرفة تمثل ولا شك ضرباً من الإساغة للأنماط الجامدة المتعلقة بالنزعة الدينية عند الزنوج وولعهم بالأسماء الفخمة للمنظمات ولقد ذاع القول بأن شعار هذه الجماعات هو في خلال عام واحد كل أمرأة بيضاء تضطلع بمطبخها، وتدور إحدى قصص اليانور النمطية على النحو التالي: تغيبت سيدة بيضاء عن بيتها بعض الوقت فلما عادت وجدت خادمتها الزنجية تجلس على «تسريحتها» تمشط شعرها بمشط السيدة. وتصور قصة أخرى. الخادمة الزنجية على أنها إغتسلت في حمام السيدة وأنها احتفت بأصدقائها في حجرة الاستقبال.

وكانت إحدى الإشاعات تروي أن سيدة بيضاء طلبت إلى طاهيتها الزنجية أن تحضر لإعداد العشاء لضيوفها. وعندها ردت عليها الزنجية بأن طلبت إليها بأن تحضر إلى دارها في الثامنة من صباح الأحد لتعد الإفطار لضيوف الخادمة الزنجية.

ويحكى أن زنجية قد عرضت على سيدة بيضاء ما يلزمها من أجر نظير

قيامها بغسل ملابسها (الزنجية). وكانت الإشاعات تنطوي، من حين إلى حين على إشارات إلى أعمال العنف الوشيكة، مدعية أن الأندية كانت تكدس أزاميل الثلج، وسكاكين الجزارة استعداداً للثورة.

وجميع هذه الأشكال من الإشاعة فضلاً عن أنها تصور المشاعر المناهضة لروزفلت والمناهضة للزنوج، فإنها تكشف عن خوف وماضي من انعكاس الأوضاع الاجتماعية «فالإشاعات لا تقف عند تصوير الزنوج على أنهم يبذرون الضغينة تحت السطح»، وإنما تصورهم أيضاً على أنهم على حافة الثورة. إنهم يهددون بالانقلاب بعكس السلم الاجتماعي. ولكن لم ذلك؟ إن البيض من ناشري هذه الإشاعات يجدون فيها ما يفسر ويترجم - إلى حد بعيد - مشاعر إنعدام الأمن في المجالين الاقتصادي والاجتماعي. وهم إذ يعانون قلقاً غامضاً غير محدد، فإنهم يبررون اضطرابهم العصبي بإبراز عدائية الزنوج، ويحصلون على عزاء مكتئب غير تحذيرهم بعضهم بعضاً من هذا الخطر المهدد.

ولكن ينبغي علينا أن نوغل إلى أبعد من ذلك. إن إشاعة حول انعكاس «الأوضاع الاجتماعية» إنما تشير بطريقة ملتوية إلى أنه من الممكن أن تقوم صورة للعلاقة ما بين الأجناس غير الصورة القائمة.

وينبغي بحسب العقيدة الأمريكية أن لا تكون الأوضاع الحالية الظالمة في صميمها، حالة دائمة لكل أمريكي، كما أوضح ذلك ميردال Myrdal (١٩٤٤)، يعتقد ويأمل فيما هو أرفع من المستوى الحالي للعلاقات بين الأجناس. إنه يتفق في أعماقه مع باتريك هنري. مالك العبيد الذي كتب منذ عام (١٧٧٢): إني مصمم فأنا لا أستطيع أن أبرر ذلك.

وفي نفس الوقت فإن غالبية البيض لا يسمحون لأنفسهم إلا بنظرة من طرف العين لمأزقهم الأخلاقي. فلقد مر قرن ونصف قرن منذ وفاة باتريك هنري وما يزال الصراع قائماً، ذلك أن «حركة تحرير العبيد» لم تحرر العبيد إلا بالكلام. فلو أن البيض جابهوا المشكلة مجابهة صريحة لتمزقوا شطرين بفعل ولاءاتهم المتصارعة: ولائهم للعقيدة الأمريكية وولائهم للعقيدة المريحة في

تفوق البيض.

وبدلاً من مجابهة هذا الصراع الحاد العسير الحل ما بين ولاءين حميمين، يلجأ غالبية البيض إلى اللف والدوران والتبرير. وإشاعات الإفلات من الإثم يتلقفها الناس بشغف للخلاص من المأزق.

فإذا كان الزنوج، كما تصورهم أقاصيص أندية اليانور، من العدائية الصريحة إلى هذا الحد، ومن التآمر غير المشروع، ويمثلون تهديداً غوغائياً للأمن، إذن فليس لهم «حق» في المطالبة بالمساواة في الأوضاع الاجتماعية.

ليس لهم أن يتوقعوا منا أكثر مما نوليه للخارجين على القانون، وقطاع الطرق، والمحتالين. ينبغي أن يظلوا حيث هم. وإذا كانت هناك مظاهر حقيقية للظلم، فإن في صبرنا عليهم وتسامحنا معهم ما يزيد على ما يلزم لمعادلة ذلك.

وخلاصة القول أن الزنجي ولد عاق (مما يتضح من أقاصيص اليانور) وينبغي أن يعامل على هذا الأساس ـ في رفق ولكن بحزم وبفضل هذه المناورة العقلية الملتفة يستطيع المتعصب أن يفلت من مشاعر الإثم.

والإفلات من الإثم من الأمور التي يمكن الكشف عنها أيضاً في عدد هائل من الإشاعات التي تفصل ما يرتكبه الزنوج من أحداث تدل على ميولهم الإجرامية وخيانتهم. وتروي أقصوصة من أقاصيص الحرب أن الزنوج لم يكونوا يستدعون إلى الخدمة العسكرية بنفس التلهف الذي يستدعى به البيض، وذلك لأن السلطات المسؤولة كانت تتردد في وضع الأسلحة في أيديهم.

وحتى الحكايات الفكاهية الملفقة التي تدور حول غباء الزنوج وسذاجتهم وخمولهم تنطوي على نفس الدلالة الوظيفية، وكذلك الحال بالنسبة إلى آلاف الحكايات التي تروي اعتداءات الزنوج الجنسية. فكلها تحاول أن تخفف من مشاعر الإثم عند الرجل الأبيض ـ فما الذي يمكن أن نفعله بإزاء الزنجي وهو الخائن، المجرم، الجلف، الغبي، والخطير، النذل، اللهم إلا أن نبقيه حيث هو، تماماً كما نفعل معه الآن؟ فالمساواة من حيث هي مثل أعلى شيء معقول من الناحية النظرية، ولكن هذا لا يعني تطبيقها على المجرمين

والأوغاد، وعلى الزنوج.

وتعد الإشاعات الجنسية أعظم نصير للأحكام القبلية المناهضة للزنوج فلطالما يصور الزنوج على أنهم يتآمرون ليتخطوا حاجز اللون ويرتكبوا خطيئة التهجين (نكاح الأجناس المتباينة).

وتنصب الحكايات دائماً أبداً على الاتصالات الجنسية ما بين الرجال الزنوج والنساء البيض لا على الاتصالات الأكثر شيوعاً بين الرجال البيض والزنجيات.

فهنالك حكايات عن الاغتصاب الجنسي، ومحاولات الاغتصاب، وما هو أقل جاذبية من ذلك مما يصور الزنوج يتهجمون على النساء البيض، ويتعقبونهن في الطرقات. ويحاولون تكتيفهن ونحو ذلك.

كانت إحدى أقاصيص الحرب تروي أن الزنوج الذين لم يتم استدعاؤهم للخدمة (موضوع عدم الولاء) كانوا يقولون للبيض المرتحلين إلى الجبهة: «لا عليكم، فسنعنى نحن الزنوج براحة زوجاتكم في المؤخرة» (موضوع الجنس).

والإشاعات الجنسية عن الزنوج وإن كانت تشيع في العادة في الجنوب فإنها ليست بالقليلة في الشمال. ففي إحدى مدن نيو إنجلند، وهي من المدن المعروفة بالعلاقات الهادئة بين البيض والسود، انتشرت قصة محلية توضح العلة في إغلاق دور المياة في أحد المطاعم. والسبب الذي تذكره القصة (وهو وهمي تماماً) ينحصر في أن زنجيين قد أدخلا امرأة بيضاء في هذه الدورة واغتصباها.

وتيار الدوافع هنا جد عميق، فجميع المسائل المتصلة بالجنس، في التقليد الأمريكي البيوريتاني، تنطوي على شحنة إنفعالية عالية، ومن هنا فإنها تنسكب بسهولة في المناطق الأخرى ذات الانفعالية العالية. فالجنس، من حيث هو موضوع للاهتمام الخاص، إنما هو هدف دائم للإشاعة. فشأنه شأن التمييز الاجتماعي» يعد مصدراً لمشاعر الإثم الثقيلة. ولأن يؤنب الإنسان نفسه على خطاياه الجنسية (كما هو الشأن بالنسبة لخطاياه ضد العقيدة الأمريكية في

المساواة) فذلك ما لا يمكن بحال أن يكون مقبولاً.

وإنه لأفضل بكثير أن ينزل الشخص باللائمة ـ من أجل زلاته الواقعية والوهمية ـ على الآخرين.

والشبه ما بين الإشاعة الجنسية وبين إشاعة جماعة الأقلية جد عظيم، وذلك من حيث أنهما تنطويان معاً على الإسقاط الذي يحقق الإفلات من مشاعر الإثم. وهذا الشبه يسهل عملية الانصهار.

لم لا نفلت من الإثم بتكديس الخطايا الجنسية على رؤوس نفس الأشخاص الذين يهددون أوضاعنا الاجتماعية؟

فالكثيرون من الناس في أعماقهم السحيقة، لا يستشعرون الأمن من حيث أوضاعهم الاجتماعية، ولا من حيث مستقبلهم الاقتصادي، ولا من حيث مسايرة سلوكهم الجنسي للقيم الخلقية. فجميع هذه المسائل مركزية وحسية بالنسبة إلى حياتهم. ومثل هذه الاهتمامات الشديدة والمحورية لا يمكن أن تظل منعزلة بعضها عن بعض. فما يهدد الواحدة إنما يهدد الأخرى.

ومن هنا فكبش الفداء الذي هو الزنجي يبدو ليس فحسب، متعجرفاً من الناحية الاجتماعية، وإنما أيضاً كمضيف على أرزاقنا من الناحية المهنية، وأكثر اقتداراً وأقل تردداً منا من الناحية الجنسية.

ففي هذا الزنجي ندرك جميع المسالك الشهوانية الداعرة والإنتهازية والوصولية، مما يمكن أن تتردى فيه لو خلي بيننا وبين أنفسنا. إنه هو مرتكب الخطيئة. وحتى ولو كنا بغير منجاة من المأخذ فإن سيئاته (كما تصورها الإشاعة) مع ذلك، أكثر تبجحاً وإمعاناً من سيئاتنا. فليس علينا أن نستشعر الإثم من أجل هفواتنا الصغيرة.

وبينما تمضي هذه العمليات التبريرية في طريقها فإننا نستطيع أن نستشعر ـ عبر انحرافة جنسية ـ جاذبية الصفات الحيوانية القائمة للزنجي.

وإذا كان الأمر كذلك فينبغي أن نكبت بشدة هذه الجاذبية الشيطانية،

وأن نقاتل من خلال «التكوينات الضدية» أي بإنقلابنا ضد «الجاذبية» واستهجانها نقاتل الشيطان بصورة أعنف.

وإننا لنفعل ذلك بتمسكنا بأعظم التحريمات قداسة، ونعني التحريم القاطع لاختلاط الأجناس.

إن مجرد الفكرة تروعنا (أليس كذلك؟) فلو تداعى هذا التحريم، لانفسح الطريق أمام انهيار صوت مثلنا الاقتصادية والخلقية جميعاً. ولو تم ذلك لكان مني إعترافاً باندحاري أمام هذا الغريب الشرير الزنجي، الذي أنظر إليه في أعماقي اللاشعورية على أنه يمثل جانباً من الصورة الكريهة لذاتي.

ومهما يكن من تعقد تحليل الإشاعات المناهضة للزنوج، فإنه لا ينطوي على أية مبالغة من تصوير التشابك ما بين العناصر الانفعالية والمعرفية المنصهرة معاً، والتي تفسر العدة في جاذبية هذه الإشاعات. ويبدو أن القاعدة العامة عند الناس تنحصر في «تشخيص» أي تجسيد قوى الشر، وتركيزها في جماعة أقلية، واضحة الاختلاف، وقريبة منا. وأكثر الشياطين رواجاً اليوم، وإن لم يكونوا الوحيدين بحال، هم الشيوعيون واليهود والزنوج.

وحيث أن اللوم المنصب عليهم يزيد ولا شك على نصيبهم الحق، فإنا نسميهم من الناحية الفنية «كباش فداء».

جماهير الإشاعة:

لكل إشاعة جمهورها. فالإشاعات المالية تنتشر بصورة أساسية بين هؤلاء الذين يمكن لثرواتهم أن تتأثر بارتفاع وانخفاض الأسعار في الأسواق. والإشاعات المتصلة بتعديلات في قانون التجنيد، أو في ضرائب الدخل، والمتعلقة بخطط التطوير العمراني، إنما تنتشر بصورة بين الناس الذين يحتمل أن يتأثروا بها. وتلاميذ المدارس وكلهم يتطلع إلى العطلات، يتلقون في لهفة أي خبر يتصل بمؤتمر وشيك للمدرسين، أو يتصل بتصليحات ضرورية في مبنى المدرسة.

والجماعات المهنية والاجتماعية المختلفة تنطوي كلها على مناطق حسابية خاصة. والأطباء، ورجال الدين، ورجالى الطيران، وسماسرة الأحزاب، لا يتوانون في دفع عجلة الأقاصيص التي تدور حول المصالح الخاصة بجماعاتهم. كذلك الحال بالنسبة إلى أندية الشراب، وجماعات البردج، وحلقات الصداقة فثمة جمهور إشاعة حينما تتوفر مصلحة مشتركة.

ومهما يكن من أمر. فهنالك اختلافات فردية ملفتة للنظر فيما يتعلق بالحساسية والإشاعة. فليس كل أمريكي يصدق الافتراءات المضادة للزنوج حتى في المناطق التي يبلغ فيها التعصب أقصى شدته.

وفي كل قرية من السكان من يقاومون الإشاعات المحلية. فعندما تتوفر المصلحة المشتركة. وبل حتى يحين تتوفر درجة عالية من الغموض و «الأهمية» فإن الأشخاص لا يستحيلون حلقات ضمن سلسلة الإشاعة إلا إذا كانوا «منفتحين للإيحاء».

وانفتاح الشخص للإيحاء معناه أن يصدق دعوى دون توفر لأي دليل مما يمكن للمنطق أن يتطلبه.

وبعض الناس قد اعتادوا على التمحيص النقدى لكل ما يسمعون. إنهم بفضل تدريبهم على تحليل المعاني، أو ممارستهم لعلم الناس الاجتماعي له أو لغير ذلك من الأسباب التي تطبع التفكير بالصبغة النقدية، ينتظرون الدليل الذي يمكن التعويل عليه.

والأشخاص المنفتحون للإيحاء هم من ناحية أخرى أشخاص تتميز عقلياتهم إما بفقر البنية، وإما بما تغص به من أنماط وتراكيب أو عقد «جد جامدة». والجماعة الأولى، أصحاب العقليات الفقيرة «البنية» تضم كثرة من أنصاف المتعلمين. فالأحداث في المجالين الفيزيائي والاجتماعي هي بالنسبة إليهم الغاز، والعلم بالنسبة إليهم أرض مجهولة. لقد تبين كانتريل Cantril أن عدداً كبيراً من الذين إرتجفوا أمام الغزو الوهمي للأرض من جانب سكان المريخ، ما جاء في التمثيلية الخيالية المذاعة لأورسن ويلز، إنما كانوا أشخاصاً

بلبلهم الاضطراب السائد في أوروبا، أو الهبوط الاقتصادي أو التقدم المروع للعلم، بحيث اعتقدوا «أن كل شيء جائز الحدوث».

لقد كانت معلوماتهم من الفقر بحيث لم يفكروا في تبين صحة الإذاعة بالرجوع إلى البرامج في صحف الصباح، أو بتغيير المحطة، أو بالتحقق من صحة الأمر بأية طريقة بسيطة أخرى. لقد أفسحوا الطريق أمام الهلع وذلك لخلو عملياتهم العقلية من المراسي «النقدية» لم تكن عقلياتهم «راسية» عند شاطىء، ومن ثم أصبحوا نهباً لعواصف الأنباء المتقلبة.

ومن الممكن، وهذا هو الغالب، أن الأشخاص الذين ينفتحون للإيحاء بإزاء الإشاعة إنما يكونون أشخاصاً تتسم عقليتهم من بعض جوانبها، بمراسيها البالغة الجمود. «ففي خاناتهم» للتفسيرات والأحكام القبلية يقوم في التو إمتصاص الإشاعات «المتجانسة» بالنسبة إلى كل خانة.

فبعض الأشخاص الذين تقبلوا قصة غزو سكان المريخ للأرض كانوا من الأتقياء الذين يتوقعون نهاية العالم. وكان البعض الآخر يعيش في حالة من إنعدام الأمن نتيجة الهبوط الاقتصادي، متوقعين بين حين وآخر وقوع الكارثة، دون أن يتبينوا نوعها.

وتدل الأبحاث أيضاً على أن الافتراءات السياسية يتم تقبلها بشغف كبير من جانب الذين لا يثقون في الحكومة القائمة.

والأقاصيص الدائرة حول الحياة في داخل روسيا ـ موضوع رائع من حيث الغموض والأهمية والأحكام القبلية ـ إنما تلقى التصديق والرفض تبعاً لاتجاهات المستمع السياسية والاجتماعية. وإشاعات الكراهية لا تسري إلا بين الأشخاص المتهيئين من قبل لكراهية الضحية.

فالإشاعة، كالدعاية التي ترتبط بها ارتباطاً وثيقاً، إنما تنشط وتدعم إتجاهات قائمة من قبل أكثر مما تخلق إتجاهات جديدة.

وثمة شرط إضافي، هو أكثر الشروط وضوحاً، يتحتم تحققه كيما تسري الإشاعة. فالأشخاص أصحاب الحساسية للإشاعة ينبغي أن يكونوا على صلة

بعضهم بالبعض. ومثل هذه الجماعات الملتحمة الأفراد من قبيل طاقم البحارة على السفينة، وأفراد الوحدة المقاتلة، والمستخدمون في مؤسسة واحدة وأعضاء نادي الجمعة للبردج، وسكان المدينة الصغيرة، كلها تتسم بالتجانس المطلوب والاتصالات الوفيرة ففي هذه الجماعات تندفع الإشاعات مسرعة ولكن حتى في الجماعات المتجانسة توجد قنوات إنتقائية.

ففي معسكر من معسكرات الجيش مثلاً، مرقت كالبرق الإشاعة التي مؤداها أن جميع الرجال فوق الخامسة والثلاثين سيسرحون، ولكنها اقتصرت في مروقها على الرجال الذين تخطوا هذه السن. وفي إدارة من إدارات الأعمال، وفي المدرسة الداخلية، وفي حي من الأحياء تسري الإشاعات بصورة أساسية في قنوات الصداقة.

وسلاسل الإشاعات التي تنتج من الصلات الاجتماعية الحميمة ما بين مرددي الإشاعة ومستمعيها، قد تنبه إليها مورينو Moreno (١٩٣٤). وتنحصر طريقة هذا الباحث في رسم الخريطة الاجتماعية لجماعة ما، مما يبرز «المسارب السيكولوجية» التي تسري فيها الإشاعة.

وهذه الطريقة، التي تعرف باسم «القياس الاجتماعي» Sociomerty تتلخص في أن يطلب الباحث إلى الأشخاص أن يكتبوا أسماء من يفضلون من الأصدقاء (وربما يكون ذلك عن طريق سؤال الأشخاص عمن يفضلون الحياة معهم، أو العمل معهم، أو الإستمتاع بوقت الفراغ معهم). وشبكة العلاقات البينية التي تنتج من هذا البحث تسمح لنا بالتنبؤ بالقنوات التي يمكن أن تجري فيها جميع أشكال الصلات البين شخصية، وبما فيها الإشاعة.

وعلى الرغم من أن صلات الصداقة هي التي تصنع في العادة سلسلة الإشاعة، ففي بعض الأحوال تكفي أكثر الصلات العارضة سطحية لأحداث هذه السلسلة. فكيما نقتل الوقت في إحدى عربات البولمان، فقد نقيم صلة مع شخص غريب عنا تماماً، ومن خلال هذه الصلة يمكن أن تنبثق تقولات إشاعية منمقة. وفضلاً عن ذلك فإن الناس في أوقات الأزمات يكونون على استعداد

للتحدث مع أي شخص غريب يلتقون به عن الأزمة القائمة. ففي حريق خطير بأحد الفنادق سمع المارة يتناقلون الخبر «بأن ثلاثة، ثمانية، عشرة، عشرون نزيلاً قد حاصرتهم النيران في الطابق العلوي».

وهكذا فإن سلاسل الإشاعات يمكن أن تنشأ من السأم، أو من الإنفعال كما تنشأ بصورة متصلة من خلال روابط الصداقة.

ولقد قام مكتب الإعلام الحربي (١٩٤٢) بدراسة قيمة عن جماهير الإشاعة. أجرى البحث على مدينتين من المدن التي تأثرت بالحرب - نيوبرنزويك (نيوجرسي) وبورتلاند (مين).

وفي المدينتين على السواء تبين أن الأشخاص الذين كانوا «متابعين للأخبار»، بحسب تقدير الباحثين قد كشفوا عن ميل أكبر لترديد الإشاعات بالقياس إلى الأشخاص الذين اعتبرهم الباحثون أقل تتبعاً للأخبار. فبالنسبة إلى المتابعين للأخبار تزداد الموضوعات التي تبدو ذات أهمية، وجديرة بالتفكير، وجديرة بالتحدث عنها. كما إنهم يكونون في العادة أعظم حظاً من حيث سهولة التعبير اللفظي، وأكثر تعوداً على التحدث عن أفكارهم ومشاعرهم دون تردد. أضف إلى ذلك أن الأشخاص الذين يسهمون في الحياة الاجتماعية على نطاق أوسع قد تبين أنهم أكثر تهيئاً للإشاعة، بالقياس إلى الأشخاص المنعزلين نسبياً.

فالنساء العاملات مثلاً يسمعن ويرددن من الإشاعات أكثر مما تفعل ربات البيوت. ومن بين الأشخاص الذين كشفت الاختبارات عن اتسامهم «بنشاط اجتماعي واسع» تبين أن ٦٠٪ منهم عملاء إشاعة، وذلك في مقابل ٣٠٪ بين الأشخاص المنعزلين نسبياً.

وتتطلب هذه الدراسة كلمة تعليق. هل الأشخاص الذين اعتبرهم البحاث «متابعين للأخبار» كانوا حقاً كذلك؟ وهؤلاء الأشخاص لو أنهم عرفوا جميع المعلومات الخاصة بواقعة ما لأصبحوا أقل تهيؤاً للإشاعة لا أكثر تهيؤاً لها. إن ما يكشف عنه البحث هو أنه كلما اتسع مجال الاهتمام، زادت الفرص الممكنة

لانتشار الإشاعة.

ولقد أشرنا في الفصل الأول إلى أن الأخبار إنما تكون فحسب ذات فاعلية مضادة حين تكون كاملة ومجردة عن الغموض. ولا شك أن «المتابعين للأخبار» من المواطنين يكثرون من قراءة الصحف، ويستمعون إلى العديد من الإذاعات، ولكن أفقهم الاجتماعي الفسيح يمكن أن يظل ملتبساً.

فالأحداث النائية في الغالب أقل الأحداث إتاحة للفهم الواضح، ومن ثم فإنها تكون أكثر قابلية لأن تنتظم في بنية خيالية، مما يتحقق في الإشاعة.

حملات الهمس:

رأينا كيف أن المشاعر القوية يمكن أن تعين شرارة الإشاعة على أن تقفز الهوة التي تفصل ما بين الغرباء.

ولهذا السبب نجد في وقت الحرب، وفي حالات الكوارث، وفي فترة الانتخابات أن الإشاعات غالباً ما تفيض بها مساربها الطبيعية. وحيث أن هذه الإشاعات تكون في الغالب فاقعة اللون، فاضحة بذيئة، فإنها تنتقل بصورة صريحة أو مجازية عبر الهمسات.

ولما كانت المسائل السياسية مجالاً للمشاعر القوية بالنسبة للكثير من الناس، فإننا نستطيع في الغالب أن نؤكد قيام «حملات الهمس» حول المرشحين للإنتخابات.

وبقدر ما تكون الكراهية عميقة بإزاء أحد المرشحين، تتسع جبهة الإشاعات التي تهاجم دوافعه، وحياته الماضية، وأسراره الحميمة، ونواياه المقبلة.

ومنذ أوقات بعيدة وحملات الهمس تلوث إنتخابات الرياسة عندنا «في أمريكا».

وعلى الرغم من تباين شخصيات الضحايا، تباين أندرو جاكسون عن وارين هاردنج، فإن موضوعات الافتراء هي في العادة واحدة: علاقات جنسية

محرمة، معاملة وحشية للزوجة، إدمان على الشراب، واشتمال الدم على عنصر زنجي أو يهودي. وجهت إلى جفرسون تهمة الإلحاد وفساد الخلق. وقيل عن جارفيلد إنه على وشك الطلاق. وقيل عن أرثر أنه يحيا حياة الزنا مع سيدة مجتمع في واشنطن أما كليفلاند فقد أذيع أنه كان يفرط في الشراب ليلاً ويضرب زوجته. وكان هار دونج يحمل في عروقه دما زنجياً، وكان آل سميث من الناحية السياسية بوقا للبابا (لمجرد أنه كان من الكاثوليك العلمانيين المبرزين). وكان «فرانكلين روزفلت» يهودياً ومجنوناً.

والمرشح الذي نبغضه، يصبح بعدما يكتسي بهذا الطابع «الشيطاني» أكثر استحقاقاً لكراهيتنا ومناهضتنا. فقبل أن نسمع الإشاعة كنا «نظن» أنه شيطاني؛ أما الآن فإننا «نعرف» أنه كذلك، والديناميات ها هنا تشبه الديناميات الخاصة بالافتراءات المناهضة للزنوج؛ والرجل الثري مثلاً لا يجد ما يبرر به نفوره من الإصلاحات التحررية التي تعمل على الحد من ثروته عن طريق الضرائب المرتفعة؛ وذلك لأنه يعلم تماماً أن العدالة الاجتماعية تتطلب بالذات مثل هذه القيود. ولكن إذا أشيع عن المرشح التحرري أنه داعر، مجنون، زنجي السلالة، فعندها يتوهم الرجل الثري أنه يعارض عن حق. إنه شاعر الخصومة تنتشر كما تنتشر بقعة الزيت حتى يعد مستحيلاً تبين المركز الأصلي للبقعة.

ولقد لوحظ في بعض الأحيان أن حملات الهمس تلعب في الإنتخابات المحلية دوراً أقل مما تلعبه في الإنتخابات القومية. فلو صحت هذه الملاحظة لكان تفسيرها ذا شقين: فالحملات المحلية، من ناحية تثير في العادة حماسة أقل، وذلك لأن موضوعاتها نادراً ما تكون ذات قيمة أساسية بالنسبة إلى مصالح الشخص الاقتصادية، ومن ناحية أخرى فإن المرشح المحلي يعد إلى حد بعيد معروفاً جيداً من ناخبيه، وجانب الغموض في حياته الشخصية والسياسية هو أقل بكثير منه عند المرشحين للرئاسة، هؤلاء الذين يمكن بالنسبة إليهم أن يبدو أي شيء صحيحاً.

وحملات الهمس «التجارية» ليست بالمجهولة. فبعض الأخصائيين في

فن الإعلان، وبعض المستشارين في العلاقات العامة، المعروفين بانتصارهم للمغامرة أكثر منهم للأخلاق، قد وجدوا أنفسهم مضطرين لاستحداث هذه الحملات (ليتل وماكارثي ١٩٣٦). عميل يتقاضى أجره، يستطيع من نقطة مناسبة في الحديث، وهو في عربة البولمان، وعند الحلاق، وفي ملعب الكرة، أن يطري مزايا سلعة ويفتري على السلع المنافسة لها. ولكن من المشكوك فيه أن مثل هذه الممارسة الإشاعية تتمخض عن نتائج إيجابية. وينحصر ضعفها من الزاوية السيكولوجية في أن المستمع قلما ينظر إلى موضوع الحديث على أنه ذو «أهمية» وحتى في حالة ما تنغرس عند المستمع بذرة من التفضيل للسلعة المعينة، فليس من المحتمل أن يتحمل عناء تكرار القصة لأصدقائه فالنقود وإن إستطاعت أن تستأجر عميل إشاعة فهي لا تستطيع أن تخلق سلسلة إشاعة.

الصحافة والإشاعة:

على الرغم من أن الإشاعة تنتقل أساساً عن طريق الحديث التلقائي الشفوي فلا ينبغي أن نقلل من أهمية الدور الذي تلعبه الكلمة المطبوعة وفي البلاد التي تخضع فيها الصحافة لحكومة تسلطية، يمكن للكلمة المطبوعة أن تصبح المنبع الرئيسي للإشاعات. كان ذلك هو الحال في ألمانيا وإيطاليا واليابان ولقد كان إستنبات الإشاعات صورة من أهم الصور المستخدمة في دعاية المحور.

وحتى في البلدان التي تكون الصحافة فيها حرة، فإن الصحف يمكن أن تخوض، دون وعي منها، في الإشاعات، وربما كان ذلك عن طريق خطئها في صحة «مصدر الخبر»، المصرح به. وفي حالات جد نادرة يكون إيلاج الإشاعة أمراً متعمداً.

فقد يعتمد بعض رؤساء التحرير، كما كان يفعل هتلر، على قصر ذاكرة الجماهير، وعلى عدم استعدادها للتحقق من صحة الأخبار. نقرأ في العنوان الرئيسي لجريدة هرست Hearst ما يلي: «٩٠٪ من الأساتذة يعلمون الشيوعية، هكذا يصرح مشرع سابق». وقل من الناس من يتنبه إلى أن أي عنوان يمكن أن

يكون إشاعة.

ولكن الكثير من العناوين الرئيسية، بفضل ما تنطوي عليه من «إبراز» و «لوي» (إساغة بالنسبة للأحكام القبلية لرئيس التحرير)، تحقق بدقة قانون الإشاعة.

ويكشف سلدز Seldes (١٩٣٥) عن أن قصة الخبر، التي وضع لها العنوان السابق الذكر، لا تبرر بأي حال هذا العنوان المثير.

والهوة التي أحياناً ما تفصل العنوان عن المضمون ليست بالأمر غير المألوف. فالعنوان يكشف (من حيث هو إشاعة) تحيز رئيس التحرير أو صاحب الجريدة، في حين أن المضمون يضطلع، بفضل صياغته، وبما ينطوي عليه من تدليل، بتغطية موقف الواحد أو الآخر.

وبنفس الطريقة قد يكون العرض الانتقالي للأخبار، الذي تنطوي عليه القصة الإخبارية العادية، نوعاً شبيهاً بالإشاعة. حقاً إن القصة المطبوعة يمكن أنت تكون صورة حقيقية، ولكنها مع ذلك لا يمكن أن تقول الحقيقة كلها وبدقة، بل وكثيراً ما تفشل في عرض الحقائق المتعارضة بصورة غير متحيزة.

ومن ثم تكون القصة الناتجة، بالضروة، صورة ملوية بعض الشي، وعندما يتذكر القارىء الموضوع أو يحكيه، فالغالب هو أنه يدخل عليه مزيداً من «الإبراز»، وذلك في نفس الاتجاه الذي عانت فيه القصة الإبراز أول مرة.

وإن تحليل المضمون لصحافة بوسطون، في الفترة التي كان فيها «قانون الحياد»، معروضاً أمام الكونجرس عام ١٩٤٠، ليكشف عن أن معظم الصحف تفسح مجالاً أكبر للمقالات والتعليقات المناصرة لوجهات نظر رؤساء التحرير.

وأكثر من هذا أن الصحف كانت تميل إلى أن تضع في صدر المقال الإخباري الوقائع والآراء المؤيدة لوجهة نظر رئاسة التحرير، أما الوقائع والآراء المعارضة فتأتي في ذيل المقال. وهذه الخطة الماكرة في تحرير الصحف إنما كانت تضطلع بعملية «تسوية» للآراء المعارضة في ذهن القارىء، وبعملية «إبراز» للآراء المؤيدة.

وصحافة باريس في أواخر عام ١٩٤٥ ركبتها شياطين الإشاعات التي تدور حول مرض ستالين.

ولقد صورت الصحف المناهضة للشيوعية ما كان يدور وذلك بطريقة تنطوي على «الإبراز» بما يوحي بقيام أزمة في روسيا. أما الصحف المناصرة للشيوعية فقد كانت تتجاهل هذه الأخبار، أو كانت تنكر ما يشاع من مرض، وأزمة على السواء (زرنر ١٩٤٦).

ومراسلو الصحف يجدون أنفسهم في وضع سيكولوجي حرج. فمهما تكن نواياهم طيبة، فإن رواياتهم يستحيل عليها أن تفلت من الوقوع في اللوى الذي تتميز به الإشاعة. فنادراً ما يكون المراسل شاهد عيان للوقائع التي يرويها، وإنما هو يصل إلى المسرح بعدما يكون الحادث الجدير بالذكر قد وقع وانتهى.

ومن المحتمل أن يكون المصدر الذي يستقي منه أخباره بعيداً بشخصين أو ثلاثة عن الشاهد الأصلي (هذا الذي لا ينبغي أن نتصور له حظاً كبيراً من الدقة بحال). لقد غدا الخبر بالفعل «قيلاً وقالا». وما يسطره المراسل، وينمقه المراجع، قد يتعرض للمزيد من الإنزلاق في طريق محفوف «بالتسوية» و «الإبراز» و «الإساغة».

ويذكر سلدز مثالاً مستمداً من الطبعة الباريسية لجريدة شيكاجوتريبون: ممثلة تنتحر.

القصة	الوقائع
بلغراد، اكتوبر ٢٨ ـ في الليلة الماضية، وقبل الموعد المحدد بدقائق لظهورها على مسرح لوبليانا، وجدت مدام الأبهر Alla beh الممثلة السلافية، تتدلى مشنوقة في غرفة ملابسها، وما يزال سبب الانتحار مجهولاً.	كان الانتحار بعد المشهد الأول. ولم يكن في لوبليانا وإنما في كلا جنفورت. أما الاسم فهو الأبير Ella Beer والممثلة ليست سلافية وإنما من فيينا. والحادث لم يقع في غرفة الملابس بالمسرح في الفندق. وسبب الانتحار معروف.

ويخلص سلدز إلى القول «كان النص المطبوع يقع في ستة أسطر ونصف، وكان يشتمل على سبع وقائع، ومن هذه الوقائع السبع، واحدة فقط صحيحة وهو الانتحار، أما بقية الوقائع فخاطئة». (سلدز Seldes ١٩٣٥) وفي مثل هذه الأشكال من اللوى لا نستطيع أن نلقي باللوم على دوافع المراسل.

وكما هو الحال في تجاربنا، فإنه على الرغم من عظم الرغبة في تقديم تقرير دقيق، فإن المراسل أو الناقل يظل تحت رحمة هذه العمليات النمطية، من «إعادة تنظيم البنية» و «التعشيق»، التي تلاحق كل تناقل متسلسل.

ولسبب أو أكثر من الأسباب التي ذكرناها الآن يتسم جانب كبير مما نراه في صحفنا ببعض الخصائص المميزة للإشاعة، ومع ذلك فإن التعارض القوي ما بين الخبر والإشاعة يظل «من حيث المبدأ» غير قابل للانتهاك.

فالخبر يتميز في حالته المثالية بمسايرته للمعايير الوثيقة للصحة، أما الإشاعة فتتميز بانعدام مثل هذه المسايرة. ومهما يكن من وضوح هذا التمايز من الناحية النظرية ما بين الخبر والإشاعة، فإنه مع ذلك في الغالب غير فعال في أذهان الجماهير.

فبعض الأغرار يصدقون فيما يبدو كل ما يقرؤونه في الصحف وكل ما يسمعونه من الراديو. فعندهم تستوي القطعة القائمة على القيل والقال من حيث الصدق مع القطعة المدعمة بالمستندات وعلى العكس من ذلك، هنالك أشخاص من أصحاب النزعة النقدية المسرفة «لا يصدقون أبداً أي شيء في الصحف». (أما الشاكون، في صحة الأخبار المذاعة بالراديو فهم أقل عدداً). لقد استحالوا إلى «شكاك مزمنين» بعدما لدغوا مرة أو مرتين.ففي خلال الحرب العالمية الأولى نشرت قصص زائفة كثيرة عن فظائع الحرب، وكان من نتيجة ذلك أنه أصبح من الصعب على الكثيرين من الأمريكيين خلال الحرب العالمية الثانية أن يصدقوا أن الأخبار المقابرية، والصحيحة مع ذلك، عن معسكرات الاعتقال كانت تستند إلى أدلة أكيدة. والكثير مما يستحق التصديق في نشراتنا الإخبارية ينظر الناس إليه في استخفاف على أنه دعاية.

ولو أن الناس أصبحوا في المستقبل متنبهين للإشاعة، كما تحقق لهم من الماضي أن يكونوا متنبهين للدعاية، فسيجد المراسلون، وصائغو العناوين، والمحررون، صعوبة متزايدة في الإحتفاظ بثقة الجماهير.

الإشاعة المعنونة (المعروفة كإشاعة):

ما هو الأثر الذي ينتج عندما نخبر الناس بأن ما يسمعونه هو مجرد إشاعة؟ ثمة تجربتان تلقيان الضوء على هذا السؤال، وتكشفان بجلاء عن أن جمهورنا لم يصبح بعد «متنبهاً للإشاعة».

قدم كيركباتريك Kirkpatrick (١٩٣٢) إلى طلابه الذين أجرى عليهم التجربة مجموعات من العبارات الإخبارية التي زعم أنها مقتطفات من الحياة اليومية. صدرت نصف هذه العبارات بالتعبير «يشاع أن...»، بينما تم تقديم النصف الآخر على أنه أخبار مباشرة. كانت جميع العبارات وهمية.

ولقد كشف تحليل تقديرات التصديق هذه التي قدمها الطلبة، عن أن التعبير التحذيري «يشاع أن..» لم يكن له تقريباً أية فاعلية في إعاقة التصديق.

وفي وقت قريب استخدم ج. هـ. سميث Smith مجموعة من العبارات الإخبارية الوهمية، بعضها مناصر، وبعضها مناهض للاتحاد السوفيتي. وكان الأشخاص الذين أجريت عليهم التجربة طلبة تم قياس إتجاهاتهم إزاء روسيا بواسطة سلم إتجاهات.

ولقد قدمت العبارات الإخبارية تحت عناوين ثلاثة مختلفة. فقدم بعضها على أنه «وقائع» أكيدة، وبعضها على أنه «إشاعات» لم يتم التثبت من صحتها بعد، والبعض الأخير بغير عنوان على الإطلاق. وقد سجل الطلبة درجة تصديقهم أو عدم تصديقهم للعبارات على سلم يتراوح ما بين الرفض والقبول المطلق.

وتدل نتائج سميث على أن العبارات المعنونة «وقائع» كانت تلقى التصديق في سهولة أعظم، بينما لقيت العبارات المعنونة «إشاعات» أقل

التصديق، أما العبارات غير المعنونة فقد احتلت مكاناً وسطاً. وعلى أية حال فإن العبارات غير المعنونة «وقائع» كانت أكثر فاعلية في توجيه التصديق بأكثر مما كانت العبارات المعنونة «إشاعات» في إعاقة التصديق.

وبعبارة أخرى يمكن القول بأن العباراة المعنونة «إشاعة» كانت تشبه في نتائجها العبارات غير المعنونة على الإطلاق. فعنونة العبارة على أنها «واقعة» إنما تكسبها امتيازاً يولد تقبلاً واضحاً. أما عنونة العبارة على أنها إشاعة فذلك لا يعدو أن يضعها ضمن فئة الأحاديث غير المحددة. فالناس نادراً ما يديرون رؤوسهم في خجل أمام النعوت والصفات في العناوين.

فعندما يسمع السامع شيئاً يحمل عنوان «الوقائع» فإنه يبدو وكأنه يقول لنفسه: «واقعة! الوقائع صحيحة، يتحتم علي تصديقها». أما عندما يسمع شيئاً بعنوان «إشاعة» فإنه يتردد لحظة قبل أن ينتهي إلى القول: «حسناً، فالإشاعات يمكن أن تكون صحيحة»، وإذا كان لديه إستعداد سابق لتقبل العبارة فإنه يتيح لها أن تغير من إحتمال الصدق.

في هذه التجارب يبدو الاتجاه القائم من قبل أكثر أهمية من أي «عنوان» وذلك لأنه تحت مختلف الظروف التي أجريت فيها تجربة سميث كانت الدرجات على «سلم التصديق» مسايرة بصورة إيجابية للدرجات على «سلم الاتجاهات» فالأشخاص المناصرون لروسيا هم أكثر ميلاً إلى تصديق سياق الوقائع أو الإشاعات التي في صالح روسيا. أما الأشخاص المعادون للإتحاد السوفيتي فهم أكثر ميلاً لتصديق سياق الوقائع أو الإشاعات التي في غير صالح روسيا.

وعدم الفاعلية النسبية للعنونة «إشاعة» ينطوي على اعتبارات عملية هامة. فذلك يعني أننا لا نستطيع قتل الإشاعات بمجرد وصمها بالعنوان «إشاعة». فإن الأمر يتطلب طرائق أكثر جدية للدحض، تتضمن استثارة دافع الوطنية أو مشاعر الخزي عند الأشخاص وربما توعية بأساسيات سيكولوجية الإشاعة.

ولقد كانت هذه الطرائق هي هي التي لجأت إليها عيادات الإشاعة

وجدير بالأهمية أن نتنبه أيضاً إلى أن العنونة «وقائع» تستثير تبجيلاً وإيجابية عند السامع. والأخصائيون في الإعلان ممن يستخدمون على نطاق واسع التقريظات الشبه علمية يعرفون ولا شك هذا الاستعداد عند الناس. ولكن لسوء الحظ أن «الرمز» وحده هو الذي يستثير التصديق فليس كل ما يحمل الرمز «وقائع» يرتفع في حقيقته إلى مستوى عنوانه.

وكيما تكسب الإشاعات لنفسها التصديق فإنها غالباً ما تتقنع في صورة الوقائع، أو تنتسب إلى جهات رسمية عليا لتسند دعواها.

وكثيراً من الإشاعات ما يبدأ: «كان أخي يتحدث مع واحد من الذين في الصورة»، أو «كان رئيس المباحث نفسه يؤكد»، أو «سمعت ذلك من أعظم مصدر مسؤول...»، وثمة طرائق أخرى من قبيل تحديد أسماء المدن أو الشوارع التي تدعي الإشاعة أن الحادثة وقعت فيها، تعين على إسباغ صحة زائفة. فالتحديد العياني لمكان حادثة ما يتضمن فيما يبدو أن الحادثة لا بد وأن تكون قد وقعت.

الإشاعة والفكاهة:

حيث أن كل إشاعة إنما هي «قضية مقدمة التصديق»، فإنها تدعي تقرير واقعة، أو تصف حالة قائمة، ولكن الكثير من الأقاصيص التي تنتشر إنتشار الإشاعة إنما هي نتاج صريح للخيال، لا تستهدف إثارة الضحك ومع ذلك فإنها هي الأخرى يمكن أن تعبر عن الكراهية الأجناسية أو تنطوي على نقد سياسي، أو تضطلع بالتنفيس عن بعض مشاعر انفعالية مقموعة.

فالفكاهة والإشاعة سواء من حيث طريقة السريان أو من حيث الوظيفة، غالباً ما تتكشفان عن تشابه يبعث على الدهشة.

وهناك قصة نعمت بإنتشار واسع في البلدان الأوروبية الدكتاتورية كان أحد المواطنين يسير على شاطىء نهر عميق وفجأة سمع صوت استغاثة مكروبة لرجل يغرق. فقفز إلى الماء، وعاد بالرجل سالماً إلى الشاطىء وعندها قدم

الغريق نفسه في اعتزاز قائلاً أنا موسوليني (أو أنا هتلر أو ستالين، تبعاً للبلد التي تروى فيها القصة).

لقد أنقذت حياتي. فلتطلب في مقابل ذلك ما تشاء يكون لك ما تريد.

فأجاب المنقذ «ليس لي غير مطلب واحد، لا تقل لأحد إنني أنا الذي أنقذتك ليست إشاعة ـ وربما لا تكون أيضاً فكاهة جد فكهة ـ ومع ذلك فقد ألقي برجال ونساء في سيبريا» أو في معسكرات الاعتقال الألمانية، أو في المستعمرات الإيطالية التأديبية، لأنهم رددوا مثل هذه القصة على مسمع من مخبر.

ويوضح هذا المقال القرابة السيكولوجية الوثيقة ما بين الفكاهة والإشاعة. فكلتاهما يمكن أن تكون مطية للتعبير عن المشاعر الحميمة، ودون ما وعي صريح من جانب القائل بوجود هذه المشاعر. فالشخص الذي يغلب عليه حصار الجنس (فكرة ثابتة مهيمنة) لن يسلم بهذه الحقيقة في صراحة، ولربما حتى فيما بينه وبين نفسه. ولكنه قد ينطلق، أمام أوهى إثارة بالفكاهات أو التقولات العاهرة (بعض الأشخاص هم أكثر ميلاً للفكاهات والبعض الآخر أكثر ميلاً إلى الفضائح).

وعندما تشتمل الفكاهة على لدغة متميزة، كما هو الشأن في فكاهة الدكتاتور السابقة، فإنها من الناحية الفنية «نكتة تجاه» (أي تعبر عن اتجاه) فبدلاً من أن يقول الشخص «أنا أكره الزنوج» فإن بوسعه أن يردد الفكاهات المحقرة للجنس الزنجي.

وليس من شك في أن من الممكن أن يردد الآخرون دون وعي، ودون أن يكون لديهم، حتى في المستوى اللاشعوري، المقصد المغرض ولكن أغلب الفكاهات التي تنطوي على تحقير ضحايا أو السخرية منهم أو الحط من شأنهم إنما ترسخ مع الوقت، شأنها شأن الإشاعات، بفضل ما لها من قيمة تنفيسية.

وإنه لمن العسير بصفة خاصة أن نرسم حداً فاصلا ما بين الإشاعات العدوانية التي تطلق في لباس فكه، وبين الحكايات المغرضة التي هي مجرد

فكاهات فالدلالة الوظيفية في الحالتين تكاد أن تكون واحدة، وكلتاهما يمكن أن تكون بنفس الدرجة جائرة وجارحة لضحاياها. والإختلاف بينهما إن وجد إنما يكمن بالكلية في مدى ما يمكن أن تستند إليه القصة من دليل يمكن التحقق من صحته.

الإشاعة والشغب:

إن جراثيم الإشاعة ـ أو على وجه الدقة باسيليات الإشاعة ـ إنما هي أبداً حية نشيطة ضمن الكيان الإجتماعي. وهي أحياناً ما تتحرك حركة بطيئة وبصورة غير سامة. هي أحياناً أخرى ما تتفجر عنيفة في صورة الحمى.

ومن سوء الحظ أن الحمى تشتعل في أخطر صورها عندما يكون الكيان العضوي أقل ما يمكن قدرة على احتمال خسائرها. فالحروب والاضطرابات والأوبئة والكوارث، وكلها مدمرة بذاتها، إنما تصبح أكثر تدميراً عندما تنضاف إليها مضاعفات الإشاعات.

وتكشف الإضطرابات الخطيرة عن الصلة الوثيقة بين حركات الشغب والإشاعات. وليست هنالك حالة واحدة يمكن أن ندعي فيما يتعلق بها بأن التقولات كانت هي العلة الوحيدة أو الأصلية للشغب، ولكنها مع ذلك تلعب فيما يبدو دوراً مساعداً هاماً على الدوام. والحق هو أن الأدلة التي نملكها على ذلك لهي من قوة الإقناع بحيث نستطيع أن نجعل من هذه الحقيقة قانوناً من قوانين علم النفس الاجتماعي مؤداه أن «ليس هنالك من شغب يمكن أن يحدث بغير ما إشاعات تستثير العنف وتصاحبه وتغذيه». ويمكننا أن نميز في العادة أربع مراحل في هذه العملية.

(١) تسود لفترة من الوقت قبل الانفجار همهمات عدم ارتياح وهذه الهمهمات يمكن أن تتخذ صورة أقاصيص تصور التفرقة العنصرية، أو الإهانات أو أفعال السوء مما تنسبه الجماعة إلى خصومها. وفي هذه المرحلة لا يختلف مجرى الإشاعات عن المجرى العادي للأقاصيص العدائية والمنطوية على

الاتهام. فإنها تبدو للسامع شبيهة بالافتراءات اليومية المتعلقة بالمسالك المعيبة للزنوج أو اليهود، أو بجشع الموظفين، أو بطش رجال البوليس ولكن عندما يزيد الأمر عن السريان العادي، أو عندما تبلغ الأقاصيص من الخباثة درجة حادة؛ فإنه يحق لنا أن نشك في أنها مرحلة مهيئة للشغب.

فهذه الأقاصيص في ذاتها لن تتمخض عن العزف. وإنما هي تعمل فحسب كبارومتر يكشف عن تفاقم التوتر الاجتماعي، ويشير إلى أننا نتعرض للعاصفة ما لم تغير الرياح الاجتماعية من اتجاهها.

ففي اضطرابات صيف عام ١٩٤٣، حيث وقعت تمردات أجناسية عديدة. وتراءت تمردات أخرى وشيكة، سجلت الدراسات قيام فترة سابقة من السريان الغزير للإشاعات.

(٢) وتتضح إشارة الخطر حين تتخذ الإشاعات صورة نوعية مهددة. «سيقع أمر الليلة عن النهر»، «لا يفوتك أن تحضر إلى الملعب لترى المهزلة عقب المباراة»، «هذا الزنجي سيمسكون به الليلة، ويزهقون أنفاسه». وأحياناً ما تنسب الأقاصيص عنفاً وشيكاً لمعسكر الخصوم: «أبناء السفاح يختزنون الأسلحة منذ شهر».

ففي أثناء اضطرابات ديترويت في أوائل صيف عام ١٩٤٣ أشيع أن عربات محملة بالزنوج المسلحين تتجه من شيكاغو إلى ديترويت. وهذه الإشاعة المشؤومة قد انتشرت إلى حد أنها أذيعت من إحدى محطات الراديو دون تقدير للمسؤولية. (لي وهمفري ١٩٤٣ ص ٣٨) ولم يكن بد من أن يزيد ذلك من الهلع المهيمن.

وفي هذه المرحلة عندما يبلغ الأمر حد التنبؤ والإحساس الصريح بالتهديد بانفجارات الشغب، يتحتم على البوليس أن ينظم صفوفه ليمنع هذا التهديد من أن يتجسد. فالوقت الملائم لمنع التمرد إنما يكون قبل وقوعه... وثمة مثل رائع على الأعمال الوقائية للبوليس تحقق في واشنطن خلال نفس الصيف المضطرب لعام ١٩٤٣.

قالت الإشاعة أن أعداداً هائلة من الزنوج دبرت ثورة. وأن الحركة ستنطلق ابتداء من استعراض يقوم به الزنوج وتحدد له يوم معين. وكانت هذه الإشاعة ترمي إلى تعبئة جيش مضاد من البيض. ولقد استطاع بوليس واشنطن، بفضل ما اتخذه من اجراءات حاسمة قبل الوقت المحدد، وبفضل ما أتاحه من حماية فعالة للزنوج السائرين في الإستعراض، أن يقطع الطريق على الاصطدام المهدد.

(٣) وغالباً، وإن لم يكن ذلك هو الحال دائماً، ما تكون الشرارة التي تشعل برميل البارود هي نفسها إشاعة ملتهبة، فحركة التمرد الخطيرة. بحي هارلم في أغسطس ١٩٤٣ قد جاءت مباشرة في أعقاب إشاعة مختلفة الصور عن حادث وقع ما بين جندي زنجي ورجل بوليس من البيض في إحدى ردهات فندق بحي هارلم. ولقد تمخض الشجار عن إصابة رجل البوليس بجرح بالغ. بينما أصيب الجندي في كتفه، ولكن الإشاعة دوت أن الجندي الزنجي قد أصيب برصاصة في ظهره وقتل وما هي إلا دقائق حتى تجمعت الجماهير الغاضبة أمام الفندق، وعند مركز البوليس، وأمام المستشفى الذي نقل إليه الزنجي المصاب. ولم تلبث الجماهير الدهمائية الغاضبة الحانقة، والمثقلة أبداً بالمظالم الأجناسية والفقر والتكدس في مساكن حقيرة، أن شمرت عن سواعدها، فنهبت العديد من المخازن، ودمرت من الممتلكات ما يقدر بملايين الدولارات. وينبغي أن نتنبه إلى أنه على الرغم من أن حادثاً أجناسياً قد سبق التصرفات الدهمائية، فإن الهياج الناتج لم يكن شغباً أجناسياً. فغارات السلب التي ارتكبها الزنوج انصب بصورة أساسية على ممتلكات زنجية. لقد بدأ العنف وكأنه بلا هدف، إندلع حين واتته الفرصة، نتيجة لإحباطات مزمنة وغير محتملة. وترينا هذه الحادثة كيف يكون عنف الدهماء مجرداً عن الخطة والهدف عندما ينطلق.

وعلى العكس من ذلك كان انفجار ديترويت، وهي الأفدح في خسائرها تمرداً أجناسياً بمعنى الكلمة. كان سببها المباشر الذي جاء في أعقاب فترة طويلة

من التوتر الاجتماعي (ذلك التوتر الذي كان من الممكن حبسه والتغلب عليه لو تم التنبه إلى الإشاعات السابقة على الشغب) يكمن في إشاعة واسعة الإنتشار ومتعددة الصور عن حادث وقع على شاطىء «بل إيل» كان ذلك في عصر الأحد في يوم من أيام الصيف القائظة، وهو الوقت ـ وتلك ملاحظة عابرة ـ الذي تتفجر فيه معظم المشاغبات. كانت الحادثة المثيرة على نحو ما جاء في الصحف، تنحصر في تلاكم يدوي وقع بين زنجي ورجل أبيض «وسرى طنين هذه الحادثة مع المبالغات على طول الشاطىء وفي المدينة نفسها. وكانت الصور المختلفة للإشاعة تتبع الإساغة المفضلة عند كل عميل من عملاء الإشاعة، فجاء بعضها يلائم الآذان البيضاء والبعض الآخر لحناً يلائم الآذان السوداء.

كانت إحدى صور هذه الإشاعة تروي أن البحارة البيض قد ألقوا بطفل زنجي من فوق الكوبري. وتروي صورة أخرى أن الملونين قد أغتصبوا إمرأة بيضاء فوق الكوبرى. وثالثة: أن البحارة البيض قد صبوا الشتائم على فتيات زنجيات، وتروي أخرى أن الزنوج لاحقوا فتيات من البيض وهن يسبحن. (لي وهمفري ١٩٤٣). وكان ولا بد للدافع الجنسي من أن يدخل إلى المعمعة لأسباب سبق أن ذكرناها.

(٤) وحين يحمى وطيس الاضطراب تنطلق الإشاعات وتجري أسرع ما يمكن، ولكن في هذه المرحلة الجنونية تكشف خصائص الإشاعة عن تعصب حاد. فأحياناً ما تكون الإشاعات هلوسية. فحوادث التعذيب والاغتصاب والقتل تتردد في صور هاذية وكأنها تهدف إلى تبرير العنف الوشيك وإلى التعجيل بالانتقام. ويذكر لي وهمفري كيف أنه في قمة الهياج تكاثرت المكالمات التليفونية على رجال البوليس في ديترويت لتبلغ عن حوادث مزعومة.

قالت إحدى السيدات في مكالمتها أنها قد رأت بعين رأسها مصرع رجل أبيض بأيدي جماعة دهمائية من الزنوج. وعندما ذهبت عربة النجدة إلى

مكان الحادث المزعوم لم يجد البوليس غير جماعة من الفتيات يلعبن «الحجلة»، ولا أثر لحادث عنف. أما ادعاء السيدة في مكالمتها بأنها شاهدة عيان ففيه ما يوحي بأن الإشاعة، في الحالات جد المتطرفة من التوتر والهياج، يمكن أن تكون ظاهرة مرضية بمعنى الكلمة.

ويكتب لايتون Leighton (١٩٤٥ ص ٢٦٨) معلقاً على هذه المسألة «يعرف الأطباء العقليون منذ وقت بعيد من ملاحظتهم للمصابين بالاضطرابات الانفعالية بأن هؤلاء الأشخاص عندما يعانون حالة من الهلع فإنهم يخطئون إدراك الأحداث العادية ويؤولونها على أنها تهديدات مروعة.

فالصفير الخافت لقطار بعيد يخيل إليهم أنه صرخة محتضر، ويبدو للتو شخصان يتحدثان وكأنهما يدبران مؤامرة. وأكثر من هذا ما اتضح من أن المرضى حين يكونون في حالة الهلع يمكن أن تكون إدراكاتهم هلوسات «فيرون» أشخاصاً يقبلون هاجمين عليهم، وليس لهم من وجود في الواقع أو تمتلىء أنوفهم «برائحة» الدخان والغاز، وليس في الحقيقة من دخان أو غاز، ويبدو الأمر محتمل الوقوع جداً بالنسبة إلى الأشخاص العاديين عندما يكونون في حالة من الرعب الشديد.

وفي التجربة التي عاشها مع اليابانيين الأمريكيين الذين تم تهجيرهم من الساحل الغربي، أستطاع لايتون أن يلمس الكثير من هذه الإشاعات الهلوسية. ففي أثناء إضراب بمركز إعادة التوطين في بوسطون باريزونا «رأى المتظاهرون المتهيجون مدافع رشاشة بأطقمها من الرجال مما لم يكن له وجود» كما رأوا في الليل عربات الموتى الوهمية تنقل الجثث. كانوا يعتقدون بأن المتوطنين في هذا المركز يموتون كالذباب من وطأة الحر وسوء التغذية ونقص الرعاية الطبية. كما اعتقدوا أن الأطفال يهلكون في بيوت الحضانة الشديدة الحرارة. وتعد مثل هذه الأقاصيص نمطية للمرحلة الرابعة من مراحل الإشاعة في موقف الاضطراب الدهمائي.

وعندما تصل الإشاعات المرحلة الثالثة والرابعة فليس هنالك في الواقع

من شيء تستطيع الرؤوس المدبرة في البوليس أو في الجماعة أن تقوم به لإيقافها. فإن الذي ينبغي إيقافه إنما هو العنف. فليست الأقاصيص الضارية إلا مجرد لازمته اللفظية.

أما في المرحلتين ١ و ٢ فإن الإشاعات تقوم بدور النذير الذي يمكن التعويل عليه لتنبيه السلطات التنفيذية، هذه التي تستطيع، بل ويتحتم عليها أن تتخذ إجراءات حاسمة لضبط قياد جمهور مضطرب ينطلق بسرعة إلى ذروة الهياج والعدائية حيث يفلت الزمام.

وقصة الإشاعة والشغب هذه، لو تأملناها من زاوية أقل بروزاً لأمكن تطبيقها على أشكال عديدة من الإدارة الاجتماعية. ففي شركة تجارية، أو في مصنع، أو مدرسة، أو سجن، أو على ظهر سفينة - وفي كل مكان حيث يعيش الناس معاً - تكون الإشاعات معياراً للحالة العقلية - فأقاصيص العدائية الموجهة ضد جماعة مندرجة إنما تعبر عن انخفاض المعنوية ضمن الوحدة الاجتماعية، فعندما تتكاثر هذه الأقاصيص وخاصة عندما تصبح منطوية على عنصر التهديد أو على عنصر الاضطراب الصريح الوشيك، يكون للحاكم فيها تحذير معقول عما تنطوي عليه وحدته من توتر خطير. لقد حان الآن الوقت كيما يسارع إلى العمل.

خلاصة:

من مختلف أقسام هذا الفصل أخذ يبرز بالتدريج أن الإشاعة تستقر في الأنسجة العميقة من الكيان الاجتماعي. فجانب كبير من التاريخ كما أوضحنا، إنما تحدد عن طريق استجابات الناس للتقولات، كما أن الكثير من معتقدات الناس إنما هي نتاج خرافات وأساطير ممعنة في القدم.

والخاصية الخداعة للإشاعة تكمن في أنه على الرغم من أنها تقييمية ودوافعية في دلالتها، إلا أنها عادة ما تتنكر وكأنها معلومات موضوعية. وفي الحقيقة أن وظائفها التعبيرية وهي المتخفية علينا، لأهم بكثير من وظائفها

الاعلامية المزعومة.

وإذا ما حاولنا تصنيف الإشاعات لتبينا أن ميوعتها ترجع بعض الشيء إلى ما تنطوي عليه من انصهار الانفعالات ومشاعر النفور ضمن شبكة ثرية معقدة أما الدلالة الوظيفية للإشاعات في الحياة الاجتماعية فيمكن سبرها فحسب عن طريق استجلاء الطبقات العميقة للشخصية، وتبين «اقتصاديات» الطاقة العقلية عند الفرد. وبعض الجمهرات الكبيرة تعد متاحة لأنواع معينة من التقولات. وتتوقف سلاسل الإشاعة على القابلية للإيحاء عند الأفراد. وحين يبلغ الهياج درجة عالية من الشدة يأخذ في التزايد عدد الأفراد المندمجين في السلسلة والحروب والاضطرابات والانتخابات كلها تعمل على توليد النمط الخبيث من الإشاعات المفتحشة المعروفة باسم حملات الهمس. وفي السنوات الأخيرة تبينا الصلة الوثيقة ما بين الإشاعات والاضطرابات، ومن المؤكد أنه من أجل الهيمنة على الاضطرابات لا بد من إيقاف الإشاعات.

وحيث أن الناس لا يتعرفون في العادة على الإشاعة عندما يسمعونها وحيث أنهم نادراً ما يكفون عن تصديقها لمجرد أنها «معنونة» بوضوح فلا مناص من أن نخلص إلى القول بأن الجمهرة ما زالت بعيدة عن أن تكون متنبهة للإشاعة فالجمهرة لم تحقق غير القليل من المناعة، أو لم تحقق أي مناعة على الإطلاق.

وليس من المنتظر أن تقل أهمية التقولات في المجتمع ما لم تتحقق شروط عديدة لا يحتمل في الواقع تحققها. فنشر الأخبار ينبغي عليه أن يصبح أكثر دقة وأن يحقق قدراً أكبر مما يحققه الآن من نفاذ إلى عقول السامعين والأشخاص الذين يتطلعون إلى تأويل للعالم الذي يعيشون فيه ينبغي أن تتاح لهم تفسيرات أكثر إرضاء مما يتاح لهم الآن. وينبغي أن تتضاءل مشاعر العدائية والخوف والرغبة مما يتطلب التبرير والتنفيس الخيالي. وأخيراً ينبغي العثور على وسيلة لتقويم ديناميات اللوى التي تصيب جميع عمليات الحفظ والاستدعاء كائناً ما كان حرص الناقل على الدقة.

وحيث أن هذه الشروط لا ينتظر أن تتحقق في المستقبل المرتقب، فعلى كل فرد يرغب في أن يحقق لنفسه مناعة ضد الإشاعة أن يتعمق ما استطاع الأوجه السيكولوجية والاجتماعية للظاهرة، وأن يزيد بالممارسة المتصلة من مهارته في أن يكشف ويحلل القسط اليومي من التقولات التي تبلغ إلى أذنيه المرهفتين.

الفصل الحادي عشر
تحليل الإشاعة

كيما يكتسب الشخص مهارة في تحليل الإشاعات فإنه يحتاج أولاً إلى دراية بالمبادىء التي تقدم ذكرها في الفصول السابقة، ويحتاج ثانياً إلى التدرب على تطبيق هذه المبادىء. وليس ثمة حاجة إلى القول بأن الشخص يحتاج فوق ذلك إلى درجة من الشك، معتدلة ـ لا حصارية ـ بإزاء الأخبار التي تصل إلى سمعه أو يقع عليها بصره، كما ينبغي أن يتوفر لديه الإستعداد للتحقق من صحة الأخبار بالرجوع إلى تجاربه السابقة، التي يمكن التعويل عليها في هذا الصدد، وبالرجوع ما أمكن إلى المعايير الموضوعية للصدق.

وفي هذا الفصل نطلب إلى القارىء أن يضطلع بفحص عينات مختارة من صور الإشاعة. وانتماء بعض هذه العينات إلى فترة مضت إنما ينهض دليلاً على الطابع «العابر» للإشاعة. و «العبارات التي تقدم للتصديق» إنما هي على الأرجح قصيرة العمر، مما يرجع ببساطة إلى سرعة تغير إهتمامات الناس. وعلى أية حال تظل الإستفادة كبيرة من دراستنا لبعض الأمثلة النمطية المستمدة من أجواء إجتماعية متنوعة، حتى وإن كان بعضها قد فات أوانه.

وتحليل أية أقصوصة من الأقاصيص لا يمكن بحال أن يبلغ من الكمال الدرجة التي ننشدها وذلك لأن الظروف السيكولوجية والاجتماعية التي تسري فيها الإشاعة لا يمكن معرفتها إلا بصورة جزئية، وغالباً ما يكون ذلك عن طريق الإستدلال وحده. هذا إلى أنه ليست هنالك أقصوصة واحدة تستطيع أن تحقق جميع المبادىء الخاصة بالإشاعة، وإن كانت المعادلة الأساسية تتكشف في كل حالة.

فإذا لم تتحقق المعادلة الأساسية فإنه يتحتم علينا أن نخلص إما إلى أن

العينة موضوع البحث ليست إشاعة بمعنى الكلمة، وإما إلى أن المعادلة زائفة، والحق هو أنه يمكن التأكد من صحة جميع المبادىء التي قدمناها في الفصول السابقة بتبيننا لنجاحها في تفسير الأمثلة العيانية للإشاعة. فإذا اتضح أن بعض هذه المبادىء لا يصدق في أية حالة، أو أنه غير ملائم، فينبغي استبعاده أو مراجعته.

وسوف نضيف إلى الأمثلة التالية تعليقات تحليلية، وإن لم نستطع في كل حالة أن نؤكد بأن جميع التعليقات هي، بنفس الدرجة، ملائمة.

وينبغي أن نتوقع قدراً كبيراً من التأملات الجريئة في محاولة من هذا القبيل.

ويتحتم على القارىء بعدما يفرغ من قراءة تعليقاتنا على الحالتين أو الثلاث الأولى أن يحاول بنفسه أن يقوم بالتحليل قبل أن يقرأ ما يورده المؤلفان من أراء، وفي نهاية الفصل يجد القارىء سلسلة من الحالات بغير تحليل يستطيع أن يتناولها «كمادة خام» ليرى رأيه فيها.

الحالة الأولى

المثل الأول مستمد من «خطاب برلين» لجويل ساير J. Sayre الذي نشر في صحيفة نيويوركر New Yorker (بتاريخ ٢١ يولية سنة ١٩٤٦) وذلك خلال فترة الاحتلال المضطربة في صيف عام ١٩٤٦.

إن قصة الرجل الأعمى في «كنيزيبك ستراس» تعطينا فكرة عن طريقة أهل برلين في التفكير، في وقت متأخر من عصر أحد الأيام، كانت سيدة شابة تمضي في طريق عودتها إلى المنزل من المكتب الذي تعمل به، مارة في شارع كنيزيبك، وهو شارع سكني في منطقة أصابتها الغارات بالدمار، حين ارتطم فيها فجأة رجل أعمى وهي تنتظر الشارة المؤذنة بالمرور.

كان الرجل طويل القامة نحيلاً متوسط العمر، يحمل نظارات سوداء، ويرتدي سترة قديمة، وسروالاً يشبه سراويل الجولف يكاد يصل إلى نهاية الساقين، وكان يتلمس طريقه بعصا ويحمل في اليد الأخرى خطاباً، وعلى أحد

ذراعية يلتف الشريط الأصفر الذي يحمل هرماً من ثلاث كرات سوداء، وهو شريط يحمله في العادة كل كفيف أو أصم ألماني حين يخرج إلى الطريق.

ولقد تقدم الرجل الأعمى إلى السيدة بإعتذاراته عن ارتطامه فيها.

فأجابته: «لا عليك، فليس هنالك من سوء». وسألته ما إن كانت تستطيع أن تعينه في شيء؟.

وأجابها الرجل «في الواقع تستطيعين لو تكرمت»، وسلم إليها الخطاب طالباً إليها أن تقوده إلى العنوان المسطر عليه، كان الخطاب يحمل عنوان شخص يقطن على مسافة بعيدة عن شارع كنيزيك، وقالت السيدة للرجل إن عليه أن يسير مسافة غير قصيرة.

وقال الرجل «يا إلهي». ما أكثر ما سرت هذا اليوم. ترى من الممكن أن تضطلعي عني بتوصيله؟

فقالت: بكل سرور فإني على أية حال سأمر بهذا العنوان في طريقي إلى المنزل، فلن يكلفني ذلك شيئاً. وشكرها الرجل الأعمى بحرارة وتبادل الإثنان عبارة «إلى اللقاء».

ومضى الرجل يقرع الأرض بعصاه في الإتجاه الذي جاءت منه السيدة، وما أن سارت السيدة الشابة عشرين أو ثلاثين ياردة حتى ألقت بنظرة إلى الوراء، لترى من إن كان الأعمى يمضي آمناً في طريقه.

لقد كان في الحقيقة يمضي بسهولة: كان يمضي مسرعاً على الرصيف وعصاه تحت إبطه، لم يكن هنالك أي شك بفضل سرواله الفضفاض. وبدلاً من توصيل الخطاب إلى العنوان، ذهبت به السيدة إلى قسم البوليس، وشرحت كيف وصل هذا الخطاب إلى يديها.

وانتقل البوليس إلى المسكن المدون عنوانه على الخطاب. فعثر هنالك على رجلين وامرأة وعلى كميات هائلة من اللحم الذي أوضح الكشف الطبي أنه لحم بشري، وكان الخطاب يحمل في داخله عبارة واحدة: «هذا هو الطرد الأخير الذي أبعث به اليوم».

التعليق:

والمراسل الذي نقل هذه القطعة الطريفة يضيف إليها تحليله الخاص «هذه القصة خرافة صرفة» ومع ذلك فجميع من أعرفهم من الألمان في برلين، فضلاً عن العديدين من الأشخاص الذين استجوبتهم، قد سمعوها، ولقد صدقها منهم نحو ٩٥٪.

وفي غير قليل من الحالات كان الشخص الذي أناقش القصة معه يلقي إلي بهذه الإيماءة، التي تنطوي في مغزاها على فتل الشوارب والاعتداد بالرأي، مؤكداً أنه يعرف شخصياً هذه السيدة الشابة، التي نجت بأعجوبة من أن تباع بالرطل، كانت ممتلئة الجسم، هكذا صورتها لي أوصاف الناس، ممتلئة ولكنها رائعة الجمال ولفترة من الزمن لم أكد أجد واحداً من أهل برلين يشك في قصة الرجل الأعمى. وهناك سببان يفسران ذلك.

أولهما: أنه كان من الصعب في تلك الأيام في برلين أن يتصور الإنسان إستحالة أمر كائنا ما كان حظه من الفظاعة.

والسبب الثاني هو أن غالبية سكان برلين ممن تخطوا الثلاثين يستطيعون أن يتذكروا سابقة تاريخية.

ففي عام ١٩٢٥، نفذ حكم الإعدام في فريترهارتمان F. Haartmann الذي عرف في أوروبا كلها بوحش هانوفر لقتله «دستين» من الذكور المراهقين وبيعه بعض قطع مختارة من لحمهم للجمهور. ولقد اعترف أيضاً بقتل وتوزيع عدد آخر من «دست» المراهقين الآدميين لم يرد حتى ذكرهم على ألسنة الشهود ـ مما يقرب من ثلاثين أو أربعين مراهقاً، فهو لم يكن يذكر على وجه الدقة، وحسبما علمت، فقد أدى هذا الأمر بجميع سكان هانوفر تقريباً إلى اتباع نظام تغذية نباتي لبضع سنوات بعد ذلك.

وينطوي تعليق المراسل على نقطتين رائعتين، وهما ولا شك أهم عاملين لتفسير هذه الأقصوصة البشعة:

(١) فالأقصوصة تعبر بصورة أساسية عن التدهور الشديد الذي أصاب الحياة الاقتصادية والخلقية في برلين، وهو التدهور الذي جاء نتيجة سلسلة من الكوارث التي لـم يسبق لها مثيل: تعذيبات وحشية، غارات مدمرة، مجاعات، هزيمة، وكلما أمعن التدهور الاجتماعي في القسوة، أوغلت الإشاعات في الوحشية ـ إنه كان من «الصعب في تلك الأيام في برلين أن يتصور الإنسان استحالة أمر كائناً ما كان حظه من الفظاعة». وتشتد قابلية الناس للإيحاء لأن حياتهم العقلية «خلواً تماماً من المراس». وإذا كانت بعض أشياء غير معقولة قد حدثت، فلم لا يحدث غيرها.

(٢) وعامل «الإساغة» يبرز عريضاً في الأفق. فأهل برلين تشغلهم على الدوام مسألة الطعام تماماً كما تشغلهم مسألة حياتهم المعرضة للأخطار، والاستهانة بقيمة الحياة البشرية، والفظائع البشعة التي ذاقتها الأبدان (في معسكرات الاعتقال، وفي الغارات) إنما تكون جانباً ينضاف إلى سياق المدركات المباشرة.

وهذا الإطار العام هذا القاع الدموي للإهتمام، قد وجد ما يعززه في إحدى الذكريات المتميزة بأكل لحم البشر، ذكرى وحش هانوفر. وهذه القطعة من التاريخ المقابري تمثل «النواة» الوحيدة الحقيقية التي توجد في الموقف كله، ولكن هذه النواة لا توجد في الحادث الذي هو «العبارة المقدمة للتصديق» (والذي لقي الكثير من التصديق بالفعل) وإنما توجد في السياق الإدراكي الذي تتم بالنسبة إليه إساغة القصة. وإن ما حدث هو أن الأحداث الجارية والماضية قد «تكثفت» و «تأقلمت».

وبالإضافة إلى هذين المبدأين الأساسيين من مبادىء الإشاعة فإن أقصوصة برلين تنطوي على مبادىء أخرى.

(٣) فمن الواضح أن المعادلة الأساسية للإشاعة تصدق في هذه الحالة. فالطعام وأمن الحياة موضوعان يتسمان بأقصى «الأهمية» عند السكان المنكوبين؛ وإن إضطراب وسائل الاتصال في المدينة مع إنهيار صرح القيم

الخلقية ليمّا يخلق موقفاً بالغ «الغموض فيه» يمكن أن يحدث أي شيء.

(٤) وتضطلع الأقصوصة بوظيفة سيكولوجية، فتفسر وتخفف انفعالات القلق الشائعة والمتصلة بجودة الطعام. وأمن الحياة. وهذان الضربان من القلق «ينصهران» معاً، في هذه الظروف، في عقل المستمع للإشاعة.

والقصة تضطلع أيضاً بتبرير المخاوف الفردية، وفي اشتراك الناس فيها ما يضعهم ضمن مجال «التعاطف» و «المعاناة».

(٥) والقصة وعلى الرغم مما يسمها من طابع أسطوري، وتنطوي على «استرسال جيد»، ومنطقية خداعة مما يعين الناقل والسامع في «السعي وراء معنى». وضحية الذبح الإجرامي تصورها الإشاعة على أنها ممتلئة، وعطفها على الوغد «الأعمى» وبؤسه المصطنع، لما يستثير الدوافع ويحرك الأشجان.

ومع أن هذه القصة مسرفة الطول بالنسبة إلى معظم الإشاعات فإنها تتميز «بإبراز درامي»، وتعززها كثرة من التفصيلات العيانية والملابسات الموقفية، التي وإن بدت محبوكة، فإنها مساغة جيداً بالنسبة إلى الموضوع الرئيسي.

(٦) وبحسب رأي المراسل فإن هذه الإشاعة واسعة الانتشار بدرجة مسرفة، وتكاد تلقى التصديق من الجميع فهي لا تقتصر على جمهور إشاعة محدد. ولقد أدت هيمنة القلق والانشغال بالطعام إلى أن تصبح القصة عملية إشاعة صالحة لأن يتداولها الجميع، وذلك لأن السكان، من زاوية الاهتمامات الكامنة، يمثلون كياناً متجانساً.

(٧) والشذوذ المسرف في هذه القصة يكسبها جاذبية انفعالية خاصة. ولم يكن لها على الإطلاق أن تجد لسريانها بيئة اجتماعية أنسب من هذه، حيث يبلغ الجوع والخوف أقصى درجة، فالشذوذ موضوع يرتبط بأعمق مشاعر القلق البشرية، مخاوف الألم والموت والمخاوف المستمرة الموجودة عند الجميع. فعندما تهيمن الظروف الاجتماعية السوداوية، تصبح أقاصيص الشذوذ موضوعاً رئيسياً للإشاعة. فعن طريقها يتم تخفيف وتبرير وتفسير الانفعالات القائمة.

الحالة الثانية

في أعقاب الزلزال الذي وقع في سان فرانسسكو في ١٨ أبريل ١٩٠٦ اجتاحت المدينة أكثر الإشاعات وحشية. ولقد روى جو تشامبرلين منها في جريدة صاندي صن بيلتيمور (بتاريخ ٣١ مارس ١٩٤٦). وهي كما يلي:

(أ) إن موجة قد غمرت مدينة نيويورك في نفس لحظة زلزال سان فرانسسكو.

(ب) إن مدينة شيكاغو قد انزلقت وغاصت في بحيرة متشجان وأنها تفترس اللاجئين من جولدن جيت بارك.

(د) إن بعض الرجال قد عثر في جيوبهم على أصابع نسائية بخواتمها إذ لم يسمح الوقت بنزع الخواتم. وفي هذه الأقاصيص كانت الغيلان تتدلى مختنقة «دائماً» عند أول عمود من أعمدة النور.

التعليق:

قد يتساءل القارىء المتشكك عما إذا كانت الإشاعات التي تعاد روايتها بعد أربعين عاماً من سريانها لا تتعرض لعمليات إضافية من «الإبراز» الجسيم، ولأشكال أخرى من اللوى خلال الوقت المنصرم، ولعلّ من الأمثلة على ذلك كلمة «دائماً» في الإشاعة.

(هـ) وليس من شك في أنه من الصعب أن نبرهن على أن هذه الروايات المتصلة بالغيلان كانت تنتهي، دائماً أبداً آخر الأمر، بعدالة عاجلة. ومهما يكن فمن الثابت أن الإشاعات التي سرت عقب الكارثة قد تم تسجيلها في ذلك الوقت، ويمكننا أن نفترض لأغراض تتصل بالتحليل الذي نضطلع به، أنها لم تكن تختلف كثيراً عن الصيغ التي أوردناها هنا.

(١) ثمة مبدأ واضح يتضح في هذه المجموعة من الأقاصيص ألا وهو «خصوبة الإشاعة». ولقد تآمرت «الأهمية» القصوى مع الغموض الفسيح في خلق الإشاعات الوحشية، الواحدة تلو الأخرى والتي كان

الكثير منها لا ينطوي إلا على تباين طفيف بالنسبة إلى البعض الآخر، وسلسلة التداعي في غاية البساطة: مدينة كبيرة قد دمرت، فلم ليس غيرها؟ وتعمل الخصوبة على الإبراز «غير تكثير» للكوارث.

(٢) والجمهور المضطرب يحاول أن يقيس أهمية الحادثة كوجه من أوجه «السعي وراء معنى».

ولقد نجحت الإشاعات في المهمة التي تكاد أن تكون مستحيلة مهمة التهويل في آثار الكارثة. ومع ذلك فمن وجهة نظر «تقييمية» تعبر هذه الإشاعات بدقة عن الدلالة الحميمة للحادثة، وكأنها تقول بأسلوب مجازي «لا يمكن للأمور أن تكون أكثر بشاعة»، فأما وقد فقد الناس مساكنهم بل وأحياناً أحباءهم، فإنهم أبرزوا مشاعر قلقهم وأساهم بإضافة الوحوش الكاسرة أو الغيلان وتخريباتها، وإسباغ الدمار على مدينة أو مدينتين إضافيتين. ومن خلال هذه الإضافات التجميلية يتم التصوير المجازي للإحساس المكتمل بالكارثة.

(٣) والناس أيضاً في سعيهم وراء معنى يستنبطون أشياء كثيرة وبعضها معقول. ومن أكثر هذه الاستنباطات معقولية القول بأن الزلزال قد أتاح للحيوانات أن تهرب من حديقتها (الإشاعة ج). وليس في وسعنا الآن أن نعرف إن كانت هنالك نواة من الحقيقة تسند هذه القصة، ولكن حتى لو افترضنا أن بعض الأقفاص المهشمة قد أتاحت «لبعض» الحيوانات أن تهرب فمن المرجح أن كثيراً من العبارات الوصفية قد تعرضت إبان تناقلها لعملية تسوية. أما المدى الذي بلغه انطلاق الحيوانات فقد انتابه الإبراز ويبدو من المحتمل أن التكثيف هو المسؤول عن المصير البشع للاجئين كانت الحيوانات في جولدن جيت بارك. وكان اللاجئون في جولدن جيت بارك. ولقد تم التكثيف بوضع الآخرين في أفواه الأولين والخيال في الإشاعات كما في الأحلام كثيراً ما يوجد الأحداث المنفصلة فيستخلص من الكثرة البساطة ويستخلص من العلماء نظاماً خداعاً.

(٤) وشنق الغيلان (الإشاعة د) يمثل «خاتمة اخلاقية» وانتقاماً لخيولها. فالإحباطات الغامرة التي تولدت عن الكارثة لم تكن مسؤولية شخص ما. وكان

الغول، ناهش الجثث هو كبش الفداء الوحيد المتاح في مصيبة قدرتها المشيئة الإلهية.

(٥) وإشاعات الهلع من هذا القبيل تناظر المرحلة الرابعة من إشاعات الشغب. فليس من شيء يعلو في وحشيته على التصديق شريطة أن يفسر أو يخفف على نحو ما من الهياج السائد. ولكن على خلاف إشاعات الشغب، فإن أقاصيص الهلع تنطوي على مراحل سابقة لإقامة صرحها، اللهم إلا أن يكون الهلع نفسه تدريجياً في تطوره - وهو موقف غير مألوف.

(٦) وكما هو الحال في إشاعة برلين، ليس هناك أيضاً في هذه الحالة أي دليل على وجود سلاسل إشاعة. فالكارثة قد خلقت وحدة اهتمام كلية إلى حد أننا نستطيع أن نتخيل أي واحد من السكان الأحياء بعد الكارثة وهو يرى هذه الأقاصيص لغريب معنى الكلمة. وعلى أية حال فإننا لا نستطيع أن نتخيل بعض أهالي نيويورك أو شيكاغو على أنهم يصدقون قصص الدمار الذي أتى على مدينتهم. فقد كان للسكان في كل من المدينتين من معايير الصدق الوفيرة الخاصة بهم ما يجعل هذه الأقاصيص مستحيلة ومن المشكوك فيه أيضاً أن تكون الصحافة نشرت أية إشاعة من هذه الإشاعات التي يمكن التحقق من أمرها بسهولة ولكنها نشرت الكثير عن الأقاصيص التي يمكن التحقق من صدقها استناداً إلى اتساع «وحدة» والتي لقيت التصفيق في جميع أنحاء البلاد وذلك إلى أن توقف الزلزال عن أن يكون موضع اهتمام أساسي.

(٧) ونستطيع أن نتخيل الامتياز الذي يكلل الراوي لمثل هذه الأقاصيص البشعة. لقد كان الشعب كله في حالة اضطراب، يتطلع في شغف إلى الأنباء من أي نوع. وما أن تكشفت الخطوط الهيكلية للكارثة حتى تكشف (النهم إلى تجمع النقلات لحشو الصورة، وكان الجار الذي يقدم آخر «نتف» من الأنباء» يلقى الترحيب والانصات الشغوف.

الحالة الثالثة

انتشرت في بريطانيا بعد الحرب العالمية الأولى قصة تتعلق برجل

إنجليزي كان يستحم في «القنال» كان يلبس لباس استحمام استعاره من رجل أمريكي. وعلى أعلى اللباس كانت هذه العبارة منقوشة بالتطريز «أمريكا كسبت الحرب» قال صديق على الشاطىء للرجل الإنجليزي: أفلا تكون على حذر من سمك القرش! أجاب الرجل الإنجليزي، مشيراً إلى العبارة المطرزة على لباسه. «لا عليك فأنا لست بخائف. إن سمك القرش ليعاف ابتلاع هذه الشارة»!.

وفي أمريكا وخلال الحرب العالمية الثانية، انتشرت القصة تتحدث عن أمريكياً يتهيأ للسباحة على شاطىء ميامي وكان قد استعار لباس الاستحمام من رجل إنجليزي وحين حذره البعض من سمك القرش أجاب قائلاً: لا تشغل بالك: فإن سمك القرش يعاف ابتلاع «هذه الشارة» قال ذلك وهو يشير إلى العبارة المطرزة على لباسه والتي تقول: «ستبقى إنجلترا أبد الدهر».

التعليق:

إننا ها هنا ـ بلا مجاز ولا تورية ـ أمام ما يسميه بايسو «إشاعة غاطسة»: لقد غاصت الإشاعة في هذه الحالة في المحيط الأطلسي لتطفو عند شطآن قدرة أخرى بعد جيل من وقت ظهورها الأول وفي خلال رحلتها قلبت الإشاعة اتجاه الملحة الراغبة. وأبدلت بفريسة سخريتها فريسة أخرى.

(١) كل الإشاعات الغاطسة تتوقف موجات ظهورها المتعاقبة على عودة ظهور شروط سيكولوجية مماثلة ولقد كانت الظروف في الحربين العالميتين وثيقة الشبه. فارتباط البريطانيين والأمريكيين كحلفاء جعل من المحتم عليهم أن يعانوا معاً نفس المصير في مناسبات مختلفة. وحتى الأفراد الذين لم يكونوا على وفاق في نظرتهم بعضهم للبعض الآخر، بل وربما كانوا يعتزون بأحكام قبلية جد مناهضة للشعب الآخر، كانوا يجدون أنفسهم مضطرين للإسهام في نشاط مشترك، وفي إعارة لباس الاستحمام ما يرمز للطابع الحميم للصلات، وما يكشف عن درجة من المشاركة والإلفة تنكرها الفكرة الأساسية للإشاعة ذاتها. ومن الخصائص الطريفة لهذه القصة أنها تعبر عن ثنائية

المشاعر عن علاقات المودة الحميمة والعدائية معاً، ما بين الشعبين الحليفين.

(٢) والقصة بصورة أساسية من النمط العدائي، وإن لم تكن شديدة الحدة. فالمشاعر الانفعالية، التي تعبر عنها القصة ليست هي «الكراهية للآخر» بقدر ما هي تحقير لغروره بنفسه مع شعور بالمنافسة وعلى خلاف.

الغالبية من الإشاعات تنطوي هذه القصة على ملحة (وإن كانت سمجة بعض الشيء) والحق أنها لو لم تكن ملحة راغبة - تنطوي على رغبة ودافع - لكان من الغريب أن يتاح لها إستمرار البقاء وذلك لأن درجة الأهمية تعد طفيفة بالنسبة إلى غالبية المرددين.

فقليل هم الأمريكيون أو البريطانيون الذين يستشعرون غرابة أطوار الآخرين على نحو من القوة بحيث يعمدون إلى ترويج إشاعات عدائية صريحة. فالقصة تبرز في صورة «نكتة» وحيويتها تعتمد - بصورة جزئية على الأقل على الرغبة في إثارة الضحك عن طريق الغمزة الفكهة في التورية، في كلمة «إبتلاع» بمعنى التصديق. فهذه القصة هي من قبيل «الدردشة» التي نلجأ إليها لملء الثغرات عندما يخمل الحديث. أما الإشاعات الجادة والمليئة ضد بريطانيا فإنها على الأرجح تتناول بخباثه مؤامراتها الاستعمارية وضلاعتها في «جرّ» أمريكا واستخدامها «أداة لتسليك البلاغات» ومثل هذه الأقاصيص الشديدة العدائية لا تنتشر بالطبع إلا بين هذا الجانب من الجمهرة الأمريكية الذي يتميز بنزعته القوية إلى مناهضة البريطانيين.

(٣) وإن الوجه الفكه من هذه القصة لهو من القوة بحيث نجدنا على الحدود الخارجية للإشاعة. ويستطيع القارىء الفطن أن يلاحظ أن هذا المثال لا يساير تعريفنا الخاص «عبارة مقدمة للتصديق». فالمطلوب من السامع هو أن يضحك، لا أن يعتقد، والقارىء في ذلك إنما هو على حق. فبين الإشاعة والفكاهة ليس ثمة من حدود فاصلة قاطعة، وإن كانت الفكاهة أميل بصورة واضحة إلى مجال «التصنع»، بينما تميل الإشاعة إلى مجال «الجد» ومع ذلك ففي هذه الحالة كما في غيرها من الحالات يعبر «التصنع» عن عدائية حقه،

تحت قناع من الهزل. فمردد القصة إنما يقول في أسلوب ينطوي على «التقييم الشاعري»: كم هم بلهاء هؤلاء الأمريكيون (أو البريطانيون) المغرورون!. وعلى الرغم من أن هذه القصة لا تعد إشاعة بالمعنى الدقيق فإنها مع ذلك تلعب دور الإشاعة من نواح عديدة بحيث تستحق أن توضع في سجلاتنا.

(٤) «الإساغة» بالنسبة إلى المشهد الشائع تبرز في وضوح. فإن الذي حدث في أعقاب الحرب العالمية الأولى في منطقة إستجمام على القنال الإنجليزي لم يكن مهماً بالنسبة إلى الجمهور. ومن ثم فإن القصة الوقورة تقدم في إطار حديث، وهكذا تتم «أقلمتها» الزمنية.

الحالة الرابعة

إن الإشاعة لا تحترم العلم. وحتى العلم المجرد يأخذ نصيبه من عمليات اللوى، والتزييف على نحو ما كشف عنه بصورة مؤسفة الدكتور ج. ج سمسون Simpson، بالمتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي. وهاك عرض لخبرته، كما يشرحها في مقال مختصر بعنوان «دراسة حالة القصة خبر علمي»، المنشور في مجلة Science ولقد ركزنا العرض بعض الشيء.

«في ٢١ أغسطس عام ١٩٣٧، أصدر المتحف القومي للولايات المتحدة كتيباً قمت بتحريره، وعنوانه. the fort uniorofthecrazy Mountain field, Montana, and its Mammalian Founas وهذا المؤلف المشتمل على ٢٨٧ صفحة، والمتميز بطابعه الفني المسرف يضطلع بالوصف الجيولوجي والحفرياتي للطبقات العليا والوسطى من العصر الباليوسيني بمونتانا الوسطى، وكما هي العادة، فقد سلم موظفو المتحف إلى رجال الصحافة ملخصاً غير فني لهذا المؤلف إنه ملخص بالغ الدقة، وهو مع ذلك يسير الفهم، عني بتجنب أي ادعاء مثير أو ليس في الصياغة.

ويتعلق ما يقل عن ربع هذه الخلاصة بأقدم ما عرف من الحيوانات العليا المطمورة ضد الحفريات التي جاء وصفها في الكتب ويلح الكتيب وكذا

الخلاصة الصحفية الأصلية على أن هذه الحيوانات العليا لا تدخل ضمن الخط المباشر للحيونات العليا المعاصرة، أو الإنسان، وإنما هي نماذج ممعنة في القدم للجماعة الواسعة الثدييات كذلك أشار كل من الكتب والخلاصة إلى أنني لست الذي اكتشف هذه الحيوانات العليا القديمة وأرسل قسم المقتبسات إلينا بالصيغ المختلفة لهذه القصة حسبما ظهرت في ٩٣ صحيفة مختلفة من مين إلى «كاليفورنيا».

وحتى في الحالات التي طبعت فيها الخلاصة بأكملها فقد أندست بعض الأخطاء. ومن بين هذه الأخطاء أن الحفريات المعنية ترجع في قدمها إلى سبعين مليوناً من السنين مما ينطوي على مبالغة مسرفة.

كانت العناوين في وضع عادي ، وإن كانت كلمات Montana, Butte, Standard, تمتد بعرض ثلاثة أعمدة وجاء أيضاً: «جبال كريزي بمونتانا تسجل[1] كمهد للحياة الحيوانية التي ينتسب إليها الإنسان» بما يتخطى حدود الزيف ليمعن في الإسفاف.

ولقد إتخذت الأسو شيتدبرس الخلاصة أساساً لرسالة كتبت من جديد، تنطوي على كثير من التعديل بعثت بها فظهرت من أربع وثلاثين صحيفة. ويتحدد لون هذه الرسالة من عبارتها الأولى ليس الإنسان من سلالة القردة، وإنما هو على الأرجح خليفة حيوان من قطنة الأشجار طوله أربع بوصات، هو الجد الأعلى لجميع الثدييات الكائنة اليوم على الأرض.

وتمضي الرسالة فتوحي بأنني ذهبت إلى القول بأن الإنسان يرجح أن يكون قد نشأ في الأصل في غرب الولايات المتحدة لا في آسيا. وقد تخطى محررو العناوين حدودهم في هذه الصورة للقصة.

هل القرد أصل الإنسان؟ أم الفأر؟
صحيفة UNION بسكرمنتو، كاليفورنيا

حيوان من الغابة، طوله أربع بوصات، هو الجد الأول للإنسان

صحيفة times بشريفبورت، لويزيانا

دراسة الثدييات تكشف عن نظرية جديدة في التطور

نيوبورت، صحافة فرجينيا.

وتكرار ذكر الفئران والجرذان في الصور المختلفة إنما هي مسألة عارضة ترجع إلى القول بأن بعض هذه الثدييات الباكرة كانت في حجم الفئران وبديهي أنها لم تكن فئراناً ولم يكن هنالك من عبارة مماثلة في الخلاصة الأصلية.

ويبد أن أربع صحف لا غير هي التي إضطلعت بتحرير عرضها الخاص، وإثنتان منها ـ ككثيرات غيرها مما استعانت بوكالات الأنباء المتحدة ـ ذهبتا إلى أنني مكتشف الحلقة المفقودة.

«ولقد خمدت هذه الزوبعة في أكتوبر من عام ١٩٣٧، فتنفست الصعداء، وبدأت أسترجع فهم الصحف لما قلته. وفي ١٨ أبريل من عام ١٩٣٨ نشرت صحيفة الليد ريجلد وفرزفيل (نيوريورك) مقالاً عن معارض نادي الموهوك فالي كنت، أسبقت فيه علي (تحت إسم محرف ولكن يسهل التعرف عليه) أنني المرجع الثقة فيما يتصل بوجود كلاب في مونتانا ـ منذ ٧٠ مليون عام ـ تبلغ في كبرها حجم دببة كودياك.

ثم أقامت مدينة أخرى معرضاً للكلاب، وفي هذه المرة لم يقتصر الأمر على أنني اكتشفت الصنف السالف الذكر من الكلاب، وإنما قدمت وصفاً لستين نوعاً منها. إنها خصوبة مروعة من الخيال، إذ أن الخلاصة الأصلية لم تشتمل على أي ذكر لاكتشاف كلاب، لا كبيرة في حجم دببة كودياك، ولا صغيرة في حجم الفئران.

ولو وضعنا في الاعتبار دور هواة الكلاب والتحريفات الصحفية أجدني بالتالي قد نعمت بفترة أخرى من الشهرة، تتعلق في هذه المرة بأنني المكتشف لكلاب الكودياك القديمة الكبيرة في حجم الدببة، والتي ترجع إلى سبعين مليون سنة، تلك التي لم تعرف الوجود قط، والتي لا فضل لي في إبتداعها بأكثر مما لي من فضل ابتداع الفئران أصل الإنسان.

ومن بين ما يقرب من مائة مقال صحفي، مما وصلتني حكاياتها آخر الأمر، كان العشر يتضمن تقارير مما لم تكن على خطأ علمي جسيم ولا مزعجة لي شخصياً.

بالنظر إلى الحاجة الماسة إلى عرض نتائج الأبحاث العلمية في المستوى الشعبي، فإن هذه المسألة تعد جد خطيرة، على الرغم من مظهرها الفكاهي. فهي تعد نمطية لما لا تزال تتعرض له الأنباء العلمية حتى اليوم بل إنها لتنطوي على مغزى، بل على أكثر من مغزى، مما لا يخفى على القارىء.

التعليق:

(١) إن أول جانب من الجوانب الملفتة للنظر في هذه الإشاعة «العلمية» ينحصر في أن «اللوى» يقع بكلتيه في مجال المطبوعات. إنها إشاعة «صحفية» توضح جوانب عديدة من الصلة الوثيقة ما بين «لوى» الكلمة المنطوقة و «لوى» الكلمة المطبوعة، مما سبقت الإشارة إليه تحت عنوان «الصحافة والإشاعة».

(٢) وإذا طبقنا معادلة الإشاعة، وجدنا أن «الغموض» لصيق بموضوع الإشاعة. فمسألة «أصل الإنسان» ما تزال حتى بالنسبة إلى الإخصائيين بعيدة عن الحل الحاسم.

أما بالنسبة إلى غير الإخصائيين فإن الوقائع ليست إلا أكثر غموضاً، فليست لديهم أية معايير للتمييز ما بين حنطة الدليل وقش النخيل.

وعلى الرغم من أن المشكلة ليست خطيرة الشأن من الزاوية الشخصية

فهي ولا شك مشكلة قديمة الأهمية، ويعد افتقار الخلاصة الأصلية التي سلمت إلى الصحافة افتقاراً شديداً إلى «الأهمية» الحقة بمثابة المفتاح المفسر لهذا النوع من «اللوى» الذي حدث. فالخلاصة الأصلية ليس فيها ما يتعلق من قريب أو بعيد بأصل الإنسان، ولكن كيما تبدو القصة جديرة بالنشر، فقد كان على مراسلي الصحف، ومحرري العناوين أن يربطوها بأصل الإنسان، وهو الموضوع الذي ينعم بأهمية متصلة.

فقيمة الخبر، كقيمة الإشاعة، إنما تتطلب صورة تتلاءم مع بعض أجهزة الإهتمامات عند الشخص. وينتج «اللوى» بالضرورة من محاولة إرغام الوقائع الموضوعية، وحشرها في قالب من الاهتمامات القائمة من قبل، وثم تصوير الباحث وكأنه أدلى بأشياء تساير «توقع» القارىء، ومن هنا كانت مسألة أصل الإنسان لأنها الموضوع الوحيد المتاح للإفهام ضمن الحقل الفسيح لعلم الحفريات والذي ينعم عند القارىء «بأهمية» ضمنية.

(٣) وفي العرض الشعبي للأبحاث العلمية لا مناص من أن تعاني التحفظات والنعوت العلمية الجافة عملية «تسوية» ومن ثم يجرد السياق من التعبيرات الدالة على التحزير، ومن القضايا المنطوية على مجرد الاحتمال.

فالمراد هو خلاصة الإسهام العلمي، بغير ما حذلقة علمية. وثمة مثل واضح على «التسوية» نجده في القول بأن الفئران هي أصل الإنسان.

كانت العبارة الأصلية تقرر أن «الحيوانات العليا» القديمة موضوع البحث (دون ما ادعاء أنها أصل الإنسان) كانت صغيرة في حجم الجرذان أو الفئران وتعرض هذا التشبيه لعملية تشويه.

(٤) وعملية «الإبراز» واضحة. فعمر الحيوانات العليا، وهو البالغ القدم عندما يقرر في تحفظ، قد أطيح به إلى سبعين مليون سنة.

كما أن الصلة الواهية بين الثدييات قد عانت الإبراز بحيث استحالت الفقريات الصغيرة لتبدو أسلافاً مباشرة للإنسان، وتنغرس شجرة التطور بصورة صريحة في مونتانا على الأرض الأمريكية الطيبة.

(٥) و «الإساغة» تتضح في أشكال مختلفة. فالكليشية اللغوي ونعني الحلقة المفقودة، قد أفسح له المجال في قصة تتصل من بعيد بالتطور. وكذلك تتضح بجلاء الإساغة بالنسبة إلى التوقع، وإلى الدلالات اللغوية، وإلى الاهتمامات، وهواة الكلاب قد اضطلعوا بإساغة القصة كلها بالنسبة إلى اهتماماتهم السلالية عن الكلاب.

وهذه الصورة الخاصة تلقى الإبراز عن طريق «التكثير» ومن هنا كان الحديث عن «ستين نوعاً» لتلك العائلات الوهمية لأسلاف الكلاب. والإبراز من زاوية «الحجم» يتم عن طريق «استيراد» التعبير: «كبيرة في حجم دبة كودياك».

(٦) وإدخال العبارات من قبيل «الحلقة المفقودة»، و «دبة كودياك» و «القرود الأسلاف» ونظرية التطور ـ وكلها نتاج عملية إساغة بالنسبة إلى التوقع وبالنسبة إلى العادات اللفظية ـ إنما يوضح أيضاً ما في الإشاعة من ميل إلى «مسايرة العرف».

والفولكلور الشائع والأقوال الشعبية إنما تفعل فيما يبدو فعل المغناطيس في إجتذابها «العبارات المقدمة للتصديق» وجدولتها في فئات محدودة من القنوات. وهكذا تصبح «الإشاعة العلمية» كغيرها من الإشاعات مدعمة بطابع «المألوف».

(٧) وينتحب الباحث أسى إن أغلظ صور القصة قد نسب إليه «تحت اسم خاطىء وإن كان قريب الشبه بالاسم الحقيقي»، وتذكرنا شكايته بالمبدأ القائل بأن أسماء الأشخاص هي من أكثر الأشياء تعرضاً «اللوى» وتكشف هذه الحالة أيضاً عن عدم ثبات الوقائع المتعلقة بالوقت والعدد.

الحالة الخامسة

والحالة التالية، وترجع إلى الحرب العالمية الأولى، تتعلق هي الأخرى بالصحافة، ونحن لا نريد أن نوجه الكثير من أصابع الاتهام إلى الصحافة، وكل ما هنالك أن الإشاعات المطبوعة تسمح بالتقصي، ومن ثم فهي بصورة خاصة

ملائمة للتحليل.

فثمة مثل باهر على «التزايد المطرد لكرة الجليد» في سلسلة من الأخبار الصحفية، كشف عنه بونسونبي Ponsonby ونشره في كتابه: «الكذب في وقت الحرب (١٩٢٨)».

وإنه لمن النادر أن يوفق باحث على هذا النحو في تحديد المراحل المتعاقبة في تحور الإشاعة. والنصوص مأخوذة عن الصحافة الأوروبية، وتتعلق بسقوط أنتورب إنفرس في أيدي الجيش الألماني ذلك في نوفمبر من عام ١٩١٤.

«عندما عرف خبر سقوط أنتورب دقت أجراس الكنائس (أي في ألمانيا). «كولنيش زيتونج».

«بحسبما ورد في الكولنيش زيتونج فإن كهنة أنتورب قد أرغموا على دق أجراس الكنائس عندما سقطت القلعة». صحيفة الماتان.

«بحسب ما استقته صحيفة الماتان من كولوني، فإن الكهنة البلجيكيين الذين رفضوا أن يدقوا أجراس الكنائس عند سقوط أنتورب قد فصلوا من وظائفهم». صحيفة التايمس.

«بحسب ما استقته صحيفة التايمس من كولوني عن طريق باريس، فإن الكهنة التعساء الذين رفضوا دق أجراس الكنائس عند سقوط انتورب قد حكم عليهم بالأشغال الشاقة». كورييري دلاسيرا.

«بحسب الأنباء التي وردت إلى صحيفة الكورييري دلاسيرا من كولوني عن طريق لندن، فقد ثبت أن غزاة انتورب البرابرة قد عاقبوا الكهنة البلجيكيين التعساء على رفضهم البطولي دق أجراس الكنائس بتعليقهم، ورؤوسهم إلى أسفل كمطارق حية للأجراس» صحيفة الماتان.

التعليق:

(١) هذه الإشاعة، وهي أنموذج للإشاعات «القولية» في وقت الحرب

إنما نشأت من «الغموض» الأساسي «والأهمية الانفعالية لموقف الحرب» (وكثير من «إشاعات الكراهية» وقت الحرب تتجه كمابينا من قبل لا إلى العدو وإنما إلى جماعات محلية من المواطنين يتخذون كموضوعات بديلة للعدائية المزاحة).

وفي هذه الحالة التي نحللها يتم «تبرير» كراهية ألمانيا في مجرى الإشاعة بطريقة أخاذة.

(٢) ولب الحقيقة الأصلية جد بسيط، ينحصر في واقعة يمكن التحقق من صحتها، ومؤداها أن أجراس الكنائس قد دقت في ألمانيا احتفالاً لا استيلاءً على أنتورب.

ولكن هذا اللب قد ضاع أثناء إساغته بالنسبة إلى الكراهية القائمة من قبل، وبالنسبة إلى «التوقع» بأن الألمان في أغلب الأحوال يرتكبون الفظائع.

(٣) وخلال النسخ المتسلسلة كلها، تبقى أجراس الكنائس (وهي «رمز» مألوف) كمركز اهتمام، يتزايد إبرازها في الصور المتعاقبة للإشاعة، إلى أن يتم تزويدها في النهاية بمطارق بشرية. ويتضح الإبراز أيضاً في أن الكهنة قد عوقبوا أولاً بفصلهم من أبروشياتهم ثم بالأشغال الشاقة، وأخيراً بأسلوب مروع وخيالي من الإعدام.

(٤) والاشاعة إذ تبدأ بذكر أجراس الكنائس، فإن إستيرادها للكهنة إنما يعد تداعياً آلياً معقولاً بفعل التلازم. وهكذا تتضح عملية «الإساغة المعرفية» و «والإساغة الدوافعية» على السواء.

(٥) ولعل أهم انحرافة في هذه السلسلة المتعاقبة من صور الإشاعة قد حدثت مباشرة إثر صدور النبأ «الأصلي» في صحيفة الكولنيش زيتونج. وكانت هذه الصحيفة التي تصدر في كولوني، تعتبر من المسلم به أن ألمانيا «هي المكان الذي دقت فيه أجراس الكنائس. ولكن المحرر الفرنسي قد نقل مكان الأجراس إلى «بلجيكا».

وهذه الانحرافة الكبرى «التي دعت إلى إقامة «تبرير» كيما يفسر دق

أجراس الكنائس في بلد منهزم) نقول أن هذه الإنحرافة شبيهة بأشكال اللوي التي تنبثق أحياناً بفعل إساءة فهم غير مقصود للألفاظ. فإنه متى حدث سوء فهم للألفاظ فتمخض عن موقف من «الغموض» فمن الممكن أن يعين ذلك على إطلاق تبريرات دوافعية وغير دوافعية.

(٦) وفي الأقاصيص من هذا النوع تبرز عملية «الإسقاط المتعمم» فمقالة الألمان تبرر (عن طريق التتيم) الكراهية التي نستشعرها إزاءهم.

وإمكانية «الإسقاط المباشر» أيضاً لا يمكن إستبعادها. فإن ما «يرغب» الحلفاء في إيقاعه بالألمان؛ لا يختلف كثيراً عما «يرغب» الألمان في إيقاعه بالحلفاء.

ولكن لما كان من المفترض أن الألمان ـ لا الحلفاء ـ هم الذين يرتكبون الفظائع، فإن الموقف ينطوي على فرصة ذهبية بالنسبة إلى الحلفاء «للإفلات من مشاعر الاثم» المتعلقة بعدائيتهم السادية المكبوتة.

الحالة السادسة

انتشرت الأقصوصة التالية أثناء زيارة مدام شيانج كاي شيك لأمريكا عام ١٩٤٣، وقيل ـ في أغلب الأحوال ـ إن مسرح الحادث هو مدينة بلتيمور.

تروي القصة أنه ذات يوم دخل جنتلمان محل مجوهرات وطلب إلى البائع ساعة بخمسماية دولار. ولم يكن لدى البائع مثل هذه البضاعة الباهظة الثمن، ولكنه أستطاع في نهاية الأمر أن يجد بعض ساعات الحائط الممتازة الصنف وقدمها لعميله ليختار في بينها. ولقد انتقى العميل ما قيمته ٧٠٠٠ دولار من الساعات والمجوهرات.

وعندما سأل صاحب المحل عن الطريقة التي سيتم بها الدفع أجابه بأنه سكرتير مدام شيانج، وطلب إليه أن يحتسب هذه المشتريات من حساب الصين في «الإعارة والتأجير».

التعليق:

هذه الإشاعة أنموذج من الإشاعات «داقة الأسافين» في الحرب العالمية الثانية، والتي كانت تستهدف عزل الولايات المتحدة عن حلفائها.

لقد كانت مثل هذه الأقاصيص هي التي أقضت مضاجع رجال الحكومة الأمريكية. (ومن نفس الطابع الأقصوصة القائلة. بأن الروس يستخدمون زبد «الإعارة والتأجير» لتشحيم مدافعهم، وأن البريطانيين كانوا يستخدمون المعونة في شراء جوارب النايلون الأمريكية وغيرها من أصناف الترف النادرة، وبذلك يحرمون مواطنينا من السلع المشتهادة).

(١) تدل الدلائل على أننا ينبغي أن نتوقع لمثل هذه الأقاصيص أن تنتشر فحسب بين جمهور إشاعة محدودة. ففضيحة مدام شيانج تجتذب أناساً ممن لديهم حفيظة سابقة ضد الصين، أو بالحري ضد حكومة الديمقراطيين في واشنطن.

(٢) وهذه الإشاعة، شأنها شأن الإشاعات العدائية بصورة عامة، هي من نتاج «الإحباط»، مع «إزاحة» للجانب الأكبر من العدائية المتولدة. فنقص السلع في وقت الحرب كان مصدر مضايقة، وكانت الضرائب العالية تزيد الطين بلة. فإذا كانت السلع النادرة تتسرب للخارج، وإذا كان دخل الضرائب تبعثر في سلفة حكومة مسرفة، فكيف لا تشعر بالضيق؟ نعم ما من شك في أننا على أتم إستعداد للتضحية من أجل الحرب ـ ولكنها ليست الحرب في نهاية الأمر هي التي نشكو منها وإنما نشكو من العجز الفاضح لتلك الفئة من رجال العصور البالية، ولذلك الرجل الجاثم في البيت الأبيض. فالإشاعة تمثل «إنصهاراً» ذكياً لمشاعر النفور والإحباط، وتعمل على تفسير وتبرير خصوماتنا السياسية.

(٣) ومن الممكن أن ينطوي الدافع على «الإفلات من مشاعر الإثم» ففي عجيج الحرب انغمس كثير من الناس في الترف الذي كان يستحيل عليهم ممارسته في وقت السلم، والذي كان لا يتماشى مع ما تقتضيه الحرب من تضحيات، ومن شراء لسندات الحرب. ولكن إسرافاتنا الضئيلة يمكن في

سهولة أن نتجاوز عنها ونغفرها بالقياس إلى التمادي الصارخ من جانب شخصية من أبرز الشخصيات وقت الحرب. تبذر بفجور اعتماداتنا القومية في شراء أشياء مترفة بدرجة خيالية.

(٤) ومن المحتمل أن يكون هنالك عنصر «إساغة» بالنسبة إلى المعتقد الواسع الانتشار المتعلق بالتبذير وفساد الذمة عند كبار الرسميين في الصين، ولكن هذا العامل، بفرض وجوده «يظل ثانوياً» وذلك من حيث أن الضحايا الذين تستهدفهم الإشاعة هم بصورة أوضح «الملوثون» من الرسميين الأمريكيين.

(٥) ونجد استخدام طابع «التجسيد العياني» ليسبغ على القصة احتمال الصدق. ومن ذلك تحديد المبالغ بـ ٥٠٠ دولار و ٧٠٠٠ دولار، وهذه الحالة تشبه أقصوصة برلين التي أسهبت في الوصف التفصيلي لملابس الوغد الأعمى والشارع الذي وقعت فيه الحادثة. وينحصر جانب من عملية التبرير (التعقيل) في إحاطة الموضوع بالهالة الزائفة للتفاصيل.

(٦) وعلى الرغم من أن مسرح القصة لم يكن يقدم دائماً على أنه بلتيمور فنحن نعلم مع ذلك أنه متى تحدد المسرح، فإن «اللافتة» التي تلصق على الحادثة (وخاصة عندما تتصدر اللافتة القصة، ومن ثم تستثمر أثر الأولوية). تميل إلى أن تبقى ثابتة.

(٧) فلو أن القصة رويت دون ذكر اسم مدام شيانج لما تغيرت وظيفتها الأساسية، ولكن تخصيص شخصية مشهورة إنما هي وسيلة شائعة «لتشخيص إشاعة»، و «إساغتها» بالنسبة إلى موضوع شائع ومألوف يحظى باهتمام عام.

الحالة السابعة

ولدت الحرب إشاعة عن الإشاعة. ففي وقت انتشر القول بأن الحكومة قد أصدرت تشريعاً يعاقب كل مروجي الإشاعة وتذهب هذه الأقصوصة إلى أن الأشخاص الذين تثبت عليهم تهمة ترويج الإشاعة يتعرضون لغرامة قدرها

١٠,٠٠٠ دولار أو السجن.

التعليق:

(١) لعل أبرز مبدأ يسند هذه الإشاعة المروعة بعض الشيء هو مبدأ «الإساغة»: كان هنالك في سجلات القوانين قانون خاص بالفتنة هو جزء من مجموعة القوانين الفيدرالية.

وهذا القانون، وهو يحظى بإعلان واسع النطاق في وقت الحرب، يعاقب بغرامة لا تتجاوز ١٠,٠٠٠ دولار أو بالسجن على نشر الأخبار التي من شأنها أن تعرقل نجاح المجهود الحربي. (ونلاحظ أن التعبير «لا تتجاوز» وقد تعرض لعملية تسوية»): وبسبب الحملة الخاصة بأن المعلومات سبب الإهتمام الشديد الذي أولته عيادات الإشاعة لخطر التقولات فقد أَصْبَحَ الجمهور واعياً متنبهاً لمشكلة الإشاعة، ومن ثم فقد اضطلع في يسر «بإساغة» «الدردشات» البريئة نسبياً، والمنتشرة في كل مكان، بالنسبة إلى قانون الفتنة ذاته. وواضح بطبيعة الحال أن هذا القانون لا ينطبق إلا على مروج للإشاعات من نوع خاص شديد الخطورة (يحتمل أن يكون عميلاً للمحور).

(٢) ولكن مثل هذه التمييزات القانونية كانت تتخطى أفهام الغالبية من الناس. فالموقف بالنسبة لهم شديد «الغموض»، وذلك لأن عامة الناس يجهلون «المعايير الدقيقة» في مجال التشريع.

(٣) والمسألة على جانب من «الأهمية»، وذلك ليس فحسب لما نعمت به الإشاعة من إنتشار، ولما ينطوي عليه وقت الحرب من شعور عام بعدم الأمن، ولكن أيضاً بسبب مشاعر الإثم التي كان يعانيها ولا شك كثير من المواطنين الأمريكيين المخلصين لكونهم من «حاملي التقولات» الهينة الخطر. فإذا كان مروج الإشاعة العادي يعلم أن أحاديثه المفلوتة لم تكن لتخدم وطنه، فقد كان من المحتمل أن يتخيل العقوبة لنفسه. وحتى في الحالات التي لم تكن فيها الإشاعة تضطلع بالتنفيس على هذا النحو الخاص، فقد كانت تعبر

بصورة «مجازية» عن جلال ما يستشعره الناس من ضرورة إطاعة التعليمات في وقت الحرب. ومن الطبيعي أن «تنصهر» مشاعر الخوف والإثم والإجلال بنسب متفاوتة عند مختلف الأفراد.

مرشد في تحليل الإشاعة:

على القارىء الآن أن يقوم بنفسه بعملية التحليل بالنسبة إلى حالات جديدة، يختارها لو شاء من الفقرة الختامية بهذا الفصل أو من محصوله اليومي من الإشاعة إن كان يفضل ذلك وفي اضطلاعه بالتحليل قد يجد في الأسئلة المرشدة التالية ما يعينه وكلها بلا استثناء تستند إلى المبادىء التي سبق عرضها في الفصول السابقة.

ولا حاجة إلى القول بأن جميع الأسئلة لا تنطبق على كل عينة من عينات الإشاعة. والاستخدام الذكي لهذه الأسئلة يتطلب فهما دقيقاً ومرنا للتعريفات والمناقشات التي عرضناها من قبل.

وأكثر من هذا فإن محلل الإشاعة قد يجد من الضروري كيما يفسر إشاعة جديدة تفسيراً ملائماً أنه يحتاج إلى تطبيق بعض المبادىء السيكولوجية أو الاجتماعية التي تتطلبها الحالة، ولكنها ليست من الشيوع بحيث تجد مكاناً في قائمتنا.

١ ـ هل الإشاعة «عبارة مقدمة للتصديق» تتعلق بموضوع معين؟

٢ ـ هل يفتقر الراوي والسامع إلى المعايير الدقيقة للتثبت من صحتها؟

٣ ـ هل يتوفر «الغموض» وتتوفر «الأهمية»؟ وأي العاملين أكثر بروزاً؟

٤ ـ على أي نحو تنطوي الإشاعة على «سعي وراء معنى»؟

٥ ـ هل تقدم الإشاعة تفسيراً اقتصادياً ومبسطاً لموقف بيئي أو انفعالي مربك؟

٦ ـ هل تعبر الإشاعة عن توتر داخلي؟

٧ ـ وهل يعد هذا التوتر في صميمه انفعالياً أو غير انفعالي؟

٨ ـ هل التوتر قوامه القلق، أم العدائية، أم الرغبة، أم الاثم أم الإستطلاع، أم غيرُ ذلك من الحالات العقلية؟

٩ ـ هل تعد الإشاعة تبريراً لانفعال عند الراوي لا يستطيع أن يتقبله بصورة صريحة؟

١٠ ـ ما الذي يجعل الإشاعة تتسم بالأهمية عند الراوي؟

١١ ـ من أية وجهة يتيح ترديد الإشاعة تحقيق التنفيس؟

١٢ ـ ما هي عناصر التبرير التي تنطوي عليها الإشاعة؟

١٣ ـ هل تنطوي الإشاعة على احتمالات الإسقاط، المباشر أو المتمم؟

١٤ ـ هل تشبه الإشاعة حلم يقظة؟ وإن كان الأمر كذلك فكيف؟

١٥ ـ هل تضطلع الإشاعة بوظيفة الإفلات من مشاعر الاثم؟

١٦ ـ هل تنطوي الإشاعة على عدائية مزاحة؟

١٧ ـ هل تكسب الإشاعة قائلها، أثناء ترديده لها. منزلة ممتازة؟

١٨ ـ هل يحتمل أن يكون قولها من أجل إدخال السرور على صديق أو مجاملة؟

١٩ ـ هل يحتمل أن تكون الإشاعة من قبيل «الدردشة»؟

٢٠ ـ هل يمكن الكشف عن نواة الحقيقة التي يحتمل أن تكون الإشاعة قد نبعت عنها؟

٢١ ـ هل هي إشاعة من إشاعات مركز التطلع؟

٢٢ ـ هل يحتمل أن يكون هنالك خطأ في الإدراك في البداية؟

٢٣ ـ ماذا يحتمل أن تكون مراحل التفريغ الابتداعي (الفرسي الخلاق)؟

٢٤ ـ هل يحتمل أن تنطوي الإشاعة على عملية تطوير تشكيلي وإن كان الأمر كذلك فمن أي نوع؟

٢٥ ـ هل يحتمل أن تكون الإشاعة قد تعرضت للوي في الأسماء، أو التواريخ أو الأرقام أو الوقت؟

٢٦ ـ هل تحتفظ الإشاعة في تطورها بنفس اللافتة أو المسرح؟

٢٧ ـ هل يرجح أن يكون قد حدث انحراف تام لموضوع الإشاعة؟

٢٨ ـ هل تكشف الإشاعة عن عملية «مسايرة العرف» أو «الوعظ الأخلاقي»؟

٢٩ ـ ما الذي يبدو أن الإشاعة تنطوي عليه من أشكال الإساغة بالنسبة إلى الثقافة؟

٣٠ ـ هل تحمل الإشاعة طابع الأسطورة؟

٣١ ـ هل يمكن أن تتضمن الإشاعة قلباً للحقائق؟

٣٢ ـ هل تنطوي الإشاعة على نزعة إلى التندر والملحة؟

٣٣ ـ هل في ظروف سريان الإشاعة ما يفسر خصوبتها؟

٣٤ ـ ما الذي يحتمل أن يكون قد عانى عملية «تسوية»؟

٣٥ ـ هل تحتفظ الإشاعة في إصرار بمستهجنات لفظية أو بأشكال تعبيرية خامرة؟

٣٦ ـ أهنالك عملية إبراز «في صورة» التكثير؟

٣٧ ـ هل لعبت الحركة أو الحجم أو الرموز المألوفة دوراً في عملية الإبراز؟

٣٨ ـ هل هنالك عملية «تجسيد عياني» أو عملية تشخيص»؟

٣٩ ـ ما الذي يمكن أن نجده من مظاهر «الميل إلى الإغلاق»؟

٤٠ ـ هل تتعلق الإشاعة بالأحداث الجارية؟

٤١ ـ هل تضطلع الإشاعة «بأقلمة زمنية» للأحداث الماضية؟

٤٢ ـ هل تعبر الإشاعة بصورة أساسية عن نزعات إلى الإساغة من طبيعة عقلية غالبة، أم من طبيعة انفعالية غالبة؟

٤٣ ـ هل جميع التفصيلات تخضع للإساغة بالنسبة إلى الموضوع الرئيسي؟

٤٤ ـ هل حدث تكثيف للعناصر؟
٤٥ ـ هل هنالك في الإشاعة ما يدل على الإسترسال الحسن؟
٤٦ ـ على أي نحو تتجلى الإساغة بالنسبة إلى «التوقع»؟
٤٧ ـ هل هنالك إساغة بالنسبة إلى العادات اللغوية؟
٤٨ ـ هل هنالك إساغة بالنسبة إلى المصلحة الذاتية المهنية أو الطبقية أو الأجناسية أو ما إلى ذلك؟
٤٩ ـ هل هنالك إساغة بالنسبة إلى الأحكام القبلية؟
٥٠ ـ هل من المحتمل أن يستند أي جزء في الإشاعة إلى سوء فهم لفظي؟
٥١ ـ ما هي الدلالة التعبيرية (المجازية) للإشاعة؟
٥٢ ـ هل يحتمل أن تمثل الإشاعة انصهاراً للوجدانات الانفعالية ومشاعر النفور؟
٥٣ ـ هل من المحتمل أن الإشاعة تنتقل في «سلسلة» إشاعة من هو جمهور الإشاعة؟ ولم؟
٥٤ ـ هل قابلية الإيحاء عند الناس بالنسبة إلى هذه الأقصوصة بالذات ترجع إلى عقولهم أن «عديمة المراس» أو إلى أنهار «جد وثيقة المراسي».
٥٥ ـ هل يمكن تصنيف الإشاعة في فئة الإشاعات المروعة، أم داقة الأسافين، أم الإشاعات الحالمة؟ أم من زاوية أخرى على أنها إشاعة زاحفة (حابية) أم مندفعة، أم غاطسة؟
٥٦ ـ أمن المحتمل أن تكون الإشاعة جزءاً من حملة همس؟
٥٧ ـ ما علاقة الإشاعة ـ إن كانت هناك علاقة ـ بالأخبار أو بالصحافة؟
٥٨ ـ هل تحمل الأقصوصة لافتة الإشاعة أم الحقيقة؟ أم تنتسب إلى مصدر مسؤول؟ وما الأثر المترتب على ذلك؟
٥٩ ـ ماذا يمكن أن تكون خير طريقة لدحضها؟

٦٠ ـ هل يحتمل أن الإشاعة تمثل مرحلة من المراحل الأربع في انتشار إشاعة الأزمة (الشغب)؟

خامات للتحليل:

الحالة الثامنة

سرت إشاعة قبل أربع وعشرين ساعة من الوقت المحدد لتسريح وحدة كبيرة من رجال الأسطول، ومؤدى الإشاعة أن القائد قد أعلن بأن تسريح هؤلاء الرجال سيتأخر أسبوعين وذلك حتى تفرغ السفينة التي يعملون عليها من مهمتها.

الحالة التاسعة

يقال أن الروس «يؤممون نساءهم».

الحالة العاشرة

كل بضع سنوات تعاود الظهور أقصوصة مؤداها أن ثعبان بحر قد رؤي في لوك نيس باسكوتلندة.

الحالة الحادية عشرة

في الأيام الباكرة للحرب انتشرت إشاعة مؤداها أن جزر الفلبين (وأيضاً قناة بنما) قد هاجمها اليابانيون طوال أسبوع كامل قبل الهجمة على بيرل هاربور، ولكن أخبار ذلك الهجوم قد أخفيت عن الجمهور.

الحالة الثانية عشرة

كان يحدث لكثير من الأسراب قبل الطيران في مهمة قتال أن تتفشّى

فيها إشاعات مؤداها أن مهمات السرب وأسلحته ليست على ما ينبغي، وأن الهدف يكاد أن يستحيل على الإصابة، بسبب الدفاع المضاد للطائرات، وأن العدو قد توصل أخيراً إلى استكمال سلاح دفاعي جديد مرعب ويكاد يكون من المؤكد أنه سيستخدم ضد السرب.

الحالة الثالثة عشرة

إعتقد العمال في إحدى المدن الصناعية بولاية نيو انجلند، إبان أحلك أيام الهبوط الإقتصادي عام ١٩٣٠، أن الأغنياء في سياراتهم الفاخرة يدهسون الأطفال الفقراء دون أية مبالاة، كما اعتقدوا أيضاً أن الهبوط الإقتصادي برمته إنما هو مؤامرة دبرتها طبقة الأثرياء لتقطع أرزاق العمال. (أوردها لايتون leighton ١٩٤٥).

الحالة الرابعة عشرة

إبان الحرب الأهلية الأمريكية كان الرأي العام في الشمال يتشكل إلى حد بعيد بإعتقاد مؤداه أن عشرات الألوف من جنود «الإتحاد» قد أعدموا عن عمد، إما رمياً بالرصاص كما في فورت بيلو، وإما بتجميدهم بالبرد كما في بل يلاندو إما بالجوع كما في أندرسون فيل، أو بتركهم يموتون بالمرض بملاريا المستنقعات كما في كارولينا الجنوبية. (أوردها بك Buck ١٩٣٧).

الحالة الخامسة عشرة

في مسرحية منرو Ck. Munro وعنوانها «عند مسز بيمنر»، إنتشر بين نزلاء البنسيون عدد من الإشاعات تقشعر من حولها الأبدان وتدور حول «لاندرو» الفرنسي ذي اللحية الزرقاء وتدور الثرثرة على النحو التالي:

يقولون إنه قد قتل عشرات وعشرات من النساء. وإنه قد أكلهن!

كلا كلا! فأنا لا أستطيع تصديق ذلك. إنني أشك في ذلك. إنني أظن

أنه دائماً يأكلهن.

حسناً، على أية حال فإنه قد قتل مئات من النساء كلا كلا، فلنكن عادلين. ينبغي أن نكون عادلين. فلم يكن مئات بل كن تسعا وثلاثين. هذا رقم أفضل. نعم نستطيع أن نتفق جميعاً فيما أظن على العدد كان تسعا وثلاثين.

ملحق
معايير للهيئات المسؤولة عن الوقاية

من إشاعات وقت الحرب والحد من تأثيرها.

(حددت هذه المعايير ووزعتها «لجنة الأمن العام بماساشوستس بالتعاون مع عيادة الإشاعة التابعة لصحيفة البوسطون هيرالد ترافلر).

أولاً: الموظفون:

(١) ينبغي أن يكون الرئيس المسؤول عن هذا العمل شخصاً يتسم بالنّضج وقوة التمييز، والحكم الصائب.

(٢) ينبغي أن يكون الرئيس المسؤول وينبغي أن يكون العاملون معه أيضاً ملمين بسيكولوجية الإشاعة.

ثانياً: المكتب الإستشاري:

من الضروري أن تكون الهيئة الإستشارية متسمة بالكفاءة والنشاط. وينبغي أن تشتمل هذه الهيئة على ثلاثة أنواع من الأشخاص. ولما كانت معالجة الإشاعات غالباً ما تتطلب غير قليل من الأحكام المرهقة، فمن الأهمية أن يتوفر من المستشارين ما يسمح بحماية القائم بالتنفيذ ضد مجالات «عمله» الخاص وضد عاداته الفكرية

(١) مستشارون فنيون:

وتضم هذه الجماعة أخصائيين نفسيين أو أطباء عقليين. وتعد الدراية بعلم النفس الاجتماعي وبعلم النفس المرضي مدخلاً ضرورياً للتأويل المكتمل لما يعرف من ظواهر الإشاعة.

(٢) مستشارون نيابيون:

لما كانت هيئات مقاومة الإشاعة غالباً ما تصطدم بمشكلات على جانب من التعقد الدبلوماسي، فإنه من الضروري الحصول على تمثيل شامل للمنظمات الدينية والعمالية والأجناسية والثقافية. فكل مظاهر التحزب ينبغي تجنبها.

(٣) مستشارون من ذوي المكانة:

هؤلاء الأشخاص يختارون لأنهم من المبرزين ومن أصحاب النفوذ في المجتمع. إنهم يضفون على الهيئة ما هي في مسيس الحاجة إليه من أهمية ووقار.

هذا إلى أنه غالباً ما يمكن الاستعانة بهم كشخصيات مسؤولة تنزل أقوالهم منزلة النصوص في دحض الإشاعات. ومن المستحسن أن تشتمل هذه الفئة على ممثلين للقيادة المحلية للجيش أو الأسطول ولمكتب إدارة التسعيرة... إلخ.

ثالثاً: تعاون الجمهور في التبليغ عن الإشاعات:

ينبغي أن يعلن عن الهيئة على نطاق واسع جداً بوصفها الجهة التي يستطيع أي شخص تبليغها عن أية إشاعة ضارة. وينبغي اتخاذ التدابير حتى تصبح جميع مستويات الأمة على علم بهذه الهيئة.

(١) من الممكن تعيين أشخاص بالذات من مختلف المستويات يكلفون بأن يسجلوا كل ما يصل إلى أسماعهم من إشاعات ويبلغوا عنها. وتيسيراً لعملهم يمكن إرسال استخبار إليهم مرة كل أسبوعين. وبالإضافة إلى أن

هؤلاء الأشخاص يعملون كشبكة تسمع، فإنهم، حين نحسن اختيارهم، يمكن الاستعانة بهم في فهم الرأي العام كلوحة دالة.

(٢) وينبغي تشجيع المواطنين على أن يقوموا بالتبليغ بالبريد عن جميع الإشاعات التي يسمعونها. وينبغي على الهيئة أن ترد على كل خطاب بعلم وصول ينطوي على الشكر والامتنان.

(٣) وينبغي اتخاذ جميع الاحتياطات لضمان ثقة الجمهور في الهيئة من حيث اخلاصها ونبل مقاصدها.

(٤) ولا يجوز للهيئة بحال من الأحوال أن تضطلع بمهمة البوليس في التبليغ عن أسماء الأشخاص أو زجرهم بتهمة نشرهم للإشاعات.

رابعاً: تمحيص ودحض الإشاعات:

دحض الإشاعات إنما ينبغي أن يتم فحسب عن طريق السلطات المسؤولة وعليه، فمن الأهمية إلى أبعد حد أن تقيم الهيئة علاقات وثيقة بأكبر الشخصيات المسؤوله في الهيئات العامة (الجيش، البحرية، مكتب إدارة التسعيرة، المكتب الفيدرالي للإعلام إلخ). وفي حالات خاصة يمكن الاستعانة بالقادة المسؤولين في المجتمع للقضاء على بعض الإشاعات المزعجة.

(١) ينبغي دائماً إحالة الإشاعات إلى هيئات أخرى لدحضها. ولا يجوز لأية عيادة إشاعة أن ترد على أية إشاعة من عندياتها.

(٢) ينبغي أن يكون الدحض منطقياً ومدعماً بالوقائع. فرد واحد ضعيف وغير مقنع قد يؤدي إلى تقويض جسيم في ثقة الشعب بالعملية كلها.

ومستوى الكتابة في «عيادة الإشاعة» في صحيفة ينبغي أن يكون أعلى بكثير جداً مما هو عليه في كتابة الصحف العادية، وذلك لأن القراء تتفتح عندهم بصورة مسرفة روح النقد لعدم المنطقية أمام هؤلاء الذين يدعون المنطقية، وتتفتح عندهم روح الشك أمام هؤلاء الذين يحاولون نقض بعض المعتقدات الشعبية السائدة والأحكام القبلية الملقنة.

(٣) لا تغالي إزاء الحالة. فكثير من الإشاعات تنطوي على نواة من الحقيقة. فإن ثقة الجمهور تزداد عند اتباع سياسة الصراحة التامة.

وعندما تكون الإشاعة في صميمها صادقة وضارة على السواء فمن الخير ألا يتاح لها مزيد من الانتشار.

(٤) لا تجعل كلامك يدل على أن جميع الإشاعات مصدرها النازية.

إن المبالغة في توكيد النازية كمصدر للإشاعات لمما يضعف الثقة في الهيئة. ومن الأفضل إخبار الجمهور بأن بعض الإشاعات الدائرة تناظر الموضوعات التي تحملها إذاعة الموجة القصيرة للمحور، ولتقف بالمسألة عند هذا الحد.

(٥) ضع الإشاعة في سياق من الإنكار.

العن الإشاعة قبل سردها، وبعد سردها العنها مرة أخرى.

(٦) لا تطبع ولا تنشر على أي نحو الإشاعات الشريرة المنطوية على شعارات ملفتة. حطم العبارة الملفتة حتى لا تكون سهلة التذكر. والخطر يكمن في أنه على الرغم من دحضها فإن الشعارات والأقوال المأثورة تحظى بالحفظ بسبب ما تتميز به من طابع ملفت.

وعلى سبيل المثال، بدلاً من أن تقول بأن إشاعة تفيد بأن الخدم في الجنوب ينتظمون في أندية اليانور «التي شعارها» كل امرأة بيضاء في مطبخها عند حلول عيد الميلاد ـ يحسن أن تقول: أن الإشاعة تفيد بأن خدم المنازل في الجنوب ينتظمون في أندية اليانور التي تسعى إلى إرغامْ النساء البيض على أن يضطلعن بأنفسهن بأعمال مطبخهن.

(٧) ينبغي أن تتاح فسحة كافية من الوقت للمكتب الإستشاري حتى يقرأ ـ صورة من عيادة الإشاعة قبل إرسالها للمطبعة.

والأمر يتطلب من المستشارين يومين أو ثلاثة لاستقبال وقراءة أية انتقادات على النص وإرسال رأيهم بشأنها.

(٨) تكشف التجربة عن ١٠٪ فقط من الإشاعات الواردة للعيادة

تستحق النشر.

وينبغي على الرئيس المسؤول أن يكون على استعداد للتصرف في الإشاعات الأخرى الباقية، بطريقة فردية: فنصفها تقريباً ينبغي أن يحال إلى هيئات أخرى (مكتب إدارة التسعيرة، الصليب الأحمر، سلطات الميناء) ثم يرد عليها بطريقة فردية.

أما النصف الثاني فينبغي أن يرسل إلى المكتب الفيدرالي للإعلام أو يتم إخطار صاحب الرسالة عن الجهة التي تستطيع أن تمده بالإجابة.

والقليل جداً من هذه الإشاعات الذي يستحق أن ينتهي إلى سلة المهملات. إن معالجة الإشاعات لهي مسألة تستنفد الكثير من الوقت، ولا ينبغي الاستخفاف بها.

(٩) في حالة دحض الإشاعات الإجناسية لا ينبغي - كقاعدة عامة - إبراز ملامح الجماعة الاجناسة التي تتعرض للمهاجمة. أعرض بصورة عامة الحالات كباش الفداء (من قبيل الزنوج، اليهود، قادة التنظيمات العمالية، الايرلنديون، الكونجرس، البريطانيون الخ) مبيناً كيف أن نفس الأحاديث الشريرة تدور حول كل جماعة من هذه الجماعات.

(١٠) عيادة الإشاعات لا ينبغي استخدامها لإظهار وجهة نظر رئاسة تحرير الصحيفة.

وينبغي التمسك بأعلى مستوى من الموضوعية، فاستخدام هذا الابتكار لإظهار دعاوى رئاسة التحرير سيكون من شأنه الحط من قدر المثل الصحفية.

(١١) لا ينبغي عرض الإشاعات في سياقات تجعلها تبدو وكأنها مجرد فكاهات. فالجمهور لا ينبغي أن ينظر إلى الأمر وكأنه مجرد تسلية مرحة.

(١٢) ينبغي على برامج الإذاعة التي تعالج الإشاعات أن تلزم أقصى الحيطة حتى لا تعمل دون تنبه منها على نشر الإشاعات بدلاً من دحضها.

خامساً: طرائق العمل:

يتحتم على الهيئة أن تكون معدة للاضطلاع بوظائف عديدة في مجال الخدمة المعنوية.

(١) ستعرض الكثير من المشكلات التي تتطلب الحكم الصاحب، والدراية بإمكانيات المجتمع المحلي، والرغبة الصادقة في بذل المعونة لرفع المعنوية في المنطقة.

(٢) ينبغي على الهيئة أن تكون معدة لاستخدام كل أو معظم الطرائق التالية:

(أ) لجان الفحص:

يمكن محاربة بعض الإشاعات بتعيين لجنة فحص تضطلع بتحديد الوقائع وعندئذ ينطلق تقرير اللجنة جنباً إلى جنب مع الإشاعة.

(ب) الملصقات والأشكال البيانية:

إن معظم الملصقات تصور الإشاعة على أنها مصدر إعلام يخدم العدو. ومن المحتمل أن يكون الأثر المحطم للمعنوية الذي تتمخض عنه الإشاعة داقة الأسافين أشد خطورة بكثير من غيره، وهذا الخطر يمكن مواجهته في سهولة بالإيضاحات البيانية.

(ج) مطبوعات الدعاية:

إن النشرات والرسوم البيانية والكتيبات إلخ حين تحظى بالدقة والصياغة الحسنة إنما تعد أداة فعالة لنقل الأنباء والتحذير من الإشاعات.

(د) برامج الإذاعة:

نوعان من برامج الإذاعة يتسمان بالفاعلية في محاربة الإشاعات.

النوع الأول هو برامج «الوقائع». والمنطق الذي تستند إليه هذه الطريقة ينحصر في أن الوقائع متى أصبحت متاحة ومكتملة فلن تجد الإشاعات مجالاً لها.

والنوع الثاني من البرامج يتناول الإشاعات والتقولات بصورة عامة. وهذا النوع يكشف عن سخف وخطر الإشاعة في وقت الحرب.

وعلى أية حال ينبغي اتخاذ قدر كبير من الحيطة حتى لا تنتشر الإشاعة عن طريق إذاعتها بالراديو. تذكر أن الناس يفتحون المحطة بعد بدء البرنامج ويغلقونه قبل نهايته.

(هـ) جماعة المتحدثين:

إن المتحدثين الذين يظهرون أمام مختلف الهيئات، مفندين الإشاعات السائدة، وموضحين خطرها، إنما يعدون خير معين لأية حملة مضادة للإشاعات.

(و) حراس المعنوية:

إنهم أشخاص في المجتمع مهمتهم الأولى هي التبليغ عن الإشاعات. إنهم يؤلفون شبكة تسمع، وهم يعينون - كلوحة دالة - على فهم الرأي العام.

(ز) الأقاصيص ذات الدلالة:

هذا النوع من النشر يتضح في مقال ظهر في مجلة المختار عدد سبتمبر ١٩٤٢، بعنوان «بوسطون تعلن الحرب على الإشاعة» وبوسع مقالات وقصص أخرى أن تتناول موضوع إشاعات وقت الحرب، وعلاقة الإشاعة بالدعاية إلخ.

(ح) الأفلام:

على الرغم من أن السينما طريقة جد فعالة في عُرض الموضوع على الجمهور فإنها لم تستخدم حتى اليوم إلا قليلاً. ويعد فيلم «مستر بلابرماوث» مثالاً بارزاً على الأفلام الممتازة التي تتناول هذا الموضوع.

سادساً: مواطن مهاجمة الإشاعة:

إن حملة الدعاية التي تهاجم الإشاعة يمكن أن تتبع الخطوط الآتية:

(١) الإشاعة غير جديرة بالثقة، وتكاد تكون زائفة دائماً. ما من شخص عاقل يعول عليها.

(٢) الإشاعة يمكن أن تكون سلاحاً من أسلحة دعاية العدو.

(٣) الإشاعات محطمة للمعنوية: فليس من الوطنية، بل من الخيانة نشرها.

(٤) الشخص الذي ينشر الإشاعة أحمق أو شرير أو خطر.

(٥) التداول المبتذل للإشاعة هو في العادة نوع من اتخاذ كبش فداء، وهو يلبس صورة لوم فريق من الأبرياء على المتاعب الخاصة بالشخص.

الفصل الثاني عشر
سيكلوجية القيادة

معنى القيادة وارتباطها بالأهداف:

يمكن أن ندرك معنى القيادة إذا ربطنا بينها وبين طبيعة السلوك المميز للأحياء عموماً وللإنسان خصوصاً.. فالذي يميز السلوك الحيوي هو السعي لتحقيق أهداف حيوية متجردة... وهذه الأهداف تكون لها أهمية خاصة لبقاء النوع واستمرار بقائه... فمنذ بداية حياة الكائن الحي حتى نهايتها نجده يسعى للبحث عن أشياء ضرورية لتحسين حالته ويشعر شعوراً واضحاً أو غامضاً بالرضا والارتياح إذا تحققت أهدافه.. ويحاول تعديل سلوكه وتصرفاته إذا لم يستطع تحقيق هذه الأهداف.. ويظل يكافح مدى الحياة في تحقيق أهداف متجردة للوصول إلى حياة أفضل.

وفي مجال هذا السلوك الحيوي المستمر تظهر الحاجة إلى القيادة الموجهة إلى تحقيق الغاية والوصول إلى الغرض المنشود.. حيث تعمل القيادة على المساعدة على بلورة الهدف حتى يكون محدداً وواضح الرؤية.. وحيث تعاون القيادة في تحديد الوسائل المناسبة التي تحقق الوصول إلى الهدف بخير الطرق.

إذن يمكن تعريف القيادة بأنها العملية التي تمكن من الإسهام بصورة فعالة في حركة الجماعة نحو أهداف معروفة.. ويمكن لكل عضو في الجماعة أن يعتبر نفسه وتعتبره الجماعة قائداً لها في موقف معين بقدر ما يظهر من قدر على المشاركة في نشاط الجماعة لتحقيق أهدافها المنشودة.

ونظراً لطبيعة تغير المواقف والظروف واستمرار تفاعل الجماعة والاختلافات الفردية فيها فإن القيادة يمكن أن تنتقل من عضو إلى آخر مع بقاء

إستمرار المجموعة كوحدة في العمل لتحقيق أهدافها والتقدم نحو بلوغ غاياتها. أي أن الأساس هو استمرار الجماعة في تقدمها بالرغم من تغير أفرادها، فالأهداف والغايات المتحددة هي أساس بقاء الجماعة واستمرار قوتها. أي أن المباديء والأهداف أبقى وأهم من الأفراد.

ويعتبر تحديد الأهداف وتوضيحها الأساس الأول لضمان انتظام حياة أي جماعة واستمرار قوتها.. إذ أن وضوح الأهداف يساعد على رسم الخطة والعمل على تحقيقها.

ولكل جماعة على أي مستوى أهدافها الخاصة المستمدّة من ظروف حياتها وآمالها.. وكلما كانت هذه الأهداف متبلورة ومحددة وواضحة في أذهان أفراد الجماعة ساعد ذلك على نجاحها وتقدمها.

جماعية القيادة:

ومن أهم الضمانات التي تحقق القيم الديموقراطية السليمة الأخذ بمبدأ «جماعية القيادة» ذلك لأن القيادة الفردية لها عيوبها.. فمهما كانت شخصية القائد فإن من الخطر أن يترك له وحده التصرف التام في جميع شؤون الجماعة... ففي الانفراد بالسلطة معنى التحكم الفردي والتسلط كما أن من المحتمل أن ينحرف القائد عن أهداف الجماعة تحت تغير ظروفه النفسية الخاصة.. كما أن الإعتماد التام على القائد الفرد يعرض الجماعة إلى هزات عنيفة عند غياب هذا القائد أو تغيره مما يؤثر في استمرار خطة الجماعة...

وعندما تصبح القيادة أسلوباً للعمل ينبغي أن نعمل على غرس الإيمان به، وتوضيح فكرة القيادة الجماعية ومفاهيمها حتى يكون تطبيقها عن وعي وبصيرة.

ويتضمن مفهوم القيادة الجماعية إشتراك عدد من الأفراد الممثلين للجماعة في توجيه أمورها عن طريق تبادل الرأي والمشورة والوصول إلى اتفاق عام في كل أمر يهم الجماعة.. وبذلك تضمن الوصول إلى أحسن الحلول

للمشكلات وإلى خلاصة الآراء التي تساعد على استمرار قوة الجماعة وحفظ كيانها.

وفي نظام القيادة الجماعية يشعر كل فرد في الجماعة بأن من الممكن أن يجد نفسه في بعض الأوقات قائداً مشتركاً في توجيه أمور المجموعة، فيساعد مع الآخرين على توضيح أهدافها وتحسين الوسائل التي تؤدي إلى تحقيق هذه الأهداف. فإذا أمكن اكتشاف مواهب الأفراد واستخدام هذه المواهب في صالح المجموعة فإن هذا يزيد في كفاءة الجماعة وقدرتها على السير في طريقها أكثر مما لو اعتمدت على قائد واحد مهما بلغت قدراته خصوصاً إذا أمكن للمجموعة أن تنسق جهودها وتتعاون في اتجاه واحد نحو تحقيق الهدف المشترك، فمن أهم ميزات القيادة الجماعية أنها تهيىء الفرصة للتدريب على القيادة.. وإعداد الصف الثاني من القادة مع ضمان تجدد فاعلية الأفراد وفاعلية الجماعة كلها.

ولعل أوضح مثل للفكرة التي يسير عليها أسلوب العمل في القيادة الجماعية هو السلوك الجماعي لفريق كرة القدم أثناء إحدى المباريات حيث نجد أن أفراد الفريق كلهم يتحركون في اتجاه واحد نحو تحقيق هدف واضح في أذهانهم جميعاً وهو إحراز النصر. ويتضح هنا توزيع الأدوار والمسؤوليات مع ضمان العمل التعاوني واستعداد كل فرد للقيام بدور زميله إذا لزم الأمر... وحيث تقل النزعة الفردية وتنعدم الأنانية ويعمل الجميع كوحدة متكاملة... وحيث يجد كل فرد نفسه يقود الجماعة في بعض الأحيان ويشارك في الوصول إلى تحقيق الهدف العام.

مستويات القيادة وتسلسل القيادات:

للقيادة مستوياتها بحيث نجد جماعة تقود جماعة أخرى فالقيادة والتبعية ظاهرة طبيعية... وجماعية القيادة لا تتنافى مع تسلسل القيادات بحيث نجد القيادة في مستوى معين تصدر قرارات معينة تلتزمها قيادة أخرى على مستوى

آخر.. وهذه تقود جماعة في مستوى ثالث... وهكذا.

ومن المهم جداً إحترام تسلسل القيادات وعدم خروج جماعة معينة على ما تقرره قيادة أخرى على مستوى أعلى.. إذ أن القيادة في المستوى الأعلى تدرك الأمور على نطاق أوسع ولديها من المبررات والعوامل ما يجعل لقراراتها أهمية وقوة ينبغي احترامها والعمل على تنفيذها.

ولا بد من توضيح الاختصاصات على كل مستوى قيادي حتى لا تطغى فئة على أخرى وحتى لا تتدخل القيادة في مستوى معين في شؤون القيادة في مستوى آخر.

ولكن هذا لا يمنع من المدارسة والنقد واقتراح التعديل ورفع الأمر إلى القيادة الأعلى لإعادة النظر في القرار فحرية الرأي وحرية النقد مكفولة، ولكن مع احترام التنفيذ إلى أن تصدر قرارات أخرى معدلة للقرارات الأولى.

ولا بد أن يكون خط سير أمور التخطيط والتنفيذ سائراً في اتجاهين متعاونين بحيث تنبت الآراء والمقترحات من القاعدة وترفع إلى المستويات الأعلى لتنسيقها وإعادة النظر فيها وإرسالها بالتالي إلى التنفيذ في الصورة المعدلة في ضوء الظروف المختلفة إلى القاعدة لتأخذ طريقها إلى التنفيذ.

أنواع القيادات وأساليبها:

من الممكن أن نميز في مجال دراسة القيادة بين نوعين مختلفين من القيادة من حيث طريقة الوصول إلى منصب القيادة.

النوع الأول:

هو ذلك القائد الذي يفرض على الجماعة بالتعيين دون أن يكون لهم رأي في اختياره.. وذلك نتيجة لنظم موضوعة أو تقاليد متبعة وليس نتيجة اعتراف تلقائي من جانب أفراد الجماعة بصلاحية هذا الشخص لقيادتهم.. ولذا يوجد في هذه الحالة نوع من التباعد النفسي بين القائد وبين أعضاء الجماعة...

ومن الصعب هنا وصف الأفراد في هذه الحالة بأنهم تابعون لهذا القائد إذ أنهم في الحقيقة مرغمون على تنفيذ أوامره والخضوع لسلطته وليس من الضروري أن تكون طاعتهم له مبنية على إقتناع منهم.

النـوع الثانـي:

هو ذلك القائد الذي يختاره أفراد الجماعة بالانتخاب والاختيار بحيث يشعر أعضاء الجماعة أنهم أصحاب الرأي في هذا الاختيار.. وأنهم يملكون عزله أو إبقاءه... وفي هذه الحالة يكون التجاوب أكثر وضوحاً عن الحالة السابقة بين القائد والجماعة.

ويبدو الفرق واضحاً بين هذين النوعين من القادة عند الموازنة بين نظام الحكم الملكي وهو مبني على فكرة القيادة المفروضة على الناس وبين النظام الجمهوري وهو مبني على فكرة اختيار الرئيس بالانتخاب الذي يشترك فيه جميع أفراد الشعب... حيث نجد في النظام الملكي أن السلطة كلها مركزة في فرد واحد يتم تعيينه بنظام خاص كالوراثة مثلاً... بينما نجد في نظام رئاسة الجمهورية أن القائد يكون معبراً وممثلاً لرأي الشعب الذي يملك اختياره ويقدر على عزله.

وطبيعي أن من الممكن للقائد الذي يفرض على الجماعة بالتعيين أو بأي نظام مشابه أن يقترب في أسلوب عمله من القائد المنتخب بحيث يستطيع أن يكسب ثقة المرؤوسين ويشعرهم بالحاجة إليه... فيرضون به ويتقبلون قيادته... ولكن هذه الحالة خاصة معرضة لكثير من الاحتمالات. من أنواع القيادة المعروفة الترقيات الطبقية التي تقوم على توارث المناصب الرئاسية وفق نظم مرسومة مهما كان شخصية من يصبه الدور في الرئاسة حتى ولو كان غير كفء للقيادة ويحدث هذا في حالات كثيرة مثل تولي المناصب الرئاسية بالأقدمية المطلقة.

وهناك نوع آخر في القيادة الممكن تسميتها بالقيادة الرمزية وفيها يستمد

القائد سلطته من الهيئة التي يمثلها كالقيادات الدينية في رئيس الكنيسة أو إمام المسجد ومثل الرئيس في نظام الشرطة والجيش. وكل واحد من هؤلاء يكون له في الغالب زي خاص ويستمد سلطته من أصالة التقاليد والأوضاع التي يعتبر هو رمزاً لها.. ويتوقف نجاح مثل هذا القائد على درجة تدريبه على مراعاة الطقوس والتقاليد المرسومة وتنفيذه للبرامج الموضوعة أكثر مما يتوقف على نوع شخصيته أو تصرفه مع الجماعة التي يتعامل معها.

ونود أن نؤكد هنا حقيقة لا شك فيها وهي أن نجاح مهمة القيادة مسألة تتوقف على نوع الجماعة ومسؤوليتها وعلى ظروف الزمان والمكان، فقد يصلح شخص معين للقيادة في جماعة معينة ولكنه نفسه يفشل لو أعطي قيادة جماعة أخرى.. كما أن القائد الناجح في ميدان الحرب والقتال لا يصلح قائداً في مجالات السلم والحياة العادية.

وفي كل حالات القيادة وأنواعها يتوقف النجاح وتقدم الجماعة في بلوغ أهدافها على شخصية القائد وعلى أسلوبه في القيادة وطريقته في سياسة أمور المجموعة كما يتوقف هذا النجاح على عوامل أخرى في داخل الجماعة ذاتها وخارجها أيضاً.

أساليب القيادة:

ويحدثنا علماء النفس الاجتماعي عن تجربة مشهورة في ميدان أساليب القيادة وهي تجربة دراسة الأجواء الاجتماعية الناتجة من أنواع القيادة الثلاثة: النوع الديمقراطي، والنوع الأوتوقراطي أو الدكتاتوري، والنوع الفوضوي. وقد أجريت هذه التجربة في أربع جماعات من نوادي الطلبة متكافئة من النواحي المختلفة كالسن والمستوى العقلي والمكانة الاجتماعية ونحو ذلك.. وتم تدريب أربعة من القادة على أساليب القيادة الثلاثة: الديمقراطي والدكتاتوري والفوضوي ـ ثم تناوب القادة الانتقال من جماعة إلى أخرى مرة كل ستة أسابيع بحيث مارس كل قائد أساليب القيادة الثلاثة مع المجموعات المختلفة وخبرت

كل مجموعة هذه الأنواع من أساليب القيادة.. واستخلصت نتائج التجربة للمقارنة بين أثر كل أسلوب من أساليب القيادة الثلاثة في أفراد الجماعة وسلوك أعضائها، وكانت كما يلي:

١ ــ القيادة الدكتاتورية:

تكثر في هذه القيادة الأوامر الصادرة من القائد.. ويكون موقف المجموعة أميل إلى السلبية ينتظرون صدور تفاصيل خطوات العمل من القائد.. وليس لها أن تعارض أو تبدي رأياً معارضاً.. وتتطور الأحوال إلى نوع من الجمود والشكلية وبسبب تقييد حرية الرأي يؤدي الكبت إلى أنواع من الثورات والمشاحنات الداخلية والسلوك العدواني بين أفراد المجموعة فتكثر أساليب العنف عند تغيير نوع القيادة من الدكتاتورية إلى الديمقراطية أو الفوضوية فيحدث التنفيس الذي يدل على وجود نوع من السخط وعدم الرضا بالأسلوب الدكتاتوري... وكثيراً ما يحدث أن يترك الأعضاء ناديهم تعبيراً عن عدم الرضا وبسبب كبت الحريات.

ويلاحظ هنا أن إنتاج المجموعة يتوقف على توجيه القائد وحده ومدى الصواب والخطأ في تفكيره دون أن يكون للكفاءات الموجودة في المجموعة أثر في توجيه العمل والإنتاج، ولذا يقل الابتكار، ويتوقف سير الجماعة هنا على شخصية القائد نفسه وضمان عدم تعصبه أو جنوحه عن الصواب ـ وعلى ضمان خلوه من النزوات الفردية والانحرافات التي لا ترضاها الجماعة.

٢ ــ القيادة الفوضوية:

وعلى النقيض من الأسلوب السابق نجد أن القيادة الفوضوية تعطي حرية مطلقة لكل فرد ولا يتدخل القائد في تنظيم مجرى الأمور ولا يحاول التوجيه أو إبداء الرأي إلا إذا طلب منه، وهنا تظهر الآراء المتضاربة والعمل الفردي الذي يغلب عليه اللهو واللعب وعدم الجدية ويتحول النظام إلى فوضى.

وفي هذه المجموعة يكثر ضياع الوقت وتبدو آثار التفكك الداخلي وعدم الاستقرار... والآراء التي تصل إليها المجموعة في هذه الحالة تكون آراء سطحية مأخوذة من حصيلة الآراء الكثيرة المتضاربة في اتجاهاتها فتكون الحصيلة أقل من الرأي الناضج بسبب عدم تنسيق الآراء وتوجيهها نحو هدف واحد وعدم قيام القائد بهذا التنسيق والتوجيه.

٣ ـــ القيادة الديمقراطية:

يتميز سلوك هذه المجموعة بقوة التماسك بين أفرادها في جو تسوده المحبة والإخاء، والعمل فيها يسير على أساس التعاون وتبادل المشورة والرأي بطريقة طبيعية تلقائية بعيدة عن التكلف والشكلية... ويشعر أعضاء المجموعة بنوع من الإستقرار والرضا وعدم الرغبة في ترك المجموعة أو الانتقال إلى غيرها.

ولكل فرد في المجموعة أن يبدي رأيه في صراحة... والآراء لها صفة التوجيه والمعاونة على تحقيق الهدف وليست في صورة أوامر صارمة سواء من القائد أو من الأفراد الآخرين.

وفي هذه المجموعة تطبيق مباشر للقيادة الجماعية حيث تدور المناقشة الحرة وتصدر القرارات بناء على وجهة النظر المشتركة التي يصل إليها الجميع بالمنطق والاقتناع بما يحقق مصلحة الجماعة... ويخضع الفرد لرأي الأغلبية ويتقبله بروح تعاونية.

وتتميز هذه المجموعة بأن عملها يسير بانتظام مستمر سواء في غياب القائد أو حضوره، ذلك لأن العمل منظم والمسؤوليات محددة والعلاقات الإنسانية تساعد على قيام كل واحد بدوره في سير الجماعة كلها نحو تحقيق أهدافها.

وفي هذا الجو يكثر الحديث عن المجموعة كوحدة بلفظ «نحن» أكثر من الحديث الذاتي بلفظ «أنا» وتبدو علامات التفكير الجماعي والمشاركة

والابتكار بحيث نجد أن المجموعة تصل إلى آراء ناضجة في خلاصة التفكير الجماعي الذي يستفيد من جميع العناصر النابهة في المجموعة.

تعاقب القادة:

القائد عنصر متغير في أي جماعة ولا بد أن يعقب القائد الجديد سلفه لعوامل التغير المختلفة... وقد يحدث هذا التعاقب بحكم الوراثة أو بالإنتخابات الجديدة أو التعيين أو التغيير من أي نوع كان.

ومما لا شك فيه أن أسلوب القيادة يطبع الجماعة بنوع من السلوك والاتجاهات النفسية التي يكون لها أثر لاحق على القائد الجديد ويبدو هذا الأثر فيما يتوقعه الأفراد من القائد الجديد وفي المطالب التي توجه إليه، وفي مدى الاعتراف بكفاءته وأسلوبه في العمل.

وقد تبين أن القيادة الدكتاتورية ذات الطابع الاستبدادي تؤثر في درجة نجاح القائد الجديد الذي يسير بالأسلوب الديمقراطي حيث تسبب له بعض المتاعب في أول الأمر ولكن لا تلبث المجموعة أن تجد نوعاً أحسن من المعاملة يؤدي إلى زيادة نجاح القيادة الجديدة... ويحدث هذا أيضاً بالنسبة لمجيء القائد الديمقراطي بعد القائد الفوضوي... وطبيعي أن تطبيق القيادة الجماعية يتأثر بأساليب القيادة السابق تطبيقها من قبل في المجتمع لمدة ما... ولكن لا تلبث الجماعة أن تدرك مزايا القيادة الجماعية فتتمسك بها ولا ترضى عنها بديلاً.

القيادة الجماعية ومزاولتها:

تعمل القيادة الجماعية على تحقيق الأهداف التي تنشدها الجماعة كما تعمل على صيانة كيان الجماعة وتقويتها بما يضمن لها الاستمرار في التقدم وهذا يستلزم توضيح الأهداف ووضع الخطط للوصول إليها والعمل التعاوني لحل المشكلات التي تعترض سبيل التنفيذ ثم تقويم الخطوات التي تتم

لتحسين أساليب التنفيذ والمهم هنا هو استمرار الأفكار المتجردة والمبادىء وبقاء الجماعة كلها متجهة في طريقها بصرف النظر عن تغير الأفراد المشتركين في القيادة.

ولانتظام الجماعة واستقرار القيادة الجماعية لا بد من توزيع الوظائف والمسؤوليات بين أعضاء الجماعة... بحيث تحدد الأدوار التي يقوم بها الأفراد أو الجماعات الداخلية وهذا لا يمنع من إعادة النظر من آن إلى آخر في هذا التوزيع والتحديد كلما دعا الأمر ذلك... وكلما كان توزيع هذه المسؤولية على مدى أوسع انتشاراً بين أفراد الجماعة كان ذلك أدعى إلى زيادة الإنتاج ودعم الروح الديمقراطية بين الأفراد.

وفي مجال توزيع الأدوار والمسؤوليات لا بد من اكتشاف مواهب الأفراد وتعرف المجالات التي يتقنون العمل فيها بحيث يعطي كل فرد وكل جماعة نوع العمل المناسب في المواقف المناسبة.

ولا بد أن نؤكد أن القيادة عملية تفاعل إجتماعي ويتوقف نجاحها على بناء الجماعة وتنظيمها وإتجاهات الأفراد وحاجاتهم ومشكلاتهم وعلى العلاقات بين الأفراد وطبيعة الظروف والعوامل المؤثرة في هذه الجماعة.

ويعرف أحد الباحثين القيادة الجماعية بأنها توزيع المسؤوليات بين أفراد الجماعة بحيث تنطلق الطاقات الكامنة عندهم من عقالها وينفسح المجال أمام الجميع للإبتكار وحل المشكلات فلا بد أن يتحقق في القيادة الجماعية إفساح المجال أمام الأفراد للمشاركة الفعالة في تقدم الجماعة بحيث تقل النزعة الاتكالية ويزداد الشعور بالمسؤولية الجماعية.

وهذا يستلزم خلق الجو الاجتماعي الذي يتصف بالسماحة والديمقراطية وحرية النقد وحرية الرأي وشعور كل شخص بأنه مشترك في تقرير مصير الجماعة كلها.

وفي مجال مزاولة القيادة نجد أنواعاً مختلفة من الأنماط القيادية في التنفيذ منها القيادة التي تستند على تأييد الجهات العليا بحيث يحرص القادة

على تنفيذ ما تشير به تلك الجهات والتمسك بالإجراءات المحددة... وفي هذه الحالة يغلب على القيادة عمليات التنفيذ دون التفكير في التعديل أو الابتكار.

وقد نجد نوعاً آخر من ممارسة القيادة في الشخص أو الجماعة التي تثق في نفسها بدرجة تجعلها تتغاضى عن توجيهات الرئاسات الأعلى والقواعد المقررة وتتصرف تبعاً لمقتضيات الموقف المباشر على الطبيعة في كثير من الحرية والانطلاق.

وبين هذا وذاك نجد أسلوباً وسطاً يلجأ إلى المرونة في معالجة المواقف والتوفيق بين وجهات النظر ويعتبر مهمته الرئيسية التأثير في المجموعة ليسير العمل من غير صعوبات.

ولكن القيادة الجماعية النموذجية هي التي يستخدم فيها المنهج الديمقراطي والاتصال المبني على التفاهم و التشاور بين أفراد الجماعات بما يساعد على تحقيق أهدافها بناء على اقتناع اجماعي مقبول من كل الأفراد بحيث لا يبقى بينهم معترض وإلا كان ذلك دليلاً على عدم وضوح الأمر في نظره الأمر الذي يستلزم الاستمرار في إقناعه.

التدريب على القيادة الجماعية:

ليست القيادة الجماعية مجرد فكرة يستطيع كل شخص أن ينفذها بل إنها روح جديدة واتجاه جديد في التكوين النفسي والاجتماعي للأفراد.

ولهذا فأول خطوة يجب أن نهتم بها في تطبيق مبدأ القيادة الجماعية هي تنقية النفوس من آثار النزعات الفردية والاتجاهات الاستبدادية أو الاتجاهات الفوضوية. فالشخص الذي تعود السلطة الدكتاتورية يصعب عليه أن يتنازل عنها ليسير في ركب القيادة الجماعية والشخص الذي تعود الاتكال وإلقاء المسؤولية على الغير وآثر السلبية إزاء الجماعة يصعب عليه أيضاً أن ينتظم في ركب القيادة الجماعية.

ومن هنا فلا بد من تدريب لهؤلاء جميعاً ليرضوا أنفسهم ويعيدوا تشكيل شخصياتهم وأساليب سلوكهم من جديد.. ومن حيث نظرتهم إلى نفوسهم ونظرتهم إلى غيرهم ومن حيث ثقتهم في الناس وتقديرهم لمن يستحقون التقدير. إن السلوك الأناني الذي يجعل الشخص متمركزاً حول نفسه يعوق اتجاهات القيادة الجماعية ويخلق الصعوبات وإن الشخص المستبد برأيه والذي تعود إملاء الأوامر بدون تفهّم أو تقبل لرأي الغير لا يصلح ضمن فريق القيادة الجماعية الجديدة.. إن القيادة الجماعية تحمي من النزعة الاستبدادية وتحكم الإنسان في أخيه الإنسان.

وليس من السهل تغيير هذه الإتجاهات الإستبدادية والأنانية فالحالات النفسية التي تكونت على مر الزمن وأصبحت عادات ثابتة نسبياً تحتاج إلى محاولات قوية لتغييرها وتعديل السلوك المتأصل، كما أنه ليس من السهل أن يتغير هؤلاء الناس في اتجاهاتهم من غير أن يرغبوا هم أنفسهم في تغيير أنفسهم ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾.

فالرئيس الذي يعتبر نفسه الآمر الناهي في محيط عمله والذي يعتبر معاونيه مجرد منفذين لأوامره لا يستطيع أن يسير في ركب القيادة الجماعية التي تتميز بالثقة في كفاءة الآخرين وتقدير رأي الغير، والشخص الذي تعود القيادة الاستبدادية يكون في الغالب صلب الرأي قوي الانفعال يستمد قوته من القسوة والصرامة.. وهذه صفات معوقة للعمل الجماعي، ومن شأنها أن تثير الصراع والتوازن بين أفراد الجماعة، في حين أن القيادة الجماعية تتطلب الهدوء النفسي والاتزان الانفعالي والمرونة التي تسمح بالوصول إلى الرأي الجماعي الذي يحقق أهداف الجماعة.

وهناك صفات أساسية يستلزم توافرها في الأشخاص الممكن أن تناط بهم أمور المشاركة في القيادة الجماعية.. منها الصفات العقلية كتوافر القدر الكافي من الذكاء والقدرة على حسن التصرف.. ولعل هذه أهم صفة يجب مراعاتها في انتقاء القادة؛ إذ أن الذكاء هو أساس التعامل الاجتماعي وهو الذي

يساعد على إدراك جوانب المشكلات وحلها حلولاً صحيحة.

ويرتبط بذلك القدرة الابتكارية والقدرة على فهم نفسيات الناس وتعرف مواطن قوتهم وضعفهم.. وذلك بجانب الصفات المزاجية والخلقية الثابتة نسبياً عند الأفراد، والتي تميز شخصياتهم عن غيرهم كالاتزان العاطفي والقدرة على ضبط النفس والتخلص من عوامل التعصب والأنانية. وفي مجال القيادة تظهر أهمية صفة التعامل مع الناس في يسر وانسجام وصفة القدرة على التعبير عن النفس وإبراز المواهب واستخدامها. هذا بجانب الأمانة والنزاهة وغير ذلك من الصفات الخلقية الأساسية.

ولا شك أن التدريب على القيادة الجماعية بالممارسة والتعلم يساعد على تكوين صفات أخرى تساعد على نجاح القيادة كالقدرة على التصرف في المواقف بالإفادة من الخبرات السابقة، ومثل الإلمام بجوانب العمل وصعوباته واكتساب البصيرة في فهم الأمور والتصرف فيها، ومثل التدريب على اكتشاف مواهب الأفراد وتوجيههم للإسهام في العمل الجماعي بما يناسب هذه المواهب.. ومثل إدراك مطالب المجتمع وتخطيط الاحتياجات بحسب أولويتها والإستجابة لهذه المطالب بما يناسب الظروف المختلفة.

ولكن التدريب وحده لا يكفي بل لا بد من نشر الوعي بين الناس كلهم لتفهم أصول القيادة الجماعية وفلسفتها حتى يخلصوا أنفسهم من الخنوع والإذلال ومن التكاسل والاتكال.. وبحيث نربي عندهم الدوافع إلى العمل الجماعي والمبادءة وإبداء الرأي، والإقدام على الإشتراك في الأعمال التعاونية بصرف النظر عن نتائجها الفردية القريبة.. نريد أن يتعودوا على الإنتاج والتضحية والبذل من أجل الجماعة ففي ذلك خير ومنافع تعود عليهم في المستقبل. وقد يكون ذلك بعد وقت طويل ولا بد أن يدركوا أن هذه المنفعة العامة الآجلة أولى وأهم من المنافع الشخصية العاجلة التي غالباً ما تتعارض مع الصالح العام.

لا بد أن تدرك الهيئات والمؤسسات دورها في العمل الجماعي، ولا بد أن تكون على بصيرة بحق كل فرد في تسيير أمور الجماعة، وحريته في النقد،

وحريته في الرأي بحيث يسلك سلوكاً نافعاً يساعد على سرعة التقدم الاجتماعي.

إن تغيير مفاهيم الناس وتعليمهم تلك القيم الجديدة في القيادة ليس أمراً سهلاً. ولذا فلا بد أن تنتشر مبادىء القيم الجماعية بين جميع الطبقات والمستويات وأن نوضح لهم الموازنة بين القيادة الاستبدادية والفوضوية والقيادة الديمقراطية الجماعية. وأن نغرس فيهم التعود على الإيجابية والفاعلية والتخلص من السلبية والنزعة الاتكالية.

تقويم العمل في ظل القيادة بصورها المختلفة

إذا أردنا أن نقيس مدى تقدم جماعة من الجماعات أو مدى نجاح العمل في أي فريق فيمكن أن نبحث عن دور الرضا النفسي بين أفراد المجموعة عن طريق إجابتهم على الأسئلة المماثلة لما يأتي:

١ ـ هل يترك الرئيس في حالة غموض عما يجري من الأمور التي يجب أن يعرفها في محيط العمل؟

٢ ـ إذا كان عندك شعور بالضيق من مسألة معينة فهل تشعر بحرية التحدث عنها إلى رئيسك أو أحد زملائك؟

٣ـ هل التغيرات التي تحدث في محيط العمل يراعى فيها صالح المرؤوسين كما يراعى فيها صالح الرؤساء؟

٤ ـ هل الظروف المحيطة بالعمل من شأنها أن تشعرك بالإطمئنان والشعور بالأمن من ناحية عدم التعرض للأخطاء؟ .

٥ ـ هل الجو الذي تعمل فيه يجعلك في مأمن من الدسائس والفتن وصيد الأخطاء؟

٦ ـ هل تشعر بأنك تنمو في عملك وتزيد من خبراتك الخاصة والعامة بما يؤدي لنمو شخصيتك كلها؟

٧ ـ هل تشعر بأنك عضو في جماعة تفخر وتعتز بانتمائك لها؟

٨ ـ هل تشعر بالرغبة في الاستمرار في عملك أم تتمنى لو أنك ترك إلى عمل آخر حتى ولو كان أقل منه منزلة؟

٩ ـ هل تشعر بأن الرئيس يعاملك بالاسلوب المشوب بالعطف والرغبة في مساعدتك دائماً؟

١٠ ـ هل تعرف حدود عملك واختصاصاتك جيداً؟ أم أن حدود العمل غير واضحة مما يضطرك للقيام بعمل غيرك؟

١١ ـ هل تنسب إليك نتائج عملك؟ أم أن نتائج العمل منسوبة إلى الرئيس وحده؟

١٢ ـ إلى أي حد تشعر بالرضا من حيث المرتب الذي تتقاضاه من عملك؟

١٣ ـ إلى أي حد تشعر بالارتياح من الروح التعاونية والاجتماعية التي تسود علاقتك بزملائك في العمل؟

١٤ ـ هل تشعر حقيقة بأنك تشغل وقت فراغك بما يروح عن نفسك؟

١٥ ـ إلى أي حد تشعر بأنك متصل بالحياة العامة في محيط المجتمع الذي حولك؟

١٦ ـ إلى أي حد تشعر بالأمان والاطمئنان من أخطاء عملك المادية وغير المادية؟

١٧ ـ هل تشعر بأن إمكانيات العمل من حيث المكان والأدوات تساعد على سرعة إنجاز أعمالك؟

١٨ ـ هل تشعر أن رئيسك يحسن التصرف في قيادة العمل؟

١٩ ـ إلى أي حد تشعر بارتياح وسعادة في حياتك العائلية؟

٢٠ ـ إلى أي حد تشعر بالرضا عن نفسك وشخصيتك بينك وبين نفسك؟

٢١ ـ هل تشعر بأنك مشترك في سير العمل الجماعي في المحيط الذي تعمل فيه؟

٢٢ ـ هل تشعر بأن قدرتك على العمل التعاوني تتحسن بالتدريج لدرجة

تنسيك مصالحك الذاتية؟

٢٣ ـ هل تمارس حرية النقد لما يجري حولك بعد أن تحاسب نفسك على أخطائك؟

٢٤ ـ هل تشعر بأنك تعمل مع الرئيس مشتركين في المسؤولية.. أم بأنك تعمل مع الرئيس باعتباره صاحب المسؤولية والسلطة؟

٢٥ ـ هل تشعر بالرضا عن نفسك لما تبذله من جهد في سبيل تحقيق أهداف الجماعة التي تعمل معها؟

الفهرس

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر

الفصل الثاني عشر